جمهورية العراق
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة البصرة

سور الحواميم القرآنية

دراسة في دلالة البنية والتركيب

أُطروحة تقدّم بها

عبد الرحمن فرهود جسّاس الزيرجاوي

إلى مجلس كلية التربية ـ جامعة البصرة وهي جزء من متطلبات نيل شهادة دكتوراه فلسفة في اللغة العربية وآدابها .

بإشراف

الأستاذ الدكتور

فاخر هاشم سعد الياسريّ

1433هـ 2012م

مسرد الموضوعات

الموضــوع	الصفحة من - إلى
المقدمة	4-1
الباب الأول : في دلالة البنية الصرفية	**123-5**
توطئة	7-5
الفصل الأول : في بنية الأفعال	44-8
أبنية الفعل المزيدة	53-8
أبنية الفعل الثلاثي المزيدة	44-9
افعل	15-9
فعّل	25-16
افتعل	36-25
استفعل	44-36
الفعل المبني للمجهول	53-45
الفصل الثاني : في بنية الأسماء	123-54
أبنية المصادر	91-54
فَعْل	61-55
فِعْل	67-62
فُعْل	72-67
فعال	78-72
فِعال	81-78
فَعْلة	86-82
تفعيل	88-86
افتعال	90-89
إفعال	91-90
اسم الفاعل	103-92
أبنية المبالغة	107-104
الصفة المشبّهة	114-108
الجموع	123-115
جمع السلامة	120-115
جمع المذكّر السالم	117-115
جمع المؤنث السالم	120-117
جمع التكسير	123-120

الباب الثاني : في دلالة البنية التركيبية	**224-124**
توطئة	125-124
الفصل الأول : في الجملة وأساليبها	176-126
تركيب الجملة القرآنية بين الثبوت والتجدد	136-126
التركيب الاستفهامي	145-137
التركيب الندائي	154-146
التركيب الأمري	168-155
التركيب النهيي	176-169
الفصل الثاني : في العدول التركيبي	224-177
التقديم والتأخير	192-177
تقديم الجار والمجرور (الخبر) على المبتدأ	184-180
تقديم الجار والمجرور على المفعول به	188-184
تقديم الجار والمجرور على خبر إنّ	192-188
الحذف	210-193
حذف جزء من الكلمة	197-194
حذف الكلمة	208-197
حذف المفعول به	201-197
حذف المضاف	202-201
حذف المبتدأ	205-203
حذف الفعل	208-205
حذف الجملة	210-208
الالتفات	224-211
خلاصة بأهم نتائج البحث	232-225
ثبت المصادر والمراجع	259-233
ملخص باللغة الانكليزية .	

المُقَدِّمَة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله حمداً يصعد أوله ولا ينفد آخره ، حمداً سرمداً أبدا ، لا انقطاع له ولا نفاد ، حمداً لا أجر لقائله إلّا رضاه ، والصلاة والسلام على خير نعمه ، وأفضل رسله ، مصدّق وحيه ، وحامل كتابه ، الذي بهرت آياته العقول وأعجزت الألسن ، محمد المصطفى وآله الطيبين الطاهرين .

وبعد :

تعددت الدراسات الأكاديمية التي اتخذت النص القرآني ميداناً لها ، وبخاصة في مجال اللغة ، إلى الحد الذي يصعب معه الإحصاء ، وكانت ترمي إلى إظهار فرادة هذا النص الكريم وإعجازه ، ولكنّ الكثير منها لم يستطع اقتحامه والتعمق في تحليله ، واكتفى بدراسته على مستوى التطبيق ، بالتنظير للظاهرة اللغوية ، ومن ثم إيجاد النصوص القرآنية التي يمكن أن تكون مصداقاً لها ، ولا سيما في ميدان البنية والتركيب . ويبدو أنّ ذلك يرجع إلى قداسة النص وارتباطه بالغيب من جهة ، وتعلق الأحكام الشرعية حلالها وحرامها به ، من جهة أخرى . وقد انتهجت هذه الدراسات طريقين في معالجة النص القرآني ، فإمّا أن تدرس النصّ كاملاً ، أي ما بين الدفتين ، وإمّا أن تتناوله على سبيل التبعيض ، بدراسة سورة منه ، أو مجموعة سور ، أو آيات متعددة ، تجمعها خصائص معينة على صعيد الشكل أو المضمون ، ومنها سور الحواميم المباركة ، وهي : (غافر ، فصلت ، الشورى ، الزخرف ، الدخان ، الجاثية ، الأحقاف) التي عكف البحث على دراستها ، إذ تناولتها دراسات سابقة تجاوزت ـ فيما اطلعت عليه ـ بنيتها وتركيبها ، ولم توصد أبواب دراستها، فلا يمكن لباحث أن يدعي أنّه امتلك ناصية النص القرآني ، وتمكّن من قراءته قراءة تقطع الطريق عن الباحثين فيه ، وعشرات التفاسير تشهد بذلك . كما أنّ هذه الدراسات وإن اقتربت من هذا البحث في عنوان النص المدروس ، إلّا أنّها اختلفت جذرياً عن المنهج التحليلي الذي سار عليه البحث ، إذ اختار الباحث في تحليله منهجاً توليفياً أو تكاملياً ، استعان بتقنيات مناهج متعددة ، من دون الإغراق بالتنظير ، أو الانشغال بالمصطلحات

الخاصة بهذه المناهج ، لأنّه اعتقد أنّ هذا الطريق يمثل السبيل الناجع لمقاربة النص القرآني في مكونات بنيته وتركيبه ، وديناميتها وتحليلها واستكشاف حقائقها وآفاقها ، فتنوع المناهج يعطي مزية التمكين من الاستكشاف ، إذ يقوم بدور المجلّي الذي يسمح بإبراز ظواهر متنوعة[1]. كما أنّه يبدد الخشية من الوقوع فيما وقعت فيه كثير من الدراسات التي اكتفت بالتطبيق واتسمت بالتقليد ، من دون التعمق في تحليل النص القرآني وإبراز مزاياه . زيادة على أنّ هذا النص المعجز أسمى من أن يبرّز معالم إعجازه وجماله منهج معين ، لقصور أدواته ، وانشغالها بحيثية معينة , ومن ثم إهمالها للجوانب الأخرى .

إنّ اختيار البحث هذه السور الكريمة ـ ولا أريد استباقه ـ لم يكن لما بينها من تواشج على صعيد الشكل ، كابتدائها بالحروف المقطعة نفسها على سبيل المثال ، وإنّما لوحدتها الموضوعية ، وتجانس خطابها ، وتطابق أساليبها ، وكأنّها سورة واحدة ، مع احتفاظ كلّ منها بخصوصية معينة تميّزها عن أختها . لذا اتفق الباحثون والمختصون بالشأن القرآني ، الذين درسوا حيثية النزول وتأريخه ، وترتيب سوره ، وما يرتبط به من قضايا عقائدية أو فكرية ، ومنهم آية الله محمد تقي المدرسي في مقاصد السور في القرآن الكريم ، وآية الله جواد آملي في الوحي والنبوة ، والدكتور صبحي الصالح في مباحث في علوم القرآن ، وحسين صالح حمادة في مباحث في علوم القرآن ، ومحمد هادي معرفة في تلخيص التمهيد ، وهشام جعيط في السيرة النبوية ـ تاريخية الدعوة المحمدية في مكّة ، اتفقوا على أنّها من السور المكيّة أولاً ، مع استثناء بعض الآيات ، وأنّ تسلسلها في المصحف يتطابق مع تراتبية نزولها ، على الرغم من أنّ المشهور عند العلماء أنّ ترتيب السور في المصحف الشريف ليس توقيفياً . وهو يؤشر إلى خصوصية هذه السور المباركة ، وعلاقتها مع بعضها ، وتمثيلها مرحلة من مراحل الدعوة الإسلامية ، تنماز بخطاب خاص وأساليب لغوية معينة تتوافق مع المرحلة الفكرية التي يمر بها متلقي الخطاب ، وتؤشر إلى تطور الصراع بين الإيمان والكفر ، وخصوصية أساليبه اللفظية والفكرية ، وهي المرحلة المكيّة الثالثة . إذ تعكس هذه السور تطور المعاني التي أتت بها

(1) ينظر : مدخل لفهم اللسانيات : 55

الدعوة الإسلامية ، وتطور فعاليات الدعوة نفسها في مكّة ، وكيف حصل تلقيها وقبولها ورفضها . وهي فترة ركّزت على أنّ هناك مجموعتين متصارعتين ، مجموعة المؤمنين وزمرة الكافرين . وكان الخطاب فيها متمحوراً حول الأسس في النزاع مع الكافرين ، حول الجدل والاحتجاج على أسس الدين ، من عقيدة التوحيد بأبعاده المختلفة ، والنبوة والكتاب والوحي ، والمعاد ، ومحاولة الإقناع ، بالترغيب والتخويف ، وبالتهديد والوعيد ، وبالإرشاد والتوجيه . ومن خلال الخطاب القرآني وأساليبه في هذه السور المباركة تتكشف مواقف الفريقين بالتفصيل ، ويظهر كيف أدخل النص القرآني عنصر الجدل ، والى حدّ كبير عنصر التاريخ باستعمال القصص القرآني .

ولا شكّ في أنّ ما تقدم من خصائص جامعة في هذه السور تعكسه معالم البنية الصرفية والتركيبية لها . فكان المنهج المتبع في دراستها يقوم على عنصر الاختيار ، على وفق ما يراه الباحث من خصوصية للبنى والتراكيب التي يقع عليها هذا الاختيار ، بحيث تشكّل نتوءاً بارزاً تتكشّف معالم جمالياته ، ومدى تأثيره على المتلقي ، ويمثّل خصوصية ينماز بها الخطاب عن أساليب التعبير التي تستعمل فنون القول المتعارفة . فانقسم البحث إلى بابين بأربعة فصول ، اختص الباب الأول بدراسة البنية الصرفية ، رابطاً بينها وبين الدلالات الصوتية لأصواتها ، انطلاقاً من مبدأ التكامل بين البنيتين ، فالأصوات تمثّل المكونات الأساسية للبنية الصرفية . وقد جاء هذا الباب على فصلين ، سبقتهما توطئة مثلت إيجازاً نظرياً يبرّز أهمية البنية الصرفية في الدراسات اللغوية القديمة والحديثة ، ويبيّن علاقتها بمستويات اللغة الأخرى . وكان الفصل الأول في بنية الأفعال ، إذ تناول العنوان الأول الأبنية المزيدة منها ، لكونها لا تقتصر على المعاني المعجمية ، بل إنّ الزيادة فيها تومئ إلى دلالات تؤشّر إلى خصوصية السور القرآنية موضع الدراسة . أمّا العنوان الثاني فكان للفعل المبني للمجهول وسياقات استعماله . وجاء الفصل الثاني مختصّاً ببنية الأسماء ، مبتدئاً ببنية المصادر ، الثلاثية منها والرباعية ، المجرّدة والمزيدة . ومن ثمّ جاء اسم الفاعل ، وأبنية المبالغة فيه ، والصفة المشبّهة به ، وختم الفصل بأبنية الجموع .

أمّا الباب الثاني فاختصّ بدراسة البنية التركيبية ، إذ جاء على فصلين ، عكف الفصل الأول على دراسة الجملة وأساليبها ، فابتدأ بتركيب الجملة القرآنية بين الثبوت والتجدد ، منطلقاً من المبدأ الذي أقرّه المختصون ، في دلالة الجملة الاسمية على الثبوت ، والفعلية على التجدد ، لتلمس أثر ذلك في الاستعمال القرآني وسياقاته في سور الحواميم المباركة . ومن ثمّ انتقل البحث إلى دراسة أساليب الجملة ، وتنوع استعمالها، وتعدد سياقاتها ، وأثرها في الخطاب القرآني ، مختاراً منها ما يمثّل بروزاً استعمالياً على صعيد التعدد أو الأثر الدلالي . وهي التركيب الاستفهامي ، والتركيب الندائي ، والتركيب الأمري والتركيب النهيي .

أمّا الفصل الثاني فتناول دراسة ظواهر العدول التركيبي التي برز استعمالها، وتساوق تكرّر ورودها مع سياقات الخطاب القرآني ، ومشاهده المتعددة في عالم الغيبيات أو الحسّيات . وهي التقديم والتأخير والحذف والالتفات . وتم التمهيد لكلّ من هذه الظواهر العدولية بتقديم نظري يبرّز تصنيفها العدولي ، ونظرة علماء اللغة لها ، ودورها في بناء الخطاب . وختم البحث بخلاصة لأهم نتائجه .

وأخيراً أقول إنّ الفضل لله (سبحانه) أولاً ، إذ وفقني لإكمال دراستي الأكاديمية مع القرآن الكريم ، وثانياً لأستاذي الجليل وأخي الكبير الأستاذ الدكتور فاخر الياسري ، الذي عرضت عليه دراسة نصّ شعري لأكثر من شاعر ، وكان في كلّ مرة ينصحني بالاستمرار مع القرآن الكريم ، لأنّه ـ كما يقول ـ توفيق في الدنيا والآخرة . فله بعد الله شكري وامتناني ، إذ أفاض عليّ من صبره وجهده ونصائحه ، فجزاه الله عني أفضل جزاء المحسنين . والشكر موصول لأساتذتي الأفاضل ، وأخوتي الأعزاء ، في قسم اللغة العربية في كلية التربية ، إذ أحاطوني برعايتهم ، فلم يبخلوا عليّ بجهد أو بنصيحة . وأدعو الله أن يثيبني على جهدي - وإن كان قليلاً - وأن يتجاوز زللي وتقصيري ، لفتور همتي ، أو خطأ تقديري ، فحسبي أنّي طالب علم أخطـئ وأصيب، والكمال لله وحده ، والتوفيق منه .

البـاب الأوّل

في دلالة البنية الصرفية

- الفصل الأوّل : في بنية الأفعال
- الفصل الثاني : في بنية الأسماء

توطئة :

تتبنى الدراسة على المستوى الصرفي بنية الكلمة وأثرها في الدلالة التي تستمد من البناء الداخلي للمفردة و" وظيفتها في التكوين اللغوي "[١] ، فأيَّ تغيّر في صيغة المفردة من خــلال الزيادة أو الحذف اللذين يطـرءان عـلى صيغتها الأصلية يؤدي إلى تغيّر فــي الدلالة ، لذا انصب اهتمام القدماء والمحدثين على المفردة لأنها أساس التركيب الذي تتشكل دلالته فــي المرحلة الأولى من مبنى الصيغة وجماليتها والربط بينها وبين مدلولها ومناسبتها للسياق.

لقد انمازت المفردة العربية بقدرة على التحوّل والتغيّر في بنائها اللغوي ، فكان اختيار القدماء مصطلحي الصرف والتصريف يتساوق مع تلك القدرة ، فالصرف والتصريف كلاهما يعني التحويل والتغيير والتقليب من وجه إلى وجه ، ومن حال إلى حال ، فتصريف الرياح صرفها من جهة إلى جهة ، أو جعلها جنوباً وشمالاً وصبّاً ودبوراً ، أي جعلها ضروباً في أجناسها ، وصرّفته في الأمر تصريفاً قلبّته فتقلب[٢] . فالمعنيان يلتقيان في أنّهما يعنيان تحويل الكلمة من بنية إلى غيرها ، لغرض لفظي أو معنوي[٣] . أي " أن تبني من الكلمة بناء لم تبنه العرب على وزن ما بنته ، ثم تعمل في البناء الذي بنيته ما يقتضيه قياس كلامهم ... "[٤]

أمّا الدراسات اللغوية الحديثة في المجال الصرفي فانطلقت من تحديد أصغر وحدة تصريفية ذات معنى تؤدي إلى تغيير الدلالة وهي (المورفيم) ، الذي قسّم بدوره على قسمين ، أحدهما المورفيم الحر ، وهو الذي يستعمل بمفرده ، ويملك الاستقلال بنفسه ، مثل الاسم والفعل . والآخر المقيّد أو المتصل ، وهو الذي لا يمكن استعماله بمفرده ، بل يجب اتصاله بمورفيم آخر ، فيكتسب معناه مع غيره كالنون والألف والياء وكحروف المضارعة

---

(١) نظرية البنائية :٣٢١
(٢) لسان العرب : (صرف) : ١٨٩/٩ ، وينظر : تاج العروس من جواهر القاموس : (صرف) : ٢٤/٢٠
(٣) ينظر : ابن عصفور والتصريف : ١٧
(٤) شرح الشافية : ٧/١

والنون في جمع المذكر السالم والضمائر[١] . ومن دلالة المورفيم يتشكل المعنى الصرفي ضمن التركيب اللغوي ، إذ " إنّ السوابق واللواحق الاشتقاقية تغيّر معنى الكلمة ، بينما يقتصر عمل عناصر التصريف على تعديل الوظائف النحوية للكلمة "[٢] .

فالصرف عند المحدثين يُعنى بالأصول والزوائد ، وبيان المشتق والجامد ، وتحديد أشكال الصيغ وحصر اللواحق وأماكن إلحاقها ، والزيادات وأماكن زيادتها ، ثم ما يعتري تلك الصيغ من إعلال أو إبدال أو قلب أو حذف[٣] .

وقد عني المحدثون انطلاقاً من دلالة المورفيم بالعلاقة بين الدرس الصرفي والصوتي ، فقد يكون التغيّر في بناء الكلمة تغيّراً لفظياً إذا كان يستهدف التجانس الصوتي بين الأحرف ، أو يقصد إلى أن يجعل اللفظة أكثر خفة على اللسان ، فالأصوات تجتمع معاً في إطار الكلمة ، ومن ثم ينشأ مستوى جديد تتآلف فيه الأصوات في الكلمة ، لتدل بصورتها التي تشكلت من علاقة هذه الأصوات على معنى معين[٤] .

ولأنّ الكلمة المفردة لا تمثل قيمة تواصلية ذات بال ، فهي تكتسب حياتها من إدخالها في التأليف ، ذلك " أنّ الكلام إنّما وضع للفائدة ، والفائدة لا تجنى من الكلمة الواحدة ، وإنّما تجنى من الجمل ومدارج القول "[٥] . لذا كانت العلاقة بين الدرس الصرفي والنحوي علاقة وثيقة ، فبينما يبحث علم النحو علاقات المفردات بعضها ببعض في الجمل المختلفة ، يبحث علم الصرف في البناء الداخلي للمفردات الذي يؤثر في علاقتها مع الكلمات الأخرى في الجملة[٦] .

أمّا علاقة الصرف بالدلالة فتنطلق من الأثر الكبير الذي يمثله تغيّر معنى المفردات بتغير بنائها زيادة أو حذفاً أو غير ذلك على الدلالة ، إذ اتفق الدلاليون على جعل الكلمة

---

(١) ينظر : أسس علم اللغة : ٥٣ـ٥٤
(٢) دور الكلمة في اللغة : ٤٩ ، وينظر : أسلوبية البناء الشعري ، دراسة في شعر أبي تمام : ٦٩
(٣) ينظر : دراسة الصرف العربي : ١٧
(٤) ينظر : الواضح في النحو والصرف : د. محمد خير الحلواني : ٥
(٥) الخصائص : ٣٣١/٢
(٦) ينظر : أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة : ٢٢٢ ـ ٢٢٣

إحدى الوحدات الأساسية لعلم الدلالة ، بل ذهب بعضهم إلى أنّها أهم الوحدات الدلالية ، واهـم نواقل المعنى[١] . " فلا يكفي لبيان معنى (استغفر) بيان معناها المعجمي المرتبط بمادتها اللغوية (غ ف ر) ، بــل لابد أن يضم إلى ذلك معنى الصيغة ، وهــو هنا وزن (استفعل) ، أو الألف والسين والتاء التي تدل على الطلب ، وفي باب معاني صيغ الزوائد أمثلة أخرى كثيرة "[٢] .

وبهذا يتضح دور المستوى الصرفي في فتح آفاق الدلالة من خلال ارتباطه الوثيق ببقية المستويات اللغوية للنصوص الإبداعية ، لذا كان لزاماً الوقوف عند ما يشكله من ظواهر أسلوبية تتعلق بالأبنية المتعددة للمفردات في سور الحواميم القرآنية سواء أكانت أفعالاً أم أسماءً ، إذ سيتبين من خلال البحث أنّ الأبنية الصرفية في هذه السور المباركة لها خصوصية مرتبطة بالمستوى الموضوعي الذي يشكل بنية هذه السور .

---

(١) ينظر : دور الكلمة في اللغة : ٤٣ ، وعلم الدلالة : جون لاينز : ١٣-١٤ ، وعلم الدلالة : بالمر : ٤٠
(٢) علم الدلالة : د. أحمد مختار عمر : ١٣

الفصل الأوّل
في بنية الأفعال

أبنية الفعل المزيدة :

لا يمثل الفعل ذخيرة لغوية فحسب ، وإنّما هو مفهوم فلسفي يحكم الوجود كلّه ، انطلاقاً من أنّ الوجود أساساً قائم على الفعل ، ولهذا دخل عاملاً رئيساً في اللغة بوصفه مرتبطاً بما ترتبط به هذه اللغة. وهو أساس التغيّر في البناء الصرفي لأن بنيته تتسم بالتحول ، ولا سيّما عند اتصاله بالسوابق واللواحق التي تكسبه قدراً أكبر من التغيّر ونقل المعنى ، إذ تتشكل منها معانٍ ودلالات مختلفة فـ " ... اللفظ إذا كان على وزن من الأوزان ثم نقل إلى وزنٍ آخر أكثر منه ، فلابدّ من أن يتضمن من المعنى أكثر مما تضمنه أولاً ، لأنّ الألفاظ أدلة المعاني وأمثلة عنها ، فإذا زيد في الألفاظ أوجبت القسمة زيادة في المعاني"(١) . وبذا فالمزيد من الأفعال يتضمن المعاني الثابتة لمجرّدها ، زيادة على المعاني المتغيّرة والمكتسبة التي تحققها المورفيمات المقيدة الملحقة بالأفعال ، فالزيادة في المبنى تعني زيادة في المعنى ، وبخاصة إذا كانت أصواتاً لها أثر في المعنى أو توحي به ، " فإنّ كثيراً من هذه اللغة .. مضاهياً بأجراس حروفه أصوات الأفعال التي عبّر بها عنها ،... فجعلوا الحرف الأقوى للفعل الأقوى ، والصوت الأضعف للفعل الأضعف "(٢) . والمفردة القرآنية ومن ثمّ الجملة القرآنية دقيقة في أصواتها ، ومليئة بالإيحاء ، إذ إنّك " لا تحسّ فيها بكلمة تضيق بمكانها ، أو تنبو عن موضعها ، أو لا تعيش مع أخواتها ، حتى صار من العسير بل من المستحيل أن تغيّر في الجملة كلمة بكلمة ، أو أن تستغني عن لفظ ، أو أن تزيد فيها شيئاً ، وصار قصارى أمرك إذا أردت معارضة جملة من القرآن أن ترجع بعد طول المطاف إليها ، كأنّما لم يخلق إليه لأداء تلك المعاني غير هذه الألفاظ ، وكأنّما ضاقت اللغة فلم تجد فيها ـ وهي بحر خضم ـ لتؤدي به تلك المعاني غير ما اختاره القرآن لهذا الأداء "(٣).

---

(١) المثل السائر : ٥٦/٢ ، وينظر : أسلوبية البناء االشعري ، دراسة في شعر أبي تمام : ٧١
(٢) الخصائص : ٦٥/١ ، وينظر : التحليل اللغوي في ضوء علم الدلالة : ٢١
(٣) من بلاغة القرآن : ١٠٥ ، وينظر : الإعجاز الفني في القرآن : ٧٣

أبنية الفعل الثلاثي المزيدة

بنْية أفْعَل :

تأتي هذه الصيغة من زيادة الهمزة على الجذر الثلاثي (ف ع ل) ، وقد اقترنت لدى اللغويين والباحثين بمعانٍ كثيرة ، ابتدأت بتعدية الفعل وتمكينه حتى وصلت عند ابن قتيبة وأبي حيان إلى أربعة وعشرين معنى[(١)] .

ويبدو أنّ كثرة ورودها مرتبطة بعلة تعدد معانيها أولاً ، وبقوة صوت الهمزة المرتبط بصفاته وطريقة نطقه ، إذ إنّها أكثر الصيغ الفعلية وروداً في سور الحواميم ، ومنها قوله تعالى : ((اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ))[(٢)] ، فقد تحقق من إلحاق الهمزة بصيغة الفعل المجردة (نزل) معنى التعدية ، فالأصل فيه اللزوم وعدم التمكن ، فـ " الأفعال المزيدة بصورتها المهموزة متعدية إلى مفعولاتها ، أسرع في إفادة التعدية من الأفعال المجردة "[(٣)] . كما أنّ الأصل الواحد في هذه الصيغة هو انحدار الشيء من علو إلى سفل مادياً كان أو معنوياً[(٤)] . إلا أنّ العدول إلى المبنى المزيد بالهمزة يشير إلى معانٍ متعددة ودقيقة لا تتحقق بالمبنى الأصيل الذي عُدِل عنه ، ومنها الإيماء إلى تمام إنزال الكتاب بجملته من دون التدرج والتبعيض ، متلبساً بالحق في أحكامه وأخباره وشرائعه وعقائده ، فلا حجة للمنذرين به . لذا عقب بقرب الساعة تهديداً ووعيداً وحثّاً على اتباعه والعمل به ، قبل المفاجأة باليوم الذي توزن فيه الأعمال فتوفى جزاؤها[(٥)] . كما أنّ الإنزال يلاحظ فيه جهة صدور الفعل من الفاعل ، فالنظر فيه إلى جهة انتسابه إلى الفاعل[(٦)] ، مما يومئ إلى عظمة الكتاب ، " فاستدعى ذلك تعريفه تعالى للمحاججين فيه

---

(١) ينظر : أدب الكاتب : ١٩٧-٢٠٩ ، والبحر المحيط : ٤٤/١ ،
(٢) الشورى : ١٧
(٣) صيغة أفعل : ٣٢
(٤) ينظر : مفردات ألفاظ القرآن : (نزل) : ٧٩٩
(٥) ينظر : تفسير أبي السعود : ٥٣/٦ ، ونظم الدرر : ٤٠٠/٧
(٦) ينظر : التحقيق في كلمات القرآن الكريم : ٩٦/١٢

بأنه الذي أنزل الكتاب بالحقّ والميزان "[١] ، وفي الصيغة دلالة على التمكن من الشيء ، فقوله : أنزل الكتاب ، مكناه من النزول[٢] . فعظمة الكتاب ، وتمكّن منزله معانٍ تقتضي جرساً واضحاً وفرته الهمزة بشدتها وجهرها وقطعها ، وبخاصة أنّها تليت بغنة مجهورة (النون) ، فشكلا معاً مقطعاً صوتياً طويلاً مغلقاً (أنـ) ، أعقبه صوتان مجهوران ، مما أومأ إلى حسم الإنزال وانقضائه وعظمته . ومثله قوله تعالى : ((إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ))[٣] ، فزيادة على معنى التعدية التي أكسبها المورفيم المتقدم (الهمزة) ، أي إنّ الله تعالى بضمير العظمة في (أنزلناه) هو بقدرته وتقديره من دون غيره فاعل الإنزال ، وكتابه الكريم مفعول الإنزال الحكيم المقتدر ، حقّق لفظ الإنزال دون التنزيل معنى " أنّ القرآن نزل دفعة إلى السماء الدنيا ثم نزل نجماً فنجماً "[٤] . إنّ التعظيم لأمر الكتاب المستفاد من الضمائم اللغوية (تكرار ضمير العظمة (نا) في (إنّا وأنزلنا) ، والهاء الذي يشير إلى الكتاب) تساوق مع دلالة الصيغة المزيدة على وجود الشيء على صفته[٥] ، مع الدلالة على المبالغة في إنزاله ، أي : بالغنا في إنزاله[٦].

ونلحظ مما تقدم أنّ اختيار المورفيم المزيد في هذه الصيغة يمثل جسراً رابطاً بين صاحب الرسالة والمتلقي ، من خلال إشعاعها بدلالات متعددة تتناغم مع مقتضى الحال بجوانبه المختلفة ، الرسالة المتمثلة بالإيماء إلى عظمة المُنزل ، وليلة الإنزال التي عبر عنها بالبركة ، والمتلقي لحثه على التنبه بإيقاظ ذهنه ، فالإنزال هداية وإنذار . ولا شكّ في أنّ وضوح صوت الهمزة المجهور الانفجاري الذي تكرر في الآية الكريمة في ثلاثة مواضع ، سابقاً صوت النون الذي يتصف بالجهر والغنة والذي تكرر أيضاً في مواضع مختلفة من الآية ، أضفى على الآية جرساً متميزاً يومئ إلى فخامة الحدث وزمنه ، ويؤثر في نفس المتلقي ، ويثير انتباهه .

---

(١) الميزان : ١٩٠/١٨
(٢) ينظر : شرح البناء : ١٢ ، نقلاً عن أوزان الفعل ومعانيها : ٦٦
(٣) الدخان : ٣
(٤) مفردات ألفاظ القرآن : ٨٠٠
(٥) ينظر : الكتاب : ٦٠/٤
(٦) ينظر : أدب الكاتب : ٣٤٣

ومنه الفعل (أرسل) الذي لم يرد في سور الحواميم إلا مقترناً بضمير لفظ الجلالة الدال على العظمة (نا) ، وفي سياق توجيه الخطاب إلى المتلقي الأول (الرسول) (صلى الله عليه وآله وسلم) ، تثبيتاً له لما يلاقيه من تكذيب قومه وأذاهم ، كقوله تعالى : ((وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاء أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ))[١] ، وقوله تعالى : ((وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ))[٢] ، وهذه الصيغة تدل في أصل معناها على الإنفاذ مع الحمل ، بمعنى أن تنفذ شيئاً مع قيد أن تجعله حاملاً لأمر ويلزم هذا المفهوم التحرك والسير ولو معنوياً[٣] ، وهو ما يتسق مع مقتضى الخطاب الذي فيه تسلية للرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) على ما لقيه من قومه ، بأنّ الرسل من قبله لقوا مثل ما لقي[٤] . ففيه معنى الإنفاذ لأمر الله ومن ثم الانقياد لهذا الأمر تحركاً وبذلاً للجهد في تبليغه ، مع الأذى والعقبات التي تواجه الرسل حاملي الرسالة امتثالاً لأمر ربهم ، من دون استثناء ، إذ هي سنةٌ من سنن الله أنفذها على رسله ، لذا جاء المفعول مجروراً بـ (من) الدال على الجنس ، " والمعنى أنّ عادة الأمم مع الأنبياء الذين يدعونهم إلى الدين الحق هو التكذيب والاستهزاء ، فلا ينبغي أن تتأذى من قومك بسبب إقدامهم على التكذيب والاستهزاء ، لأن المصيبة إذا عمت خفت "[٥] . وصوت الهمزة بقطعه وشدته وخروجه من الحنجرة يضفي جوّاً من الجزم والقطع ، يتسق مع معنى الإنفاذ المتكرر مع كل الأنبياء الذي يومئ إليه صوت الراء ذي الطبيعة التكرارية ، والاستقرار الذي يضفيه صوت السين بصفيره الواضح ، أي سكون ذلك سنة من سنن الله (سبحانه)، ومن ثم اللام والنون الذلقيان اللذان ينمازان ـ زيادة على خفتهما وسهولة نطقهما ـ بالغنة والانحراف ، فأسهما في توكيد هذه المعاني وتعظيم أمرها ، وأخيراً ختم الفعل بالألف وهو " صوت عالٍ يحكي المد إلى

---

(١) غافر : ٧٨
(٢) الزخرف : ٢٣
(٣) ينظر : التحقيق في كلمات القرآن الكريم :١٣٤/٤
(٤) ينظر : التحرير والتنوير : ٢٥ / ١٨٨
(٥) التفسير الكبير : ١٦٨/٢٧

الأعلى "[١]، فيصلح للتنبيه ، وكأنّ الإرسال " بهذا الإيقاع الصاعد الذاهب إلى بعيد ، يجلجل في طباق الوجود ، ويخاطب كلّ موجود ، ويتلقّت على رنّته كلّ كائن ، وهو يملأ فضاء السماوات والأرض ، ويبلغ إلى كلّ سمع وكلّ قلب "[٢] . كما أنّ في المورفيم المزيد بالهمزة دلالة على المبالغة تتساوق مع تعظيم الرسالة التي يفيدها إسناد الفعـل إلى ضمير لفظ الجلالة ، " وهذا النوع لا يستعمل إلا في مقام المبالغة "[٣] . لذا جاء معبراً عن قوى الطبيعة الخـارجة عن الاعتدال ، المرسلة تعذيباً وإهلاكاً للمعاندين ، مثل الماء إذا طغى ((فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ))[٤] ، والريح العاصف ((فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ))[٥] ، والصيحة ((إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ))[٦] . وغيرها من ظواهر العذاب .

وورد أيضاً في سياق التهديد والوعيد بما يجري على المكذّبين بالكتاب من تعذيب وتنكيل ، كقوله تعالى : ((الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ۞ إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ))[٧] ، فمعنى الإرسال التام الحجية المعظم بدلالة الصيغة الفعلية المزيدة (أرسل) ، فالزيادة في المبنى زيادة في المعنى ، " أي على ما لنا من العظمة "[٨]، وبالضميمة الدالة على التعظيم (نا) الملحقة بالفعل ، وبالدلالة الزمنية على الثبوت ، وبإيحاء أصوات الفعل بقوة الحدث وفخامته ، وبشدة هول العذاب الذي جسدته أصوات الإحتكاك التي تشير إلى احتكاكهم على الأرض بسحبهم[٩] ، إذ سيق تهديداً ووعيداً . أقول إنّ القرائن تتواتر في إفادة معنى التعظيم ، لذا تكون شدة العقاب والتنكيل الذي وُعِد به المكذبون متسقة مع شناعة الفعل ، إذ يعذبون بأنواع العذاب وينقلون من باب

---

(١) كتاب الموسيقى الكبير : ١٠٧٣
(٢) في ظلال القرآن : ٣٤٤٦/٤
(٣) المثل السائر : ٥٢/٦
(٤) سبأ : من الآية ١٦
(٥) فصلت : من الآية ١٦
(٦) القمر : ٣١
(٧) غافر : ٧٠-٧١
(٨) نظم الدرر : ٣٤٢/٧
(٩) ينظر : الدلالة الصوتية في آي مشاهد القيامة (أطروحة دكتوراه) : ١٢٠

إلى باب من أبواب جهنم ، على سبيل التجدد والاستمرار اللذين تفيدها صيغة المضارع التي عبرت عن أنواع العذاب .

ومنه قوله تعالى : ((فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلاً إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ))[١] ، وقد قريء بقطع الهمزة من أسرى ، ووصلها من سرى[٢] ، وكلاهما يعنيان السير في الليل ، لذا قيل إنّ معناهما واحد[٣] ، إلا أنّ بعض المفسرين قد بيّنوا الفرق الدقيق في الدلالة بين الصيغتين ، فذهبوا إلى أنّ (سَرَى) تدل على استغراق المسير في الليل حتى انقضائه بكامله ، لذا ذهبوا إلى أنّ صيغة الفعل مجرّدة في قوله تعالى : ((وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ))[٤] ، ولو كانت مزيدة لقال (يُسري)[٥] ، أمّا (أسرى) فتدل على أنّ السير في جزء من الليل أو نصفه ، وعليه قوله تعالى ((فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ))[٦] ، والمعنى طائفة من الليل ، أو نصفه كأنه قطع نصفين ، وقوله (بقطع من الليل) توضيح على جزئيته لا كليته[٧] . ومما تقدم يمكن القول إنّ سياق الحال الذي تعكسه الآية يتساوق مع القول بزيادة المورفيم في الآية الكريمة، وأن الفعل من (أسرى) بالقطع ، فالحدث ممتليء بمظاهر العظمة والإعجاز والترقب والخوف والاعتبار ، فالأمر بالإسراء ليلاً كان استجابة لدعاء موسى بنجاة بني إسرائيل ، ومقدمة لنزول العذاب على الفراعنة ، وكلا الأمرين يتطلبان سرعة الحسم بعدم استغراق الليل كلّه، تكريماً للنبي (ع) بسرعة استجابة الدعـاء، وتطميناً له ولقومه ، ودفع القلق عنهم ، " فيجب أن يتبعكم هؤلاء ليلاقوا المصير الذي ينتظرهم "[٨]. فالمورفيم المزيد بدلالته على قصر الوقت وعدم استغراقه ، يتلاءم مع سرعة الاستجابة ، وتسريع العذاب ، مراعاة للمتلقي الأول موسى وقومه (الخائفين) ، وللمتلقي الآخر عبر الزمن ، بأن القدرة الإلهية التي جرت بالإعجاز النبوي في نجاة الداعي المؤمن ، وإهلاك الكافر الظالم ، دليل على أنّ

---

(١) الدخان : ٢٣
(٢) ينظر : فتح القدير : ٦١٦/٤ ، وينظر : معجم القراءات القرآنية : ٤٢٩/٨
(٣) ينظر : الصاحبي في فقه اللغة : ١٣٥ ، وقوة المعنى في العربية (أطروحة دكتوراه) : ٢٤
(٤) الفجر : ٤
(٥) ينظر : الكامل في اللغة والأدب : ١٦٩
(٦) هود : ٨١
(٧) ينظر : الميزان : ١٧٦/١٠ ، وقوة المعنى في العربية : ٢٤
(٨) تفسير الأمثل : ١٣٩/١٦

فاعلها يختص بالعزّ والاقتدار . ويدفع إلى هذا الفهم قرائن منها ، الاختصار بالحذف الذي يتسق مع عدم الاستغراق الطويل في الوقت ، فـ "الفاء وقعت موقع الجواب ، وتقديره : فدعا فأجيب بأن قيل لـه : (فأسر بعبادي) ، فهي عطف وقـع موقـع جواب الدعاء"[١] . ومنها ما في صوت الهمزة الذي تكرر من وضوح سمعي فهو صوت جرسي ينتج من انغلاق الوترين الصوتيين وانفتاحهما بصورة خاطفة فيكون الانفجار المسمى بالهمزة[٢] ، الذي يوحي بسرعة الحسم وحتميته التي تجسدت بقوله (إنّكم متبعون) ، وقوله : ((إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ))[٣] . ومن القرائن تنكير لفظ الليل الذي يفيد التقليل في الوقت .

ومما ورد من هذه الصيغة قوله تعالى : ((وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ))[٤] ، إذ أفاد المورفيم المقيد في أول الصيغة الفعلية (أذهبتم) معنى التعدية ، " يقال : ذهب بالشيء وأذهبه ، يستعمل ذلك في الأعيان والمعاني"[٥] ، ولا يقتصر تأثيرها على التعدية النحوية ، بل يمتد ليشمل الدلالة أيضاً ، فهم استنفدوا ما قُدّر لهم بمحض إرادتهم ، إذ كانوا مسلطين على نعمهم ، فذهبوا بها وأخذوها ، فلم يبـق لهم بعد استيفاء حظهم شـيء منها ، فأكلوا ثـواب حسناتهم بإنفاقها فـي مـلاذ الدنيا وفي معاصي الله ، ولم يستعملوها في طاعته ، لذا استوجبوا العذاب[٦] . وفي تعدية الفعل بالهمزة تقوية لوقوع معناه على المفعول الذي عُدّيَ إليه وإسراع في التأثير فيه[٧] ، فهم بذلوا سعيهم وحكّموا غرائزهم في إفناء ما مُكنِوا من نِعَم بما لا يُرضي ربهم ، وكأنهم خالدون ، فجاءهم الخطاب على معنى يناقض ما درجوا عليه من توهم الامتداد الزمني ، أي أذهبتم مسرعين متعجّلين نعَمكم ، فجاءكم العذاب عاجلاً ، قال تعالى : ((وَيَوْمَ تَقُومُ

---

(١) التبيان في تفسير القرآن : ٢٢٥/٩
(٢) ينظر : المنهج الصوتي للبنية العربية ، رؤية جديدة في الصرف العربي : ٢٨
(٣) الدخان : ٢٤
(٤) الأحقاف : ٢٠
(٥) مفردات ألفاظ القرآن : (ذهب) : ٣٣٢
(٦) ينظر : التبيان في تفسير القرآن : ٢٧٠/٩
(٧) ينظر : صيغة أفعل : ٣٢

السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ))[١] . وفي الصيغة المزيدة (أذهبتم) معنى التعريض ، أي : عرّضوا هذه النعم للذهاب هباءً . أي إنّهم تمكنوا من الطيبات وعرّضوها للزوال وسارعوا في إفنائها. واللافت أنّ البنية الصوتية للفعل تومئ إلى هذه المعاني ، من خلال تنوع صفات أصواتها بين القوة والضعف ، فبدء الفعل بالهمزة المجهورة ولد نوعاً من النبر أسماه بعض الباحثين نبر التوتر[٢] ، تشكّل من المقطع الصوتي الطويل المغلق بصوت الذال المجهور (أذ) يوحي بسرعة القطع بإفناء نعمهم ، وختم بالمقطع نفسه وبصوتين مجهورين أيضاً (تُم) ليتعزز هذا المعنى ، يتوسطهما مقطع ثالث يبدأ بالهاء المهموسة والرخوة والضعيفة التي أضفت جوّ الفرحة والسرور الذي يعيشه هؤلاء وهم لاهون بالتمتع بهذه النعم . زيادة على أنّ سهولة إنسياب الهواء من الجوف عند نطق هذا الصوت يوحي بسرعة مرور الزمن بهم ، لانشغالهم بها ، مما يعزز التناسب بين تعجيلهم إفناء النعمة وتعجيل وقوع العذاب بهم .

إنّ كلّ هذه الدلالات تحققت بالمورفيم المزيد الذي أثبت له العلماء معاني عديدة أشهرها التعدية أو الصيرورة ، والتعريض ، ووجود الشيء على صفة من الصفات ، وللسلب والدخول في شيء مكاناً أو زماناً أو حكماً ، والدلالة على المصادفة والاستحقاق والدعاء ، وغير ذلك[٣] . وهي معانٍ لا تتوقف على الصيغة فحسب ، وإنّما قد يتوافق بعضها مع سياق ، ولا يتناغم مع سياق آخر ، فالمفردة وحدها لا تشكل غالباً عملا قصدياً ، بل تقوم بوظيفتها التي حددها المبدع لها بما يضمها من سياقات لغوية واجتماعية وثقافية عامة[٤] .

---

(١) الروم : من الآية ٥٥

(٢) ينظر : القراءات القرآنية في ضوء علم اللغة الحديث : ٢٦ ، والسجع القرآني دراسة أسلوبية (أطروحة دكتوراه) : ١٣٦

(٣) ينظر : شرح الشافية : ٦١/١، وأدب الكاتب : ٤٤٤ـ٤٥٨

(٤) ينظر : اللسانيات وآفاق الدرس اللغوي : ١٦١

بنْية فعَّل :

وهو الفعل الثلاثي المزيد بتضعيف العين ، وقد أثبت له الصرفيون معاني عديدة ، أشهرها التكثير والمبالغة[١] ، إذ ربطوا تضعيف العين بقوة الدلالة على المعنى ، قال ابن جني : " اعلم أنّ هذا موضع لطيف ، وقد نبَّه عليه الخليل وسيبويه ، وتلقته الجماعة بالقبول له ، والاعتراف بصحته ... ، ومن ذلك أنهم جعلوا تكرير العين في المثال دليلاً على تكرير الفعل ، فقالوا : كسّر وقطّع وغلّق ، وذلك أنّهم لما جعلوا الألفاظ دليلة المعاني ، فأقوى اللفظ ينبغي أن يقابل به قوة الفعل ، والعين أقوى من الفاء واللام ، وذلك أنّها واسطة لهما ، ومكنوفة بهما ، فصارا كأنهما سياج لها ، ومبذولان للعوارض دونها "[٢] . ولكثرة دوران هذه الصيغة في فلك معنى التكثير والمبالغة اندفع بعض العلماء إلى القول باقتصارها على هذا المعنى ، قال الأنصاري : " فقلت لا يكون إلا للتكثير ، كقولك : أغلقت الباب وغلّقت الأبواب ، فإن قلت : غلّقت الباب لم يجز إلا على أن تكون أكثرت إغلاقه "[٣] . ولكنّ هذا المعنى لا يتناقض مع الدلالة على معانٍ أخرى ، كالتعدية والدعاء والصيرورة والإزالة ، وغيرها من المعاني التي أوردها اللغويون وجعلوها من دلالات هذه الصيغة[٤] . ولا سيما أن السياق كفيل بإبراز دلالة معينة على غيرها ، أو الجمع بين المعاني المتعددة ، وبخاصة في القرآن الكريم الذي قد يكون تعدد المعاني وجهاً من وجوه إعجازه ودليلاً على ثراء نصه[٥] .

وقد وردت هذه الصيغة في سياقات متعددة شملت معظم الموضوعات التي عالجتها سور الحواميم ، كالقرآن الكريم وتنزيله ، ومنه قوله تعالى : ((كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ))[٦] ، فالدلالة الوضعية للمورفيم المزيد (فعّل) تشير إلى تتابع الأمور

---

(١) ينظر : الكتاب : ٤/٥٥ـ٥٦ ، والمقتضب : ١/٢٥٧ ، والمفصل : ٢٨١ ، والممتع في التصريف : ١/١٨٩ ، وشرح الشافية : ١/٦٧
(٢) الخصائص : ٢/١٥٢ـ١٥٥
(٣) النوادر : ٢٠٢
(٤) ينظر : الكتاب : ٤/٥٥ـ٦٣ ، وأدب الكاتب : ٣٥٤ـ٣٥٥ ، وارتشاف الضرب : ١/٨٤
(٥) ينظر : العلامة الإعرابية في الجملة بين القديم والحديث : ٢٩٤ ، ودراسات في ظواهر نحوية : ١٩٣
(٦) فصلت : ٣

وتدرجها شيئاً فشيئاً[١]، فضلاً عن دلالة المبالغة التي تفيدها هذه الصيغة ، فالمراد منها معنى التفريق بوجوهه المتعددة ، أولها الوجه العام ، وهو إثبات أنّ القرآن نزل منجماً بحسب الحوادث من الأقوال والأفعال ، وقد تضافر السياق مع هذا المعنى ، إذ سُبقت هذه الآية بقوله تعالى : ((تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)) فـ (تنزيل) مصدر (نزّل) المضعف الذي يفيد التدرج والتكرار ، أي : متدرجاً حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة[٢] . والوجه الآخر أنّ الآيات جُعلت تفاصيل في معانٍ مختلفة ، بعضها في ذات الله وصفاته ، وآيات تنزيهه وتقديسه ، وكمال علمه ، وسعة قدرته ورحمته ، وعجائب أحوال خلقه ، وبعضها في التكاليف الموجهة للإنسان المأمور بها ، وبعضها في الثواب والعقاب والوعد والوعيد ، وبعضها في الإرشاد والتوجيه ورياضة النفس ، وبعضها في قصص السابقين ، وغيرها من الموضوعات[٣] . ولا شكّ في أنّ اجتماع الموضوعات والعلوم والمباحث المتباينة في هذا الكتاب العظيم ، ومن ثم تفصيلها إنزالاً وإيضاحاً ، يقتضي استعمال صيغة تتساوق مع ما يقتضيه السياق من معنى التكثير والمبالغة ، التكثير الذي يتناغم مع كثرة آيات الله التي احتواها كتابه واتساعها ، والمبالغة التي ترتبط بالمفعول ، وهو الآيات نفسها ، التي يقتضي فعلها الذي يشير إليها تقوية معناه ، فالتفصيل يدل على وقوع الفصل وتعلّقه بالمفعول به ، فيلاحظ فيه جهة الوقوع . لذا قيل إنّ المبالغة في صيغة (فعّل) لقوة دلالتها لا يكون مفعولها إلا متعدداً ، فلا يجوز عند بعض اللغويين أن يراد بـ (فعّل) الواحد[٤] . ويقوّي هذه الدلالة في الفعل أنّ عينه المضعّفة هي صوت الصاد الذي أضفى بصفيره واستعلائه وتفخيمه وإطباقه جرساً صوتياً يميل إلى القوة والوضوح .

وفي سياق إثبات القدرة والحكمة المرتبطتين بالتوحيد الأفعالي ، يطالعنا قوله تعالى : ((وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ

---

(١) ينظر : البحر المحيط : ٨٥/٦
(٢) ينظر : تفسير أبي السعود : ٧٥/٩ ، والفتوحات الإلهية : ٦٥٤/٢
(٣) ينظر : التفسير الكبير : ٨٢/٢٧ ، والبحر المحيط : ٤٦٢/٧
(٤) ينظر : المفصّل : ٣٦٠

بَصِيرٌ ۞ وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ))[١] ، فلا شكّ في أنّ القرائن السياقية والحالية في الآيتين الكريمتين لها أثر بارز في تقييد دلالة المورفيم المزيد (ينزّل) ، ومنع الجمع بين دلالاته المختلفة ، ولا سيما دلالة التكثير التي سبق الإشارة إلى أنّها أشهر دلالات هذه الصيغة ، ففي الآية الأولى قيد التقدير الذي فيه صلاحهم ، " أي : يقدّر لهم ما أصلح لهم "[٢] ، مقابلاً بسط الرزق المؤدي إلى البغي والفساد في الأرض . وفي الآية الثانية قيد مقتضى الحال ، الذي يحتم الربط بين كثرة المطر وما يسببه من أذىً قد يصل إلى دمار الأرض ، ويؤيد ذلك استعمال لفظة الغيث التي لا تأتي إلا في سياق الرحمة ، " فالغيث في تعبير القرآن هو الماء المنسكب والهاطل من السماء رحمة للعباد ونعمة ، فالغيث سبب الخير ومدعاته ، ... والمطر الوارد في سياق الآيات الكريمة نقمة وعذاب على الكافرين "[٣] . ويؤيد ذلك إصرار أبي حيان الأندلسي علـى أنّ التضعيف لا يفيد التكثير والمبالـغة إلا إذا كان الفعـل متعدياً قبل تضعيفه ، فإذا كان لازماً فـي الأصل امتنع الجمـع بين تعـديته والدلالة على التكثير والمبالغة فيه ، ومنه الفعل (ينزّل)[٤]. زيادة على أنّ البنية الصوتية للفعل تتسق مع قرائن التقييد المذكورة ، فالنون واللام صوتان ذلقيان ينسد عند نطقهما المخرج إنسداداً كاملاً ، لينحرف الهواء إلى أطراف اللسان ، ويبدو أنّ ذلك يلمح إلى حالة الحبس والتقييد في الرزق والمطر ، ولاسيما أنّ الفعل بدأ وانتهى بالضم (الواو المتوسطة) ، وهو صوت ثقيل يضيق مجرى الهواء في موضعين عند النطق به ، مرة داخل الفم ، ومرة عند استدارة الشفتين[٥] ، مما يعزز من معنى التقييد السابق زيادة على الإيحاء بثقله على الإنسان الذي جبل على الإكثار من الخير.

إنّ إنعام النظر في الآيتين الكريمتين يوصل إلى القول بالتناسق البليغ بين دلالة الصيغة المضعفة (ينزّل) على معنى التكرير والتدرج والمعنى الذي عبّرت عنه ، فنزول الغيث في أصل وضعه متكرر ، إذ هو مجموعة متلاحقة من القطرات المتساقطة من السماء يتبع

---

(١) الشورى : ٢٧-٢٨
(٢) البحر المحيط : ٤٦٥/٧
(٣) خطرات في اللغة القرآنية : ٢٣-٢٤
(٤) ينظر : البحر المحيط : ٢٤٤/١
(٥) ينظر : الدلالة الصوتية في آي مشاهد القيامة : ٧٣

بعضها بعضها ، وهي صورة تتناغم تماماً مع دلالة الفعل المضعف وإيحائه الصوتي ، فتضعيف عينه (صوت الزاي) أضفى جرساً متميزاً يتساوق إلى حدّ بعيد مع مشهد نزول المطر ، فهو صوت مجهور رخوٌ ، من أكثر الأصوات الاحتكاكية وضوحاً بسبب صفيره ، وهو وضوحٌ يتساوق مع وضوح تساقط المطر وصفيره . أمّا رخاوته فتومئ إلى ما أشارت إليه الآية الكريمة من رحمة مرتبطة بنزول الغيث . زيادة على دلالة الاستمرار التي تفيدها هذه الصيغة والتي تتساوق مع استمرارية رحمة الله المتمثلة بالغيث ، الذي لا ينقطع حتى يرث الله الأرض ومن عليها . وما قيل في الغيث يشابه إلى حد بعيد ما يقال في الرزق من معنى التدرج والتكرير والاستمرارية ، فالرزق لا يأتي دفعة واحدة على صعيد الفرد ولا على صعيد الجماعة ، إنّما تتهيّأ له أسبابه ، فينزله مقيداً بحكمته سبحانه ، متوزعاً على عباده كلٍّ بحسبه .

وفي سياق بيان القدرة أيضاً يطالعنا قوله تعالى ((وَزَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ))[١] ، إذ عُبر عن تزيين السماء بالنجوم بالمورفيم المزيد (زيّن) للمبالغة في تكثير الفعل بالنسبة للمفعول ، فكثرة هذه النجوم التي تملأ السماء متلألئة من دون أن يدرك الإنسان لها حداً ، يتلاءم مع دلالة الفعل على التكثير المستمدة من دلالة حدوث الفعل مرة بعد مرة ، فمعنى التضعيف فيه " إنّما تخبر أنّ هذا الفعل وقع منك شيئاً بعد شيء على تطاول الزمان "[٢] ، زيادة على أنّ المعنى فيه ملائم لحال هذه النجوم التي هي آية متكررة من آيات الله يراها الإنسان في كل ليلة وكأنها تخلق من جديد ، فتكرير رؤيتها المتجددة الساحرة يتساوق مع التكرير الذي يفيدهُ الفعل المضعف العين ، زيادة على الإيماء إلى استمرارها المتجدد في الظهور والخفوت ليلاً ونهاراً .

إنّ عظمة هذه الآية الربانية (تزيين السماء) الدالة على القدرة الإلهية أشير إليها باستعمال الفعل المضعّف تأكيداً على عظمتها ، لأنّ التضعيف في عين الفعل إنّما هو زيادة في الدلالة على معناه ، " ولولا أنّ في الحرف إذا زيد ضرباً من التوكيد لما جازت زيادته

---

(١) فصلت : ١٢
(٢) المنصف : ٩١/١

البتة ... ، فقد علمنا من هذا أنّنا متى رأيناهم قد زادوا الحرف فقد أرادوا غاية التوكيد "[١] . وهذا التأكيد إنّما هو لإظهار العناية بتخصيص هذا الصنع الذي ينفع الناس ديناً ودنيا ، وعلى سبيل الاستمرار[٢] . لذا كان صوت المد (الألف) في نهاية الفعل ، فمخرجه يجعل اللسان في وضع إراحة ، أي ممتد في قاع الفم ، مما يجعله صالحاً لمد الصوت الذي قبله[٣](صوت النون) ، وهو صوت مغن مجهور ، شبيه بالحركة من ناحية الامتداد[٤] ، يمتد في دلالته بحسب السياق الذي يرد فيه ، فإذا دلّ على التعظيم كانت دلالة التعظيم مستمرة مؤكدة ، فأسهم الصوتان في التنبيه على عظمة هذه الآية الكونية وامتدادها .

وفي سياق بيان القدرة أيضاً نجد قوله تعالى : ((اللَّهُ الَّذِي سخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۞ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ))[٥] ، إذ إنّ الصيغة المضعفة (سخّر) استحضرت معاني التكثير والمبالغة والتكرير ، زيادة على التوكيد الذي تفيده زيادة الحرف على الصيغة المجردة ، وكلّ هذه المعاني تتناغم مع الأصل الواحد في مادة (س خ ر) ، وهو الحكم والتقدير مع القصد تكويناً أو تشريعاً ، الذي من لوازمه الإطاعة والاستذلال تحت الأمر[٦] . إنّ آيات القدرة التوحيدية التي عُبّر عنها بالفعل (سخّر) ، هي آيات عظيمة يعترف العقل الإنساني بعظمتها وإعجازها ، لذا سيقت آيات حسية لإثبات مرتبة من مراتب التوحيد ، وهو التوحيد الأفعالي[٧] ، ففعل تسخيرها وتذليلها في خدمة الإنسان يقتضي أن يكون فعلاً على مستوى من القوة والتأكيد والقدرة يتسق مع عظمتها ، فكان التعبير بصيغة المضعف للدلالة على قوة الفعل ، إذ إنّ التضعيف يعني تحصين الحرف

(١) سر صناعة الإعراب : ٢٧٠/١
(٢) ينظر : التحرير والتنوير : ٢٥١/٢٤
(٣) ينظر : دراسة الصوت اللغوي ٢٩٧.
(٤) ينظر: علم اللغة : السعران : ١٨٤، والدراسات الصوتية عند علماء التجويد : ٣١٠
(٥) الجاثية : ١٢-١٣
(٦) ينظر : التحقيق في كلمات القرآن الكريم : ٩١/٥
(٧) ينظر : الميزان : ٢٤٤/١٨-٢٤٥

الدال على قوة الفعل[١] ، وتمكنه من مفعوله ، وهو آيات القدرة المستمرة التي ذكرتها الآيتان الكريمتان .

إنّ استعمال الصيغة الفعلية المضعفة يومئ ـ ومن خلال دلالتها على التكرار ـ إلى استمرار عملية التسخير والتمكن منها ، فتسخير البحر لجريان الفلك ، وتسخير ما في السماوات وما في الأرض فعل متكرر مستمر ، لا يتوقف إلا بإرادة منشئه ، يدلنا على ذلك كثير من الحوادث التي تشير إلى عدم قدرة الإنسان على تحمل خروج هذه الآيات عن سيطرته الظاهرية ، أي : إيقاف فعل تسخيرها ، فيبتلع البحر سفنه هائجاً ، أو ترسل السماء شهبها أو ريحها ، وتهتز الأرض قاذفة براكينها وسيولها ، وكل ذلك وغيره رسائل إلهية مفادها أنّ هذه المخلوقات مؤتمرة بأمر منشئها الذي خصّ تسخيرها للمتلقي (الإنسان) ، وسلب منها قدرتها الذاتية على التأثير ، والسلب أحد المعاني التي تدل عليها الصيغة المضعّفة العين[٢] . ويؤكد هذا المعنى همس ورخاوة صوتي السين والخاء اللذان يوحيان بضعف المسخرات وهوانها وسكونها ، وعلى سبيل الاستمرار الذي تومئ إليه الطبيعة التكرارية لصوت الراء المفخّم ، استجابة لمسخّرها ، فهي طيعة بيد قدرته (سبحانه) .

وفي دلالة التكثير التي يفيدها الفعل (سخّر) بتضعيف عينه ـ " فلا يستقيم معنى الكثرة والقوة في اللفظ والمعنى إلا بالنقل من وزن إلى وزن أعلى منه "[٣] ـ معنى يتسق مع كثرة الآيات الكونية المستمرة وتنوعها ، إذ إنّ التكثير الذي تفيده هذه الصيغة يكون بالنظر للمفعول إذا كان متعدداً ، وللفعل إن كان المفعول واحداً . قال الآلوسي في أثناء تفسير قوله تعالى ((غَلَّقَتِ الأَبْوَابَ))[٤] : " وتشديد الفعل للتكثير في المفعول إن قلنا إن الأبواب كانت سبعة ، كما قيل ، فإن لم نقل به ، فهو لتكثير الفعل ، فكأنه غلق مرة بعد

---

(١) ينظر : الخصائص : ١٥٧/٢ ، والمنصف في شرح التصريف : ٩١/١
(٢) ينظر : أبنية الصرف في كتاب سيبويه : ٤١٢ ، والزوائد في الصيغ : ٤٤
(٣) المثل السائر : ٢٧٩/٢
(٤) يوسف : ٢٣

مرة ، أو بمغلاق بعد مغلاق "[١] . ويبدو أنّه لا تنافي بين إرادة المعنيين ، بل إن الأنسب للمعنى إرادتهما معاً ، فتكثير المفعول يقتضي تكثير الفعل وتقويته ، ولا سيما إذا كان المفعول آيات كونية سيقت لإثبات عقيدة غيبية هي أم العقائد ، وأعني التوحيد .

وفي سياق بيان القدرة الإلهية تبشيراً للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) والذين آمنوا معه ، يطالعنا قوله تعالى : ((وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ))[٢] ، فالصيغة المضعّفة (نجيّنا) ، الدالة على التوكيد في الحدث والتمكن منه تتناسب مع الحدث الباهر المعجز ، وهو إنقاذ بني إسرائيل الذي لا يكاد يصدق ، فضلاً عن أن يكون بإهلاك أعدائهم[٣] ، فما كان يعانيه بنو إسرائيل على يد فرعون وجنوده من التقتيل والإهانة والإذلال أمرٌ عظيم قد يوصل الإنسان إلى اليأس والخنوع والتسليم ، فيأتي الخلاص الإلهي بصورته الإعجازية ، بشق البحر لبني إسرائيل ، وإغراق فرعون وجنوده . والتعبير بالفعل المضعّف يتساوق مع قوة الحدث ، سواء المعاناة أم الرحمة الإلهية بالخلاص . وبخاصة أنّ الصوت المضعّف (الجيم) هو صوت مجهور شديد مقلقل ، منحه التضعيف تطويلاً في النطق ، أضفى مزيداً من القوة على الحدث ، وكأن المتلقي عند تحقيق تشديده يستشعر هوله وقوة فعله .

أمّا التكرير الذي يُفيده المورفيم المضعّف فقد يومئ إلى فكرة استمرار عملية النجاة ، وكأن الفعل عابر لدلالته الزمنية ، ومن هنا كانت هذه القصة القرآنية التي تكررت في أكثر من موضع قرآني بشارة للنبي الأعظم (صلى الله عليه وآله وسلم) - المتلقي الأول - والذين آمنوا معه ، بل إنها بشارة بإنجاء الله سبحانه من هم في طريقه عبر الزمن ، وإنذار لأشباه فرعون وقومه من القريشيين وغيرهم ، " وذكر قصة فرعون وقومه استطرادي للدلالة على أنّهم مثلهم في الإصرار على الضلالة والإنذار عن مثل ما حلّ بهم "[٤] .

---

(١) روح المعاني : ٢١٢/١٢
(٢) الدخان : ٣٠
(٣) ينظر : نظم الدرر : ٦/٨
(٤) روح المعاني : ١٧٣/٢٥

وفي سياق التهديد والوعيد بما جرى على الأقوام السابقة نجد قوله تعالى : ((كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِن بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ))(١) ، فالعقاب الذي أصاب قوم نوح بإهلاكهم بالطوفان كان عظيماً ، و " دل على عظمته بأنه أهل لأن يسأل عن حاله لزيادة عظمتها في قوة بطشها وسرعة إهلاكها وخرقها للعوائد ، فقال : فكيف كان عقاب "(٢) ، زيادة على الإلتفات إلى التكلم الذي يومئ إلى شدة الغضب(٣) ' فعظمة العقاب نتيجة لغضب الله عليهم ، إنّما كان لعظمة جرمهم بتكذيب نبيّهم ، فجاء الفعل المضعف معبّراً عن شدة تكذيبهم ، إذ إنّ هذا المورفيم يفيد أحياناً تكثير وقوع الفعل بالنسبة للفاعل والمبالغة فيه(٤) ، أي : إنهم أكثروا التكذيب وبالغوا فيه ، فكان تكذيبهم عظيماً متمكناً من أنفسهم ، تدل على ذلك صفات أصواته القوية من جهة الشدة (الكاف والباء والتاء) ، ومن جهة الجهر (الباء والذال) ، فاستحقوا العذاب الشديد . زيادة على أنّ فـي الصيغة إيماءة إلى تكثير الحدث تتسق مع إسناد الفعل إلى فاعل متعدد بالجمع وبالعطف .

ولأنّ الخطاب القرآني في الآية المباركة فيه تسلية للرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ، تدل عليها المقابلة بين همّهم أخذ رسولهم على سبيل التشكيك والتضعيف وأخذ الله إياهم أخذاً ثابتاً مقتدراً ، أُشير إليه بالفعل الماضي ، وبإسناده إلى ضمير الجلالة ، كانت بنية الفعل الصوتية تصور هوان تكذيبهم وضعفه بصفات الضعف في أصواتها من جهة الهمس (الكاف والتاء) ، ومن جهة الرخاوة (الذال) .

إنّ تكذيب قوم نوح استمر زمناً طويلاً ، يدلنا على ذلك قوله تعالى : ((فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَاماً))(٥) ، وكان ما قبله مـن الزمان قليلاً بالنسبة إلى ما بعده ، فطال البلاء بهـم ، لذا ورود الصيغة الفعلية المضعفة يومئ إلى الاستمرار والاستغراق بجميع

---

(١) غافر : ٥
(٢) نظم الدرر : ٢٩١/٧
(٣) ينظر : الميزان : ١٣٣/١٧
(٤) ينظر : شرح النظام : ٥٤
(٥) العنكبوت : من الآية ١٤

الزمان ، فجاء الظرف (قبلهم) منصوباً مـن غير خافـض[١]دليلاً علـى الاستغراق الـذي أفادهُ الفعل المضعّف .

وفـي سياق الغنى الإلهي عـن عبادة المنكرين تسلية لرسوله (صلى الله عليه وآله وسلم) يطالعنا قوله تعالى : ((الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا))[٢]، فالآية الكريمة تؤكد أنّ كفر الكافرين واستكبارهم عن عبادة الله سبحانه وعداءهم لنبيه وللمؤمنين لا يضر إلا أنفسهم ، لـ " أنّ أشراف الملائكة (عليهم السلام) مثابرون على ولاية من معه من المؤمنين ونصرتهم واستدعاء ما يسعدهم في الدارين "[٣] ، وقد تعاضدت بنية الفعل المضعّفة ، مع دلالته النحوية ، لكونه فعلاً مضارعاً دالاً على التجدد والحدوث ، في إفادة معنى التكرير والتجدد والاستمرار ، فالملائكة حملة العرش والحافون به ينزهون الله ملتبسين بحمده ، ويستغفرون للذين آمنوا في الدنيا وفي الآخرة ، ولا يتوقف تسبيحهم ولا يسأمون . قال تعالى : ((فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ))[٤] ، وقال تعالى : ((تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ))[٥] .

إن السياق في الآيات الكريمة يدفع إلى القول بأن دلالة الفعل المضعف (يسبّحون) على التوكيد والمبالغة والتكثير تتساوق مع مقام الربوبية المعظمة ، ولا سيما أنّ الفعل إذا كان لازماً تكون دلالته على هذه المعاني مرتبطة به أو بفاعله[٦] ، وبخاصة في دلالة التكثير ، فتكثيره يشير إلى كثرة فاعله (الملائكة) ، وكثرة وقوع فعل التسبيح منهم تعظيماً لربهم ، " لأن تسبيح الملائكة وتنزيههم له تعالى لمزيد عظمته تبارك وتعالى ، وعظيم

---

(١) ينظر : نظم الدرر : ٢٩١/٧
(٢) غافر : من الآية ٧
(٣) تفسير أبي السعود :٢٦٧/٧
(٤) فصلت : ٣٨
(٥) الشورى : ٥
(٦) ينظر : شرح النظام : ٥٤

جلاله جل وعلا ، والاستغفار لغيرهم للخوف عليهم من سطوة جبروته عزّ وجل "[١] . ويبدو أنّ هيمنة صوت المد (الواو) ـ الذي تمنحه حركة أقصى اللسان عمقاً ـ والباء المجهورة المقلقلة على الفعل فيه دلالة على قوة الحدث . مع الدلالة على الانفعال ـ بسبب حركة الشفتين الظاهرة في نطق الواو[٢] ـ الذي يتسق مع خوف الملائكة الذي دفعهم إلى الاستغفار للذين آمنوا .

بنْية افْتَعَل :

تأتي هذه الصيغة من زيادة حرفين ، هما الهمزة والتاء على الأصل الثلاثي ، فتتحقق بزيادتهما معانٍ عديدة ذكرها اللغويون ، أبرزها القوة في أداء معنى الفعل ، والشدة والمبالغة والتكثير[٣] .

وقد ورد الاستعمال القرآني في سور الحواميم متوافقاً مع الدلالات البارزة لهذه الصيغة ، وفي سياقات متعددة ، تتسق مضامينها مع المعاني البارزة لهذه الصيغة ، ومنها سياق التهديد والوعيد بما جرى للأقوام السابقة ، كقوله تعالى : ((فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ))[٤] ، فالانتقام الموصوف بالمورفيم المزيد (انتقم) ، الواقع جواباً للشرط (آسفونا) ، " أي : أغضبونا أشد الغضب ، منقول من أسف إذا اشتد غضبه "[٥] ، هو انتقام شديد مفخّم يتساوق مع استحكام غضب الله الذي جاء بالصيغة الفعلية المزيدة (آسفونا) ، على وزن (فاعل) ، الدالة على معنى التكثير والمتابعة ، على نحو قولهم : عادى الفرس بمعنى كرر العدو ، وواليت الصوم بمعنى اتبعت بعضه بعضاً[٦] ، وقد تجسد هذا الغضب بمعجزة إغراقهم بإطباق البحر عليهم . ولا شكّ في أنّ

(١) روح المعاني : ٢٠/٢٥
(٢) ينظر : تهذيب المقدمة اللغوية للعلايلي : ٦٤
(٣) ينظر : شرح الشافية : ٧٨/١-٧٩ ، وأبنية الصرف في كتاب سيبويه : ٤٢٦
(٤) الزخرف : ٥٥
(٥) تفسير أبي السعود : ٥٠/٨
(٦) ينظر : شرح المفصل : ٣٠٥/٩ ، وشذا العرف : ٧٩

هذا الفعل (الانتقام) الـذي سيـق عبرة وتهديداً ووعيداً ، يستلزم تعبيراً لفظياً يعكس قـوته وشدة معناه ، لذا جاء بصيغة (افتعل) التي أضافها اللغويون إلى باب (قوة اللفظ لقوة المعنى)[١] ، قال ابن جني : " ومثله باب فعل وافتعل ، نحو : قدر واقتدر ، فاقتدر أقوى معنى من قولهم : قدر "[٢] . والأصوات التي تشكلت منها الصيغة الفعلية توحي بهذه القوة ، إذ تنوعت صفاتها بين الشدة (التاء والقاف) والجهر (النون والميم) والمد (الألف) الذي ختم به الفعل ، فحقق امتداداً لصوت النون المغن المجهور أضفى على الفعل امتداداً فخماً إلى الأمام ، وكأنه رسالة عبر الزمن تحكي شدة عذاب الله (سبحانه) عبرة وتهديداً .

ويلحظ في الآية الكريمة تناسق معاني صيغ الأفعال المستعملة وتكاملها في تحقيق التأثير الكبير لدى المتلقي ، من خلال إيصال المعنى الإجمالي للآية الكريمة ، الذي يتمثل بسوق ما جرى لقوم فرعون من الإهلاك العظيم المعجز عبرة يتعظ بحالهم من يأتي بعدهم[٣] ، فالفعل الأول (آسفونا) الذي يمثل سبب الانتقام ، على وزنٍ يحقق معنى الإكثار والغلبة على افتراض أن يكون المعنى فيه على (فعّل) المضعّف[٤] ، وفعل الانتقام على صيغة (افتعل) التي قد تأتي بمعنى (فعّل) ، وفعل الإغراق الذي جاء على صيغة (أفعل) التي تفيد دلالة التتابع والتكثير في بعض معانيها[٥] . وبذلك تكتمل الصورة التأثيرية في الآية الكريمة ، فالحدث عظيم في أسبابه ونتائجه ومصاديقه .

ومثله قوله تعالى : ((فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ))[٦] ، إذ جاءت الآية الكريمة بعد أن سيقت أدلة الاحتجاج الحسيّة والغيبية لدفعهم إلى الإيمان بالله ونبذ ما توارثوا من الكفر ومعاداة الرسل ، فأصروا على عنادهم المسقط للاحتجاج ، فجاء الانتقام ـ موعظة لهذه الأمة ، وتهديداً ووعيداً ـ بصيغة (افتعل) الدالة على شدة الانتقام وتكثيره ليشمل كلّ من ساروا على طريق العناد من الأمم السابقة . وقد تضافرت القرائن اللغوية

---

(١) ينظر المثل السائر :١٩٢/١ ، والبرهان في علوم القرآن : ٣٤/٣
(٢) الخصائص: ٢٦٧/٣
(٣) ينظر : نظم الدرر : ٤٧٣/٧
(٤) ينظر : المفصّل : ٣٦٠ ، وشذا العرف : ٧٩
(٥) ينظر : الأبنية الصرفية في ديوان أمريء القيس : ٣٠٨
(٦) الزخرف : ٢٥

مع دلالة الصيغة الفعلية للإشارة إلى تعظيم أمر هذا الانتقام وتفخيمه ، كاللاحقة الضمائرية (نا) المسندة للفعل (انتقمنا) ، أي بما لنا من العظمة التي استحقوا بها عذاب الاستئصال ، وتعظيم أثر النقمة بالدعوة إلى النظر فيها في قوله (فانظر) ، وبالاستفهام التعجبي المشير إلى أنّ ذلك أمر جدير بالتفكر والاعتبار[١] .

وفي سياق التهديد والوعيد يطالعنا قوله تعالى : ((فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاء بِدُخَانٍ مُّبِينٍ۞ يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ))[٢] ، فالآية في سياق الوعيد بالعذاب ، وهو إتيان السماء بدخان مبين يغشى الناس ، وسواء كان هذا الدخان من أشراط الساعة ، ولم يأت بعد، إذ يدخل أسماع الناس حتى أنّ رؤوسهم تكون كالرأس الحنيذ ، أم المجاعة التي أصابت قريشاً لمّا أصرّوا على كفرهم ، فدعا عليهم الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) بالقحط والمجاعة ، فكان الرجل منهم كأنه يرى دخاناً في السماء من شدة الجوع[٣] ، وعلى كلا الاحتمالين فالأمر عظيم مخوف ، يدفع الناس إلى القول بالإيمان كذباً للخلاص من شدة العذاب ، ((رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ))[٤] .

إنّ مشهد شدة العذاب الذي تصوره الآية الكريمة مسبوق بأمر انتظاره ، إذ " يقول : إنّهم يلعبون إزاء ذلك الجد ، ويشكّون في تلك الآيات الثابتة ، فدعهم إلى يوم هائل عصيب "[٥] ، وقد عُبّر عن أمر الانتظار بالصيغة الفعلية المزيدة (ارتقب) ، على زنة (افتعل) ، التي من معانيها حدوث الفعل على سبيل الإجهاد والاجتهاد ، وقد عبّر عنه بالتصرف " وهو المعاناة في تأثير الشيء والمبالغة والاحتيال فيه "[٦]، فارتقب ، بمعنى " انتظر بكل جهد عالياً عليماً ناظراً لأحوالهم نظر من هو حارس لها ، متحفظاً من مثلها بهمة كهمة الأسد الأرقب ، والفعل متعد ولكنّه قصر تهويلاً ، لذهاب الوهم في مفعوله كل

---

(١) ينظر : نظم الدرر : ٧/٤٥٥-٤٥٦
(٢) الدخان : ١٠-١١
(٣) ينظر : الميزان : ١٨/٢٣٣
(٤) الدخان : ١٢
(٥) في ظلال القرآن : ٥/٣٢١٠
(٦) شرح النظام : ٥٨

مذهب "[١] . ولا شكّ في أنّ هيمنة الأصوات القوية في الفعل منحته جرساً قوياً يدفع إلى الشعور بقوة الحدث وعظمته ، فالمقطع الصوتي الذي بدأ به الفعل مقفول بصوت الراء المتكرر الذي يومئ إلى استمرار عملية الارتقاب وتفخيمها إلى أن يحين الحدث الموعود . وهو بجهره وقلقلته وتفخيمه ، ومجيء صوت التاء الشديد رادفاً له ، يوحي بعظمة الدعوة إلى الانتظار . وختم الفعل بالمقطع الطويل المغلق بصوت الباء المجهور الشديد المقلقل يعزز الشعور بالحسم والقطع الذي يجعل المتلقي متفاعلاً مع جدوى الدعوة الغيبية إلى الترقب .

وفي الآية الكريمة دلالة على القبول والتسليم لأمر الله سبحانه ، فالأمر موجه إلى الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ، بعدما لاقى منهم ألوان الأذى والإصرار على الإنكار والكفر ، فأمر بانتظار نزول بلائه عليهم تثبيتاً وتسلية له[٢]، فالصيغة الفعلية (افتعل) التي جاءت على صورة فعل الأمر تدل في أحد معانيها على القبول ، نحو : انتصح أي : قبل النصيحة[٣] . زيادة على دلالة الفعل (ارتقب) على قرب حصول الشيء المرتقب " أي ارتقب نصرنا لك وإهلاكهم ، فإنّهم مرتقبون ضد ذلك ، ففيه وعد له ووعيد لهم"[٤].

وفي سياق الجحود والكفر يبرز استعمال هذه الصيغة ، إذ يتكرر الفعل (اتّخذ) في مواضع عديدة ، يُربط فيها بين الكفر والعذاب المترتب عليه ، ومنه قوله تعالى : ((ذَلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُواً وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ))[٥] ، فالسياق القرآني في الآية الكريمة ـ وبأساليب مختلفة ـ يعظم من الجرم المرتكب المتعلق بإنكار آيات الله ودلائل وحدانيته ومصداقية رسالات أنبيائه ، تبدأ بالإشارة للبعيد (ذلكم) ، سبباً في حصولهم على هذا العقاب الأليم ، وتنتهي بالالتفات إلى الغيبة ،

---

(١) نظم الدرر : ٤٩٨/٧
(٢) ينظر : التحرير والتنوير : ٢٨٥/٢٥
(٣) ينظر : أوزان الفعل ومعانيها : ٩٣
(٤)التسهيل لعلوم التنزيل : ٣٧/٤
(٥) الجاثية : ٣٥

استهانة بهم ، وتمهيداً للقول بخلودهم في النار[١] . وكلّ ما سيق من دلائل استحقاقهم العـذاب العظيم يرتبط باتخـاذهم آيات الله هـزوا ، المُعّبر عنه بالفعـل المزيد (اتخذتم)، ولا ريب في أنّ ما في هذه الصيغة المزيدة من دلالة على التكثير والمبالغة والإجهاد والاجتهاد في الفعل ما يجعلها تتساوق مع عظيم ما ذكر من بلاء وعذاب يصيبهم في يوم القيامة من النسيان والخلود في جهنم ، وفوت زمن استعتابهم ، فالصيغة الفعلية (اتخذتم) تومئ إلى معنى استكثارهم ومبالغتهم في الاستهزاء بآيات الله ، " والتعبير بالافتعال في جانب الشر ، لأن الشر لمّا كان مشتهى النفس يكون فيه السعي والاجتهاد طبعاً ، ولابد فيه من المبالغة والتكلف لإيجاب العمل "[٢] ، وكأنهم بذلوا جهدهم واجتهادهم في الفكر والعمل والقول للاستهزاء بآيات الله ، وعلى سبيل التكرير والاستمرار اللذين تتناغم معهما دلالة الفعل (غرّتكم) ، فالاستهزاء بآيات الله مستمر باستمرار اغترارهم بالحياة الدنيا ، ولا سيما أنّ الاتخاذ : " أخذ الشيء لأمر يُستمر فيه ، مثل الدار يتخذها مسكناً والدابة يتخذها قعدة "[٣] .

إنّ إنعام النظر في البنية الصوتية للفعل يدفع إلى القول إنها تومئ إلى معانٍ متعددة تتلاءم مع السياق القرآني في الآية الكريمة ، أولها تعظيم أمر هذا الاتخاذ جرماً يستحق مرتكبه تأبيد العذاب في جهنم ، لذا نجد أنّ البنية الصوتية للفعل (اتخذتم) توحي بقوة الفعل ، من خلال صفة الجهر لبعض أصواته (الذال والميم) ، والشدة في صوت التاء الذي زاد إدغامه من شدته وفخامته ، وثانيها القطع بارتكاب الفعل إلى نهايته المودية إلى العذاب ، وهو ما يوحي به المقطع الطويل المغلق الذي بدأ بصوت شديد (التاء) ، وأغلق بصوت مجهور (الميم) "ومن خصائص حرف الميم القطع والاستئصال والكسر "[٤] ، وثالثها توهين أثر الفعل على الله الغني عن العالمين الذي لا يضره كفر الكافرين ، وعلى نبيه (صلى الله عليه وآله وسلم) ، ويستشف هذا المعنى من همس بعض أصوات

---

(١) ينظر : روح المعاني : ٢١٩/٢٥
(٢) ينظر : مقتنيات الدرر : ١٥٠/٢ ، وكنز الدقائق : ٤٧٦/٢
(٣) الفروق اللغوية : ٣٠
(٤) الألفاظ اللغوية خصائصها وأنواعها : ٤٢

الفعـل (الهمزة والتاء والخاء) ورخاوة بعضها (الخاء والذال) ، فهي صفات تومئ إلى ضعف وهوان ما ارتكبوا من فعل .

ومنه قوله تعالى ((وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئاً اتَّخَذَهَا هُزُواً أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ))[(١)] ، إذ إنّ استعمال الفعل المزيد (اتخذها) على زنة (افتعل) الذي يدل على المبالغة في قوة معنى الفعل " نحو : اكتسب ، أي بالغ واضطرب في الكسب ، وكذلك اقتدر ، أي بالغ في القدرة "[(٢)] . أقول : إن استعماله يتساوق مع سياق الآية ، إذ قيل على لسان الكافر اتخذها هزوا ، ولم يقل اتخذه ، وكأنه اجتهد وأجهد نفسه في الاستهزاء بآيات الله كلّها ، وليس شيئاً منها ، فقوة المعنى في الفعل تتسق مع سعة الآيات المستهزأ بها ، قال أبو حيان : " اتخذها هزُواً ، ولم يقل اتخذه ، إشعاراً بأنه إذا أحس بشيء من الكلام أنّه من جملة الآيات التي أنزلها الله على محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) ، خاض في الاستهزاء بجميع الآيات ، ولم يقتصر على الاستهزاء بما بلغه "[(٣)]. تدلنا على ذلك الأصوات المهموسة في الفعل التي يحتاج نطقها إلى قدر أكبر من هواء الرئتين ، مما يجعلها مجهدة للتنفس[(٤)] ، مما يعبر عن حالة بذل الجهد في ارتكاب الفعل . ويبدو أنّ اتصال الضمير مؤنثاً (صوت الهاء الممدود بالألف) أضفى بهمسه ورخاوته جواً من الخفة يوحي بخفة عقل من اتخذ آيات الله هزواً ، زيادة على معنى ضعف عمله الذي أومأت إليه صفات الهمس والرخاوة في أصوات الفعل، ولا سيما أنّ الصوت تكرر في الآية الكريمة ، فأضفى همساً ورخاوة على جرسها .

وفي السياق نفسه ولكن هذه المرة بالكفر الأكبر الصريح ، أي : اتخاذ إلهة وأولياء من دون الله صراحةً ، يتكرر مجيء الفعل (اتخذ) ، لتوصيف فعلهم المنكر وعاقبته تهديداً ووعيداً ، كقوله تعالى : ((وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ))[(٥)] ، وقوله تعالى : ((أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى

---

(١) الجاثية : ٩
(٢) أوزان الفعل ومعانيها : ٩٠
(٣) البحر المحيط : ٤٤/٨ ، وينظر : تفسير أبي السعود : ٦٩/٨
(٤) ينظر : موسيقى الشعر : ٣٢
(٥) الشورى : ٦

وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ))[١] ، إذ إنّ جعلهم غير الله وليّاً إعداداً لنائبة أمر فاسد[٢]ينكره الطبع والعقل ، فالله (سبحانه) فطر الناس فطرة سليمة ترتبط بتوحيده ، ومخالفة هذه الفطرة تستلزم إجهاداً واجتهاداً ومبالغة في معالجة فطرتهم وعقولهم ، "أي عالجوا فطرتهم الأولى وعقولهم حتى أخذوا من دونه ـ أي من أدنى رتبة من رتبته ـ أولياء يعبدونهم كالأصنام"[٣]، فجاء الفعل على صيغته المزيدة لتقوية المعنى والتكلف فيه ، " ذلك أنّ (افتعل) لزيادة التاء فيه أقوى معنى من فعل "[٤] ، ليتسق مع الجهد المطلوب لمخالفة فطرتهم وعقلهم ، زيادة على إيمائه ـ من خلال قـوة معناه ـ إلى عظيم بشاعة ما فعلوه من إصرار على الشرك ، لذا " اشتد التشوق إلى جزائهم عليه ، فأخبر عنه (سبحانه) بقوله ، معبراً بالاسم الأعظم إشارة إلى وضوح ضلالهم وعظم تهديدهم "[٥] .

وفي سياق الجحود والكفر والتكبر وردت هذه الصيغة في قوله تعالى : ((وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحاً لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ۞ أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِباً))[٦] ، وهو سياق تتركز فيه ، عوامل القوة والمبالغة في الأحداث، فطلب فرعون جاء في أثناء المحاججة التي جرت على لسان مؤمن آل فرعون ، إذ ساق فيها كلّ الأدلة التي تؤكد أحقية دعوة موسى (ع) ، فقابلها فرعون بالإنكار والإصرار على الكفر ، بل دعا إلى ما هو اشد كفراً بالاطلاع إلى إله موسى (جل وعلا) وهو أمر عظيم توّجه بتكذيب موسى (ع) . زيادة على أنّ الارتقاء إلى السماء ـ ومن خلال دلالة العلو ـ فيه إظهار للقوة ، وإيماء إلى الغطرسة والتكبر ، إذ " يقول : إن الإله الذي يدعوه ويدعو إليه موسى ليس في الأرض ، إذ لا إله فيها غيري ، فلعله في السماء ، فابن لي صرحاً لعلي أبلغ بالصعود عليه الأسباب السماوية الكاشفة عن خبايا السماء ، فأطلع من جهتها إلى إله

---

(١) الشورى : ٩
(٢) ينظر : التبيان في تفسير القرآن : ٢٠٢/٨ ، وينظر : مجمع البيان : ٣٣/٩
(٣) نظم الدرر : ٣٨٦/٧
(٤) المحتسب : ١٩٥/٢ ، وينظر : الخصائص : ٢٦٧/٣
(٥) نظم الدرر : ٣٨٦/٧
(٦) غافر : ٣٦-٣٧

موسى وإني لأظنه كاذباً "[١] . وكلّ ذلك يتلاءم مع استعمال الصيغة المزيدة (افتعل) ، التي تدل على قوة معنى الفعل والمبالغة فيه ـ أي على قوة الاطلاع ـ ولا سيما أنّ الأصل الواحد في مادة (طلع) يتساوق مع دلالة الصيغة المزيدة ، فالأصل فيها " هو العلو والظهور على الشيء ، فيقال طلعت الشمس إذا ارتفعت وظهرت على الأرض بنورها "[٢]. وأضافت المورفيمات الزائدة على أصل الصيغة معنى تعدي الظهور والعلو الذاتي لفرعون إلى غيره ، أي : إنه يريد الاطلاع ليُطلع غيره ، تبياناً لما ادعاه من كذب موسى ، وتثبيتاً لأمر ربوبيته التي هزتها دلائل الاحتجاج ، جاء في التهذيب: " واطّلع فلان إذا أشرف على شيء واطلع غيره "[٣] . وفي صيغة الافتعال (اطّلع) دلالة أخرى تلاءم كبر فرعون وغطرسته ، فالافتعال يدل على المطاوعة والرغبة[٤] ، فاطّلاعه هو مطلق الظهور في اعتلاءٍ بالقصد والاختيار من دون أن يفرضه عليه أحد ، إلا نفسه المتجبرة . وقد يكون في هذا المعنى محاولة لدفع توهم اهتزاز هيبته أمام الملأ بفعل الأدلة التي ساقها مؤمن آل فرعون .

وقد أضفت ظاهرة الإدغام الصوتي ، التي تأثر فيها صوت (التاء) المزيد تأثراً تقدمياً بصوت (الطاء) الإطباقي المستعلي فأدغم فيه ، فأنتج صوتاً مشدداً ، " وأصوات الإطباق أصوات مفخمة لها رنّة قوية في الآذان "[٥] ، أضفت على معنى الفعل المزيد من القوة والمبالغة ، زيادة على الاستعلاء والتكبر الذي يظهره طلب فرعون ، ممّا تناغم مع السياق القرآني في الآية الكريمة .

وفي سياق التوجيه والإرشاد يتكرر استعمال الفعل (اتّبع) ، وبالصيغة الأمرية ، ومنه قوله تعالى : ((ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاء الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ))[٦] ، أي : جعلناك على طريقة واسعة عظيمة ظاهرة مستقيمة ، مفضلة على ما

---

(١) الميزان : ١٤٣/١٧
(٢) التحقيق في كلمات القرآن الكريم : ١٢٨/٧
(٣) تهذيب اللغة : ١٠٠/٢
(٤) ينظر : شرح النظام : ٥٨ ، والتحقيق في كلمات القرآن الكريم : ١٢٩/٧
(٥) اللهجات العربية : ١١١
(٦) الجاثية : ١٨

كان قبلها [١] . ولما كانت هذه الشريعة على هذه الدرجة من العظمة ، استلزم الأمر بالثبوت عليها واتّباعها تأكيداً وقوة في التعبير ، فكان الافتعال الصيغة الفعلية التي تحقق هذا المعنى، إذ اُنطلِق من قوة معناه المترتبة من زيادة حرفي (الهمزة والتاء) ، فالزيادة في المبنى زيادة في المعنى ، ومن الإدغام الصوتي في صوت (التاء) الشديد ، للإشارة إلى معنى التكلف والاجتهاد والتحري في اتباع هذه الشريعة المقدسة ، " فاتبعها أي : بغاية جهدك"[٢]. وبالجهد ذاته أمر (صلى الله عليه وآله وسلم) بتجنب اتباع أهواء الذين ظلموا . ولأن الخطاب موجه للمتلقي الأول ، النبي الأعظم (صلى الله عليه وآله وسلم) ، ومنه إلى المتلقي الآخر (أمّته)[٣] ، وعبر الزمن ، كان لزاماً أن يكون الأمر والنهي على درجة عالية من القوة والمبالغة ، ولا سيما أنّ السياق القرآني بصدد الحديث عن بني إسرائيل واستخلافهم في الأرض ، فهم أصحاب عقيدة السماء ، إذ لابد للبشرية من قيادة مستمدة من السماء ، فلما فرّطوا في شريعتهم واتبعوا أهواءهم انتهت قيادتهم في الأرض ، وبَطُل استخلافهم ، فجاء التحذير الإلهي قوياً - بدلالة الفعلين المزيدين (فاتبعها ، ولا تتبع) - من الوقوع فيما وقع فيه بنو إسرائيل ، " وهكذا يتمحض الأمر ، فإمّا شريعة الله ، وإمّا أهواء الذين لا يعلمون ، وليس هنالك من فرض ثالث ، ولا طريق وسط بين الشريعة المستقيمة والأهواء المتقلبة "[٤] .

إنّ اختلاف نهايتي الفعلين باتصال الضمير بأحدهما (فاتبعها) يومىء إلى اختلاف ثقل الأمرين على المتلقي (الرسول) ، إذ يوحي الفعل الثاني (ولا تتبع) بالقطع والشدة الذي يستفاد من صوت العين المجهور الساكن الذي جاء قفلاً لمقطع صوتي طويل مغلق ، بُدئ بالباء المجهور الشديد وبحركته الثقيلة (الكسرة) ، فأضفى هذا المقطع فخامة وقوة وقطعاً في الأمر يتساوق مع خطر الوقوع في أشراك الهوى المودي إلى الهلاك . زيادة على أنّ وضوح صوت العين بفخامته يشير إلى وضوح الأمر ، فقد وصفه الخليل - ومعه

(١) ينظر : نظم الدرر : ٣٠/٨
(٢) المصدر نفسه : ٣٠/٨ ، وينظر : الإعجاز الصرفي في القرآن الكريم : ١٣٣
(٣) ينظر : الميزان : ٢٤٧/١٨
(٤) في ظلال القرآن : ٣٢٢٩/٥

صوت القاف- بأنهما " أطلق الحروف وأضخمها جرساً "[١]. أمّا الفعل الثاني فقد انتهى باللاحقة الضميرية الممدودة (ها) ، التي شكّلت مقطعاً صوتياً طويلاً مفتوحاً ، بدأ بصوت الهاء المهموس الرخو الذي امتد بالألف ، فأضفى جواً من السهولة والراحة وقبول الأمر الإلهي يتسق أولاً مع أعلى مقامات الإيمان عند المتلقي الأول (صلى الله عليه وآله وسلم)، وثانياً مع الإيمان بمراتبه عند المتلقي الآخر ، وعبر الزمن .

ومنه قوله تعالى : ((رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ))[٢] ، فنداء الملائكة حملة العرش ومن حوله ربّهم ، وطلبهم على سبيل الاستعطاف والترجي منه (سبحانه) المغفرة للمؤمنين والتائبين ، وتقديمهم الرحمة التي يستمطرون بها إحسان ربهم ويتوسلون بها إلى حصول مطلوبهم من سؤال المغفرة ، وإردافهم بالتضرع بوقايتهم العذاب على سبيل المبالغة والتأكيد[٣] ، أقول إن نداءهم بأوصافه المتقدمة يظهر مدى استحقاق المدعو لهم نتيجة اتّباعهم سبيل ربهم ونهجه بالإجهاد والاجتهاد والتكلف الذي يستفاد من دلالة صيغة الفعل المزيدة (اتّبعوا) . زيادة على أنّ في الصياغة معنى انتساب الفعل للفاعل نفسه[٤] ، أي : إنهم اتّبعوا طريق ربّهم بمحض إرادتهم مخيرين ، فاستحقوا شرف تشفع الملائكة المقربين . فالصيغة الفعلية المعبرة عن الاتّباع ، بالزيادة فيها وبالأثر الصوتي الذي تعكسهُ ، نتيجة المماثلة الصوتية المؤدية إلى إدغام التاء التي تحكي بشدتها وإطالة نطقها اجتهاد المتّبعين وصبرهم واستمرارهم على طريق الحق ، مجاهدين أنفسهم والظروف الموضوعية التي تقف بوجه السائرين على هذا الطريق ، وبهمسها تومئ إلى سهولة قبول أنفسهم سبيل الله ، وكأنه قد مازجها ، فكان مقابل ذلك الجهد والاجتهاد والصبر ، اجتهاد الملائكة وإلحاحهم وتوسلهم لنيل المغفرة والرحمة لهم .

---

(١) العين : ٥٣/١
(٢) غافر : ٧
(٣) ينظر : البحر المحيط : ٤٣٣/٧-٤٣٤
(٤) ينظر : أوزان الفعل ومعانيها : ٩٣

وفي سياق الإرشاد والتبشير يطالعنا قوله تعالى : ((ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْناً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ))[١] ، فالآية الكريمة ابتدأت بالتبشير ، وربطته بمودة ذوي القربى أجراً على نعمة الإيمان والعمل الصالح بهدي النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) ، والمعـروف أنّ نعمة الإيمان والاستقامة هـي أسّ الخلق وعلته ، قال تعالى: ((وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ))[٢] ، وبهـذا يتبيّن خـطرها وعظمـتها ، "فجعل أجر رسالته المودة في القربى ، ومن المتيقن من مضامين سائر الآيات التي في هذا المعنى، هذه المودة أمر يرجع إلى استجابة الدعوة إمّا استجابة كلّها ، وإمّا استجابة بعضها"[٣] . ومن هنا يتضح تساوق استعمال الفعل المزيد (يقترف) مع سياق الآية ، إذ يدل على الاكتساب مع المعاناة في تأثيره والمبالغة والاحتيال فيه ، زيادة على فعل فاعله بنفسه[٤] ، فالمودة تقتضي تغلباً على هوى النفس والأحقاد والارتباطات القبلية والقومية وغيرها ، والصبر على ما يستتبعها من أذىً ، وكلّ ذلك يقتضي القوة والمبالغة في معنى الفعل ، لذا جاء استعمال هذه البنية المزيدة متوافقاً مع السياق القرآني ، ولا سيما أنّ بنيته الصوتية توافقت مع البنية الصرفية من خلال صفات القوة في أصواته ، وأبرزها صوت القاف الشديد المقلقل المستعلي ، الذي يقرع السمع قرعاً ، وبخاصة أنّه سبق بالمدّ الممهد له والمبرّر لشدته[٥]، وصوت التاء الشديد ، والراء المجهور المتوسط الشدة ذي الطبيعة التكرارية الذي يومىء إلى تكرار معنى الفعل المتوافق مع دلالته الزمنية . وقد ختم الفعل بصوت الفاء المهموس الرخو المذلق الذي يعد من أخف الأصوات في النطق وأكثرها في الكلام وأحسنها في البناء[٦] ، وهي صفات تشيع جوّاً من الراحة والسكون ، وكأنها تشير إلى أنّ تمكن الفعل من النفوس ينتهي بها إلى الشمول بمغفرة الله وشكره ، وذلك هو الفوز العظيم . كما أنّ في الصيغة الفعلية (يقترف) دلالة على القرب والإحاطة في أصل وضعها اللغوي ، أي

---

(١) الشورى : ٢٣
(٢) الذاريات : ٥٦
(٣) الميزان : ١٩٢/١٧
(٤) ينظر : شرح النظام : ٥٨ ، وأوزان الفعل ومعانيها : ٩٢
(٥) ينظر : جماليات المفردة القرآنية : ٢١٧
(٦) ينظر : تهذيب اللغة ٥١/١

يختارون القرب من الحسنة (المودة في القربى) والإحاطة بها بعد اكتسابها ، " فالاقتراف إنّما يحصل بعد الاكتساب ، وهو في مرتبة متأخرة وكاملة من الاكتساب "[١] .

بِنْية اسْتَفْعَل :

وهي من صيغ الثلاثي الذي زيد فيه ثلاثة أحرف في أوله[٢] ، وقيل زيد فيه حرفان هما (السين والتاء)، وجيء بالهمزة ليتوصل بها إلى النطق بالسين الساكنة[٣] .

ويعد هذا المقطع المزيد الأساس الذي فسّر به بعض اللغويين إفادتها معنى الطلب ، وهو أشهر معانيها ، إذ يرى هؤلاء أنّ هذه الصيغة الفعلية مكونة من مقطعين ، الأول المزيد (است) ، وهو إمّا بقية فعل فُقِد في العربية ، وأصله (سطا) ، فقلبت الطاء تاءً ، ومعناه مال ، وإمّا إنّه مستعمل في اللغة التركية ، ومعناه الإرادة والطلب . والثاني فعل[٤] ، الذي اكتسب معنى الالتماس من المقطع المزيد ، قال ابن جني : " فهذا من اللفظ وفق المعنى الموجود هناك ، وذلك أنّ الطلب للفعل والتماسه والسعي فيه والتأني لوقوع تقدمه ، ثم وقعت الإجابة إليه ، فتبع الفعل السؤال فيه والتسبب لوقوعه ، فكما تبعت أفعال الإجابة أفعال الطلب ، كذلك تبعت حروف الأصل الحروف الزائدة التي وضعت للالتماس "[٥] .

ومما جاء على هذه الصيغة قوله تعالى : ((تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ))[٦] ، فسياق الآية الكريمة فيه تعظيم لله (سبحانه) ، من خلال تعظيم ما يحدث للسماوات من تفطرّ ، "لمّا أنّ أعظم الآيات وأدلّها على العظمة والجلال من تلك الجهة"[٧]، تنزيهاً لله من

---

(١) التحقيق في كلمات القرآن الكريم : ٢٧٣/٩
(٢) ينظر : أوزان الفعل ومعانيها : ١٠٦
(٣) ينظر : المنصف في شرح التصريف : ٧٧/١
(٤) ينظر : الألفاظ العربية والفلسفة اللغوية : ٣٩ ، وأوزان الفعل ومعانيها : ١٠٧
(٥) الخصائص : ١٥٦/٢
(٦) الشورى : ٥
(٧) تفسير أبي السعود : ٢٢/٨

كلمات الشرك الشنعاء الواقعة في الأرض ، وهي من أعظم الموبقات . لذا إنّ الملائكة ينزهون الله (سبحانه) عمّا لا يليق به ، وقد عبّر عن هذا التنزيه بالصيغة الفعلية المضعفة (يُسَبِّحُونَ) ، للإشارة إلى معنى التكثير والمبالغة والتكرير في الدلالة على معنى التسبيح ، ليقابل تعظيم الله الذي سيقت الآية الكريمة لتقريره(١) . وعلى النسق نفسه من التعظيم يأتي استغفار الملائكة لأهل الأرض ـ مصدر كلمات الشرك ـ بالوحدة الصرفية المزيدة (يستغفرون) ، على صيغة (استفعل) ، لإفادة معنى الطلب ، أي يطلبون المغفرة ، وللمبالغة في معنى الفعل وتعظيمه، إذ ذهب الزمخشري إلى أنّ زيادة السين والتاء في هذه الصيغة تدل على المبالغة ، لزيادة المبنى على الصيغة المجردة(٢) . وهذا التعظيم في الاستغفار يتسق مع عظمة الله (سبحانه) من جهة ، ومع دلالة عموم الاستغفار الذي يفيده قوله تعالى : ((لِمَن فِي الْأَرْضِ)) من جهة أخرى ، فاستغفار الملائكة يشمل المؤمنين والكافرين ، المؤمنين " لما يرون من شدة تقصيرهم في الوفاء بحق تلك العظمة التي لا تضاهى "(٣) ، والكافرين لمّا كانت أفعالهم وأقوالهم عظيمة المخالفة لما يرضيه (سبحانه)، فهم يستحقون المعاجلة بالعذاب بسببها ، لذا يكون الاستغفار لتأخير هذه المعاجلة(٤) . ولولا استغفار الملائكة وتنزيهم الله (سبحانه) لتفطرت السماوات ، وحضر العذاب ، وعوجل الخلق بالهلاك ، وقامت القيامة ، يدلنا على ذلك " كيدودة الانفطار مع هذا التنزيه والاستغفار ، فما ظنك بما يكون لو عرى الأمر عنه وخلا منه "(٥) . ومن هنا يتضح تساوق دلالة الصيغة الفعلية على المبالغة والتكثير في معنى الحدث مع سياق الآية الكريمة، فعظيم جرم أهل الأرض يقابله عظيم استغفار الملائكة وإلحاحهم في الطلب .

إنّ عظـمة الاستغفار وقـوّته وامتداده يعكسها المقـطع الصوتي الـذي ختم بـه الفعل (رون) ، إذ تشكّل من أصوات مجهورة مفخمة تدل في أصل وضعها على القوة والامتداد

---

(١) ينظر : تفسير أبي السعود : ٢٢/٨
(٢) ينظر : الكشاف : ٤٦٥/٢ ، والجملة العربية والمعنى : ٢٠٤
(٣) نظم الدرر : ٣٨٤/٧
(٤) ينظر : فتح القدير : ٥٢٦/٤
(٥) نظم الدرر : ٣٨٤/٧

وشيوع الوصف ، فالراء صوت مكرر يفيد تكرير الحدث وتكثيره وشيوعه[١] ، والواو صوت مجهور ثقيل يحكي القوة والامتداد إلى الأمام[٢]، والنون مجهور ذلقي شبيه بالحركة بسبب امتداده ، فهو والميم يليان أصوات المدّ في الطول والامتداد[٣] ، وبوضوحه وامتداده وجهره يعكس قوة الفعل وفخامته واستمراره .

إنّ استغفار الملائكة الموصوف بالعظمة المبالغة والتكثير يشيع جوّاً من الراحة والسكون لدى أهل الأرض تعكسه صفات الهمس والرخاوة التي هيمنت على بنية الفعل الصوتية ، إذ بدأ الفعل بصوت مهموس رخو (الياء) يتسع له المخرج ، فينساب الهواء من الجوف من دون عارض ، تلاه صوت السين المهموس الرخو الذي قفل المقطع الصوتي الطويل ، فأشاعا جرساً هادئاً منساباً يجلب الراحة والسكون والطمأنينة لدى المتلقي ، وبخاصة أنّه أردف بمقطع آخر مثله ، بدأ بصوت مهموس (التاء) وأغلق بصوت مهموس رخو (الغين) ، تلاه صوت مهموس رخو آخر (الفاء) . زيادة على معنى الطلب الحركيّ الواضح المسموع المستمر الذي تفرضه صفة الاحتكاك في صوت السين ، فهو " يعبّر بحسب صدوره عن معنى الحركة أو الطلب ، وهو يحدد المضارع نحو المستقبل ، ومنه أسأر (سار البلدة كلها) وسأل وسأى (عدا وركض) ، والسبأة (السفر البعيد) وسبح وسبر (تعمق) ..." [٤] .

وفي سياق التهديد والوعيد إرشاداً وتوجيها نجد هذه الصيغة الفعلية في قوله تعالى : ((قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ))[٥] ، إذ إنّ السياق القرآني في الآية الكريمة في صدد النهي عن مُدّعيات عظيمة في ميزان الدعوة إلى الله (سبحانه) ، ترتبط بقسيمي التكليف ، الإيمان المتعلق بالعقل ، والعبادة المرتبطة بالجوارح . ومن وُجّه إليهم الخطاب القرآني على لسان النبي (صلى

---

(١) ينظر : خصائص الحروف العربية ٨٥-٨٧ ، وتهذيب المقدمة اللغوية للعلايلي : ٦٣
(٢) ينظر : كتاب الموسيقى الكبير : ١٠٧٣ .
(٣) ينظر : الدراسات الصوتية عند علماء التجويد : ٣١٦
(٤) تهذيب المقدمة اللغوية للعلا يلي : ٦٣
(٥) فصلت : ٦

الله عليه وآله وسلم) قد ارتكبوا أفعالاً عظيمة في انحرافها على الصعيدين القلبي والعملي ، فكفروا بالتوحيد الذي يمثل رأس الإيمان[١] ، ورفضوا دعوة النبي (ص) بنبذ الشرك وعبادة الأصنام ، وقالوا في الله ورسوله ما يستوجب عذاباً عظيماً . لذا جاء الخطاب القرآني على لسان الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) آمراً بفعلين مزيدين على زنة (استفعل) ، يتناغمان في قوة معناهما والمبالغة في دلالتهما من خلال زيادة مبناهما مع عظيم الانحراف في إيمان المخاطبين وفعلهم ، ولا سيما في قضايا الغيب التي ركزت عليها سور الحواميم المباركة ، فجاء الأمر (فاستقيموا إليه) - " أي له بالتوحيد الذي هو رأس الدين والعمل "[٢] - بالفعل المزيد ترسيخاً للتوجه نحو الاستقامة في العقيدة ، فقوة دلالة الفعل على معناه تتساوق مع رسوخ العقيدة المنحرفة عند المتلقي ، ففيها مراعاة لحاله التي وصفها قوله تعالى : ((وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ))[٣] . ونتيجة لما ارتكبه المعنيون بالخطاب القرآني (المتلقي الأول) ، من عظيم الخطايا والآثام برفضهم على مستوى الفعل والقول دعوة النبي الأعظم (صلى الله عليه وآله وسلم) ، بل الإصرار على ما يخالفها من عبادة الشريك وإنكار نبوة بشرٍ مثلهم ، جاء الأمر بالاستغفار بالفعل المزيد ، للإفادة من معنى الطلب الذي تدل عليه الصيغة الفعلية (استفعل) ، أي اطلبوا المغفرة . زيادة على معنى التكثير والمبالغة في المعنى الذي تفيده هذه الصيغة[٤] ، الذي يتسق مع قبيح ما اعتقدوا وما قالوا وما فعلوا ، فالصيغة الأمرية تراعي مقتضى الحال ، فاستغفروه ، أي " مما كنتم عليه من سوء العقيدة والعمل "[٥] . وتكثير الاستغفار والمبالغة فيه يتسق مع عظم الذنوب وتعددها على مستوى الاعتقاد القلبي والفعل الجارحي ، ومع عظيم المغفرة " إذ هي رأس العمل الذي بحصوله تزول التبعات "[٦] . ويبدو أنّ الأمر التوجيهي والتحذيري العظيم يقتضي وضوحاً سمعياً توافر بالضغط على صوت السين الساكن الصفيري الاحتكاكي الذي يعد من أكثر أصوات

---

(١) ينظر : تفسير الأمثل : ٢٦١/١٦
(٢) البحر المحيط : ٤٦٤/٧
(٣) فصلت : ٥
(٤) ينظر : الكشاف : ٤٦٥/٢ ، والجملة العربية والمعنى : ٢٠٤
(٥) تفسير أبي السعود : ٣/٨
(٦) البحر المحيط : ٤٦٤/٧

الصفير صفيراً ومن أكثر أصوات الاحتكاك احتكاكاً[١]، فينتج عن صفيره واحتكاكه وضوحاً في النطق يتسق مع إرادة وضوح الأمر . زيادة على الامتداد الصوتي المجهور لصوت الميم فــي الفعل الأول ، والراء فــي الثاني الذي ينتجه صــوت المد (الواو المجهور) ، فيولد وضوحاً سمعياً يضاف لوضوح السين وصفيرها .

وفي سياق التهديد والوعيد بما يجري على المجرمين من وقوف للحساب يطالعنا قوله تعالى : ((وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْماً مُّجْرِمِينَ))[٢] ، فالآية الكريمة جاءت في سياق الوعيد بالحساب بعد ذكر أدلة توحيد الله التي يعرفها المعنيون بالخطاب القرآني في السورة المباركة ، قال تعالى : ((أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ))[٣] ، وعلى الرغم من ذلك أنكروها وأصرّوا على كفرهم . ولا شكّ في أنّ في ذلك من عظيم الخطايا ما يضاعف غضب الله ومن ثم عذابه عليهم ، لذا جاء تعليل استحقاقهم للعذاب مرتبطاً بإنكارهم هذه الآيات العظيمة استكباراً ، بالصيغة الفعلية المزيدة (استكبرتم) ، التي تفيد معنى التكلف والمبالغة في إيقاع الفعل[٤] ، فهم بالغوا في تكبرهم وتكلّفوا الإنكار ، مع يقينهم بصدقية ما يُتلى عليهم ، فتعظيم الاستكبار ينسجم مع فداحة الفعل المرتكب ، الذي وصفوا لارتكابه بأنهم مجرمون ، أي قوماً عادتهم الإجرام[٥] . وقد اتسق تعـظيم جرمهم بوصــف تكبرهم بالوحدة الصرفية المزيدة (استكبرتم) مع سياق التهديد في الآية الكريمة . ونجد الفعل نفسه متناسقاً مع سياق الحال والمقال مراعياً حال المتلقي ، في وصف عناد الكافرين وتكبرهم في قوله تعالى : ((قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ))[٦] ، فالسياق القرآني عظّم أمر ما يوحى إلى

---

(١) ينظر : الإعجاز الصوتي في قصار السور : أحمد فليح ، مجلة جامعة تكريت للعلوم الإنسانية ، مج١٢ ، ع٥ ، ٢٠٠٥م : ١٣
(٢) الجاثية : ٣١
(٣) نفسها : ٢٣ ، وينظر : تفسيرها في البحر المحيط : ٤٩/٨ ، إذ جعلها كقوله تعالى : ((وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم)) .
(٤) ينظر : أوزان الفعل ومعانيها : ١٠٩
(٥) ينظر : تفسير أبي السعود : ٧٥/٨
(٦) الأحقاف : ١٠

الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) بكونه من عند الله أولاً ، وإتماماً للحجة عليهم أقرنه بشهادة شاهد منهم ثانياً ، " والمعنى أن اجتمع كونه من عند الله تعالى مع كفركم ، واجتمع شهادة الشاهد ، فأيمانه مع استكباركم عن الإيمان "(١) ، لذا عُبّر عن كفرهم بعلّته (الاستكبار) بالفعل المزيد (استكبرتم) ، ليقابل ـ بدلالته على التكلف في المعنى والمبالغة فيه والتكثير منه ـ الأدلة العظيمة التي سيقت في الآية الكريمة إثباتاً لصدقية الوحي وأوامره .

ولا شكّ في أنّ إنكار الوحي مع ما سيق من أدلة ساطعة على أحقيته ، يستبطن تمكن الكبر من نفوسهم لقوة أثره عليهم واستسلامهم له ، وهو ما تدل عليه الصيغة الفعلية المزيدة على زنة (استفعل) في أحد معانيها ، قال الزمخشري : " واستقتل فلان استسلم للقتل "(٢) .

واللافت للنظر أنّ بنية الفعل الصوتية توحي بالمعاني السابقة ، إذ إنّ الفعل متكون من أربعة مقاطع صوتية طويلة مغلقة ، هي : (وَس) ، (تَك) ، (بَر) ، (تُم) ، وهي تتناسب مع قوة الحدث وشدته ، ولا سيما أنّ ثلاثاً منها تنتهي بأصوات إمّا شديدة (الكاف) وإمّا مجهورة (الراء والميم) . كما أنّ لهذا الانغلاق الصوتي بعداً آخر ، فهو يومئ إلى انغلاق نفوسهم وعدم انفتاحها على الأدلة العظيمة التي سيقت لهدايتهم ، فقد أغلقت هذه النفوس بالاستكبار لتمكنه منها ، واستسلامها له . ولا يخفى ما في صوت الراء المجهور المفخم المتكرر من دلالة على استمرار تكبرهم حتى استحقوا الوصف بأنهم مجرمون وظالمون .

وفي سياق وصف ما يجري في يوم الحساب تهديداً ووعيداً ، يبرز قوله تعالى : ((وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ))(٣) ،

---

(١) روح المعاني : ١١/٢٦

(٢) أساس البلاغة : ٤٩٢/١ ، وينظر : المعجم الوسيط : ٧١٥/٢

(٣) الأحقاف : ٢٠

فعلّة تسليط عـذاب الهون عليهم "أي الهوان العظيم المجتمع الشـديد الذي فيـه ذل وخزي"[١] ، هو الانحراف والاستمتاع بغير الحق بالطيبات التي سلّطوا عليها ، وجعلوها غاية حظهم ، لذا تُظهر هذه الصيغة المزيدة المعنى الذي يتناغم مع إيقاع العذاب الشديد ، أي : إنهم بالغوا في الاستمتاع وأكثروا منه ، واستسلموا له ، حتى أصبحوا عبيد شهواتهم ، فكان سعيهم في حركاتهم وسكناتهم لأجلها ، فكان العذاب عظيما مبالغاً في شدته ، كما بالغوا في الاستمتاع والانحراف . كما أنّ في هذه الصيغة الفعلية معنى الطلب ، " أي طلبتم وأوجدتم انتفاعكم بها ، وجعلتموها غاية حظكم في رفعتكم ونعمتكم "[٢]. ويبدو أنّ هيمنة أصوات الهمس (السين) و (التاء) الذي تكرر على طول الفعل تشيع جواً من الضعف يوحي بضعف نفوسهم أولاً ، وهوان استمتاعهم ثانياً . أمّا انغلاق مقاطعه الصوتية فيشير إلى انغلاق نفوسهم على الاستمتاع ، وتمكنه منها ، وكأنها لا تسمع ولا ترى غير الطيبات .

وتطالعنا في الآية الكريمة الوحدة الصرفية نفسها (تستكبرون) ، التي تشير إلى العلّة الرئيسة لاستحقاقهم عذاب الهون ، فإيغالهم في الشهوات والاستمتاع بها بغير الحق ناتج عن تمكن الكبر من نفوسهم لقوته فيهم ، فاستفعل يفيد " معنى القوة ، نحو استهتر واستكبر ، بمعنى قوي هتاره وكبره "[٣] ، لذا صدتهم نفوسهم المستكبرة عن دعوة الحق فغرقوا في الشهوات وبالغوا بإنفاد طيباتهم فلم يبق لهم من شيء إلا العذاب المهين .

وفي السياق نفسه قوله تعالى : ((فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ))[٤] ، إذ إنّ المورفيم المزيد (يستعتبوا) وارد في سياق التهديد والوعيد ، والمعنى " أنّ حاصل أمرهم أنّهم قد زُجّ بهم في النار فإن صبروا واستسلموا فهم باقون في النار "[٥] ، وفي ذلك الموقف شديد البأس لا يسعهم إلا أن يطلبوا متوسلين الخلاص بأي وجه كان ، ومنه طلب العتبى الذي عُبّر عنه بالفعل المزيد (يستعتبوا) ، إيماءً إلى ما

---

(١) نظم الدرر : ٦٤/٨
(٢) المصدر السابق : ٦٣/٨
(٣) أوزان الفعل ومعانيها : ١١١
(٤) فصلت : ٢٤
(٥) التحرير والتنوير : ٢٧٣/٢٤

يستحضره الفعل من معنى القوة في الدلالة على الحدث والمبالغة فيه ، بما يتناسب مع ما سَيُلاقونه من شديد غضب الله عليهم ، أي إنهم يبالغون في طلب الاستعتاب للخلاص مما هم فيه . ويبرز هنا صوت العين المجهور الذي يعدّ من أوضح الأصوات ، فقد وصفه الخليل –ومعه صوت القاف- بأنهما " أطلق الحروف وأضخمها جرساً "(١) ، وهو يدل على " العنف وقوّة الحدث "(٢) . وفيه تصوير لحالة هؤلاء المستعتبين ، فهو صوت عميق المخرج ، في نطقه مشقة على النَفَس عندما يُحبس الهواء بالقرب من الرئتين ، لذا فحالهم كالمختنق الذي لا يمكنه التقاط أنفاسه لهول الموقف . وفي الصيغة معنى الحمل على الشيء(٣) ، أي محاولتهم حمل صاحب الموقف (سبحانه) على قبول عتابهم ، باعتذارهم وندمهم ، لذا كان استعمال الفعل المزيد مراعاة لحال المتلقي الذي ليس بيده إلا الإلحاح في الطلب سعياً للحمل على الإجابة على سبيل الاستمرار والتجدد الذي تفيده صيغة المضارع التي جاء الفعل المزيد على صورتها ، مما يبرّز التناغم بين الدلالة الصرفية للفعل ودلالته الزمنية وسياق الحال الذي يحكي أبدية إيقاع العذاب بهم ، و استمرارهم في الطلب ما دام العذاب واقعاً بهم .

وفي سياق الترغيب والتبشير نقرأ قوله تعالى : ((وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ))(٤) ، فالآية الكريمة في سياق توصيف المؤمنين الموعودين بالأجر العظيم ، وابتدأت بوصفهم بالاستجابة لله بالفعل المزيد على زنة (استفعل) ، لتتساوق دلالته على المبالغة في الحدث مع العموم الذي يفيده مفهوم الاستجابة لربهم ، أي إجابتهم لما يكلفهم من الأعمال الصالحة على سبيل الإجمال ، وقد ذكرت الصلاة وهي داخلة في المفهوم السابق من قبيل ذكر الخاص بعد العام لشرفه(٥) . وفيها إيماءٌ إلى حال المؤمنين الذين يبالغون في إجابة ربهم إجابة لا يخالطها كراهية ولا تردد ، وهي إجابة خاصة بالله من دون غيره ، لذا عُدي الفعل باللام للتقوية والمطاوعة

---

(١) العين : ٦٠/١
(٢) نظرات حديثة في التفسير : ١٤٣
(٣) ينظر : أوزان الفعل ومعانيها : ١١١
(٤) الشورى : ٣٨
(٥) ينظر : الميزان ٢٠٠/١٨

ولإفادة تمام الانقياد[١] . زيادة على أنّ الاستجابة التي تعكس رضا الله (سبحانه) إنّما يلزمها اعتقاد بالقلب وعمل بالجوارح ، وصبر على الأذى ، ومحاربة لهوى النفس ، وغيرها من متعلقات الإيمان ، وبذا فزيادة مبنى الصيغة تتساوق في دلالتها على المبالغة والاجتهاد والتكلف في الاستجابة مع متطلباتها التي تقتضي صبراً وإرادة . أمّا البنية الصوتية للفعل فقد توزعت صفات أصواتها بين الهمس (السين والتاء) الذي يشيع السكون والطمأنينة وقبول الاستجابة ، والجهر (الجيم والباء) والامتداد (الألف والواو) والصفير (السين) وهي صفات القوة والوضوح السمعي ، فالخطاب موجه للعالمين لكي يسمعوا رضا الله وقبوله أعمال الموصوفين بالخطاب القرآني ترغيباً ، وبخاصة أنّ المدّ الصوتي جاء رادفاً الأصوات المجهورة الشديدة ، فامتد جهرها وشدتها بجهر أصوات المد وامتدادها، وفيه - زيادة على القوة والوضوح - إيماءة إلى الاستمرار والتجدد في الاستجابة.

الفعل المبني للمجهول

قد تدخل الفعل في العربية تحولات بنائية ناتجة عن تغيرات في الصوائت التي تضاف للفعل (الضمة والكسرة في الماضي ، والضمة والفتحة في المضارع) ، تحدث تحولات في شكل الصيغة الفعلية ، ينتج عنها تحولات في مستويات اللغة الأخرى ، الصوتية والنحوية ، تنعكس آثاراً دلالية متنوعة ، قسّمها اللغويون على أغراض لفظية ومعنوية[١] ، يرتبط أغلبها بالفاعل ودلالات الاستغناء عنه ، كعدم تعيّنه لدى المتكلم ، أو أنّه متعين ولكن يحذف لغرض ما في نفس المتكلم . ومنهم من ربطها بالمفعول ، إذ يقدم على الفاعل فيقام مقامه للاهتمام به أكثر من الفاعل، " فهذا يدلّك على تمكن المفعول عندهم ، وتقدم حاله في أنفسهم ، إذ أفردوه بأن صاغوا الفعل له صياغة مخالفة لصيغته وهو للفاعل "[٢] .

---

(١) ينظر : التفسير الكبير : ١٥١/٢٧

ولا شكّ في أنّ الصراع الذي تعكسه سور الحواميم المباركة بين الحق متمثلاً بآيات الله وحملتها (أنبيائه) ، وبين الباطل متجسداً بالكافرين وادعاءاتهم ، يفتح باباً واسعة لاستعمال الفعل المبني للمجهول ، إذ إنّ الفاعل الحقيقي (الله) مُنكَر من قبل المتلقين ، فينعكس هذا الإنكار في الخطاب القرآني ، يقابله اهتمام بالمتلقي (المفعول) المنكر من صاحب الخطاب (الله سبحانه) ، يظهر في صور مختلفة ، تهديداً ووعيداً ، إرشاداً وتوجيهاً ، وغير ذلك .

وأبرز السياقات التي اتضح فيها استعمال هذه الصيغة الفعلية سياق التهديد والوعيد ، إذ يُشيع استعمالها جوّاً من الرهبة يتسق مع هذا السياق ، كقوله تعالى : ((وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ))[٣] ، فاستعمال الفعل (يُعرض) مبنياً للمجهول يعكس أولاً إخفاء لصاحب فعل العرض يتساوق مع إنكاره والكفر به في الحياة الدنيا ، وكأن المعرضين على النار تستمر فيهم حالة الضياع وعدم الإدراك ، فتيهانهم في الكفر أدى بهم إلى تيهان في يوم الحساب يضاعف لهم العذاب ، فلو عرفوا المسبب لقلل ذلك من أثره فيهم .

وفي استعمال الفعل المبني للمفعول جريّ على سنن الجلالة بالإيذان بعدم الحاجة إلى التصريح بالفاعل لاستحالة إسناده إلى غيره (سبحانه)[٤] .

---

(١) ينظر : شرح المفصل ٣٢١/٧، ومعاني النحو ٤٩٢/٢ ، والعربية الفصحى : ١٤٨
(٢) الخصائص : ٢١٨/٢
(٣) الأحقاف : من الآية ٣٤
(٤) ينظر : روح المعاني : ١٥٨/١٤

إنّ تكرار صوت الراء في هذا المشهد (يُعْرض ـ كفروا ـ النار) ، أضفى جرساً صوتياً يميل بشكل كبير إلى القوة والشدة والحركة ، فهذا الصوت ينماز بقوته المتمثلة بجهره وتكراره وتفخيمه ، ولا سيما في الفعل (يعرض) الذي أسكنت عينه المجهورة التي تخرج من وسط الحلق ، وكأن صوت العين يصور شدة الموقف ، فنطق الفعل يعكس حالة الإنسان المختنق الخائف الذي لا يمكنه التقاط أنفاسه ، وكأنه يلفظ قلبه من صدره خوفاً وفزعاً من جسامة ما يرى[١] . زيادة على تساوق طبيعة الراء التكرارية مع دلالة الفعل المضارع (يُعرَض) على التجدد والحدوث ، فالعرض متجدد مستمر استمرار الكفر فيهم في الحياة الدنيا ، فتعاضدت في الآية الكريمة القرائن الصوتية مع بنية الفعل في إبراز هول الموقف وشدته عليهم ، إذ يسمعوا من تغيّض النار وزفيرها ، ويروا من لهيبها واضطرامها وسعيرها ما لو قدّر أنّ أحداً يموت من ذلك لماتوا من معاينته وهائل رؤيته[٢] . ومنه قوله تعالى : ((إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ ۞ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ))[٣] ، إذ تصور الآية الكريمة مشهد إهانة الكافرين بسحبهم بالسلاسل والأغلال كالبهائم ، ليكون مصيرهم حطباً ووقوداً لجهنم . وقد جاء التعبير عن هذا المشهد بالفعلين المضارعين المبنيين للمجهول ، ترسيخاً لتخصيص الفعلين بهم ، من دون أن يشاركهم فيهما فاعل قد يشغل جزءاً من فكر المتلقي وانتباهه . زيادة على أنّ عدم ظهوره يزيد من هول الموقف ، فهم لا يعرفون من يسحبهم ويسجرهم في النار ، مما يضاعف من معاناتهم وشعورهم بهول العذاب ، كما أنّ استعمال هذه البنية الفعلية المسندة للمفعول الجاهل بما يجري حوله تتسق مع جهله بالبعث والنشور ، وتظاهره الدنيوي بعدم فهم ما يقوله الرسول (صلى الله عليه وآله)[٤]، فالتجاهل في وقت التكليف ينسحب جهلاً يزيد العذاب في وقت الحساب .

---

(٢) ينظر : الدلالة الصوتية في آي مشاهد القيامة (أطروحة دكتوراه) : ١٨٤
(٣) ينظر : نظم الدرر : ٧٤/٨
(٣) غافر : ٧١ ـ ٧٢
(٤) ينظر : التحرير والتنوير : ٢٠٢/٢٤

ولا شكّ في أنّ استعمال الفعلين كرّس هيمنة صوت السين الاحتكاكي الصفيري الذي يعد أشد أصوات الصفير صفيراً ، وأشد أصوات الاحتكاك احتكاكاً[١] ، فتكراره في قوله تعالى : ((وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ)) يكاد يسمعنا صوت السلاسل المسحوبة على الأرض حقّاً ، وكذلك صوت السين في (يسجرون) إذ يلمحُ فيه صوت احتراق اللحم والجلد من الكافرين المعذبين . كما أنّ تناسب الفاصلتين الذي حققه استعمال الفعلين يوحي بشدة السحب والسجر وقوتهما[٢] .

وفي السياق نفسه يطالعنا قوله تعالى : ((ذَلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُواً وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ))[٣] . فالآية الكريمة تبيّن علة وقوع العذاب بهم ، وهي استكبارهم وإنكارهم آيات الله وتكذيبهم بيوم القيامة وغرورهم ، لذا تنفي خروجهم من مأواهم (النار) باستعمال الفعل المبني للمجهول ، ترسيخاً لمفهوم النسيان الذي أكدته الآية الكريمة السابقة للآية موضع البحث : ((وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاء يَوْمِكُمْ هَذَا)) ، فإخفاء قائل النسيان يمهّد إخفاء القادر على إخراجهم ممّا هم فيه ، فهم لا يستحقون مخاطباً ولا يرجى لهم مُخرجاً . فإنكارهم وكفرهم بربهم القادر ويومه الموعود ، جلب لهم سقوطاً عن مرتبة الخطاب أولاً ، ومن ثم اليأس من الخلاص . وقد تساوق استعمال هذه البنية الفعلية مع الالتفات من الخطاب إلى الغيبة " للإيذان بإسقاطهم عن رتبة الخطاب استهانة ، أو بنقلهم من مقام الخطاب إلى غيابة النار "[٤] . فنسيانهم في النار يتسق مع غياب المنقذ الذي يخرجهم مما هم فيه ، فغيابه عنهم في هذا الموقف إنّما هو امتداد لتغييبهم إياه وتجاهل آيات وجوده .

وفي سياق وصف حال الكافرين يوم القيامة تهديداً ووعيداً نجد قوله تعالى : ((إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ))[٥] ،

---

(١) ينظر : الإعجاز الصوتي في قصار السور (بحث) : ١٣
(٢) ينظر : الدلالة الصوتية في آي مشاهد القيامة : ١٢٠
(٣) الجاثية : ٣٥
(٤) تفسير أبي السعود : ٧٦/٨
(٥) غافر : ١٠

إذ تصور الآية الكريمة موقف الكافرين من أنفسهم بعد ما شاهدوا القيامة والجنة والنار ، فمقتوا أنفسهم ولاموا رؤساءهم ، ورؤساهم لاموا أتباعهم[١] ، فجاءهم النداء ببنية الفعل المبني للمجهول (ينادون) تهويلاً لأمر النداء ، فهو إيذان بأن لوم النفس ليس فيه خلاص لهم ، وإنه مصيرهم المحتوم ، ولا سيما أنّ بنية الفعل الصوتية التي تكرر فيها صوت النون المجهور المتلو بألف ممدودة ، وأردف بواو المد في نهاية الفعل الذي فيه دلالة على الامتداد والقوة بسب حركة أقصى اللسان التي تمنحه عمقاً ، مع صوت الدال القوي الموصوف بأنّه مجهور وشديد مقلقل[٢] تحكي قوة النداء وشدته أولاً ، وبعد المنادي ثانياً ، وكأنّ النداء يأتي من مكان بعيد تحقيراً لهم ، وزيادة في وحشية موقفهم ، فلا تسلية تخفف عنهم العذاب ، وقد تأكّد ذلك بقوله تعالى: ((أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ))[٣] ، إذ تساوق استعمال اسم الإشارة للبعيد مع بنية الفعل التي تومئ إلى بعد النداء ، وبعد المنادى ، تمثيلاً لبعد منزلته في الشرّ ، فلا يكاد يسمع النداء مع قوته وشدته ، وإيذان بتحقيره ، فلا يستحق أن يخاطب عن قرب ، وبخاصة أنّ المنادي قد كُذبت آياته وتعامى المنادى عن قبول حجته على الرغم من وضوحها . فكان النداء قريباً بقوة الحجة في الحياة الدنيا ، فلم يستمع له ، وكأنه نداء من مسافة نائية لا يكاد يسمع من مثلها الأصوات[٤] .

ونجد في الآية الكريمة نفسها فعلاً آخر سيق علة لمقت الله (سبحانه) إياهم ، ومن ثم وقوفهم هذا الموقف المهول ، وهو الفعل (تُدْعَون) ، إذ جاء مبنياً للمجهول ببنية صوتية مماثلة للفعل السابق في القوة والوضوح ، فالدعوة قوية واضحة لا مناص من قبولها ، فرُفِضَت ، وأُصِرّ على إنكارها ، زيادة على أنّ بناء الفعل للمجهول يتسق مع تكذيبهم حاملَ الدعوة إليهم ، وكأن الخطاب يخفي الفاعل إيماءً إلى احتقارهم إياه وتكذيبهم له .

أمّا سياق الترغيب بذكر ما يحصل عليه المؤمنون من عطايا ، فهيمن عليه الفعل المبني للمعلوم ، وكأن المنعم يُكرّم من استحق النعيم بتصديقه وأتباعه دعوة الحق ، بأن

---

(١) ينظر : التفسير الكبير : ٣٤/٢٧
(٢) ينظر : المحتسب : ١٨/٢ ، وشرح الشافية : ١٧٨/٣
(٣) فصلت : من الآية ٤٤
(٤) ينظر : تفسير أبي السعود : ٢٦٨/٧

يقرنه بذكر صاحب العطاء وواهبه (سبحانه) من ناحية ، ويومئ إلى أنّ من اهتدى إلى الحق في الحياة الدنيا يستحق أن يتلذذ بذكر معبوده يوم القيامة ، من ناحية أخرى . وعلى الرغم من ذلك جاء المبني للمجهول في هذا السياق محققاً دلالات معينة . ومنه قوله تعالى : ((ادْخُلُوا الجَنَّة أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ ۞ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۞ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ))[١] ، إذ تصور الآية الكريمة مشهد البشرى تصويراً حسّياً ، فيدخل المبشّرون الجنة طوعاً بأنفسهم ، وكأنهم يعرفون طريقها ، فقد عرفوا طريق الحق في حياتهم الدنيا ، فانعكس ذلك معرفة في الآخرة . وتُتمّم الآية الكريمة صورة معرفتهم بالأفعال المبنية للمجهول (تحبرون ، يُطاف ، أورثتموها) ، فهم يعرفون من أدخل السرور على قلوبهم ، فظهر أثره على وجوههم ، ومن أمر بأن يطاف عليهم بصحاف من ذهب كالملوك، ومن أمكنهم لهذا النعيم[٢] ، لأنهم عرفوه وصدّقوا دعوته في حياتهم من دون أن يروا الغيب أو تنكشف لهم الحجب ، فكيف بعد أن رأوا ووقفوا وقفة الحق ، فانكشف ما وُعدوا به أمام أعينهم .

إنّ تكرار الصوائت في هذه الأفعال ولا سيما الواو القصيرة (الضمة) ، والطويلة (الممدودة) ، يتسق مع دلالة الأفعال المضارعة على التجدد والاستمرار ، فهي أصوات تنماز بشدة الوضوح في السمع ، فمداها أبعد من الصوامت ، لذا تدل على الامتداد إلى الأمام[٣]، فتقوّي امتداد الفعل إلى المستقبل . زيادة على أثرها في النفوس " ذلك لأن صفة امتدادها وتصويتها مع حدّتها جعلتها قادرة على أن تتخطى الأسماع إلى شغاف القلوب ، فتقع في وجدان المتلقي وشعوره موقعاً فيه التأثير البالغ "[٤] .

---

(١) الزخرف : ٧٠ ـ ٧٢
(٢) ينظر : نظم الدرر : ٤٨٤/٧
(٣) ينظر : المحتسب : ١٨/٢ ، والمدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي : ٩١ ، وعلم اللغة ، مقدمة للقارئ العربي : ١٢٦
(٤) الدلالة الصوتية في آي مشاهد القيامة : ١٠

وفي السياق نفسه يبرز قوله تعالى : ((إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ))[١] ، فاستعمال الفعل المبني للمجهول (توعدون) في سياق التبشير يومئ إلى أنّ الفاعل معلوم علماً تاماً ، فصاحب الوعد الصادق بدخول الجنة معلوم لدى المتلقي ، ولا سيما لمن آمن بالغيب والشهادة . وهو يتسق مع دلالة الفعل المبني للمعلوم (تتنزّل) ، الذي يدل على أنّ فاعله لا يفعل الفعل بإرادته ، وهو من هذه الناحية يشبه الفعل المبني للمجهول[٢] ، فتنزّل الملائكة إنّما يكون بأمر ربّها ومشيئته ، ويكون الخطاب بذلك متسقاً مع حال المتلقي أولاً ، ومع السياق الذي ورد فيه الفعلان ثانياً ، إذ ورد في الآية الكريمة أنّ المعنيين بالخطاب قد اعترفوا بالربوبية ثم استقاموا عليها ، ومن ثم فإنّ من لوازم ذلك المعرفة اليقينية بالأفعال المختصة بالربوبية ، ومنها ما ذكر من تنزّل الملائكة ، والوعد بدخول الجنة . ويلحظ أنّ البنية الصوتية للفعلين تتسق مع سياقها الذي وردت فيه ، إذ إنّ تكرار صوت التاء المهموس[٣] يشيع جوّاً من الراحة والطمأنينة ، تناسب حالة دفع الخوف والحزن ، مع ما يضفيه صوت الزاي المجهور الصفيري[٤] من جوٍّ يعطي الغيب طابعاً حسّياً ، وكأنّ للملائكة أزيزاً يسمعه المؤمنون فيزيد فيهم حالة الطمأنينة والسكون . وكذا الحال في بنية الفعل توعدون ، التي تكرر فيها صوت الواو (طويلاً وقصيراً) ، ليعطي امتداداً يقوّي من دلالة الفعل على المستقبل ، ويضفي جوّاً من النداء يثير في نفس المتلقي الراحة بدفع الوحشة ، وكأنّ الصوت يؤنسهم ، ولا سيما أنّ الفعل ختم بصوت النون المجهور مما زاد من وضوح النداء .

وآخر ما يطالعنا من السياقات التي برز فيها استعمال الفعل المبني للمجهول سياق الخطاب النبوي ، خطاب الله (سبحانه) نبيه ، وخطاب النبي قومه ، ومنه قوله تعالى :

---

(١) فصلت : ٣٠
(٢) ينظر : في النحو العربي ، نقد وتوجيه : ١٦٦
(٣) ينظر : الأصوات اللغوية : ٢١
(٤) ينظر : علم الأصوات : ١٢٠

((مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ))[١] ، فالآية الكريمة فيها تسلية لرسول الله (ص) عمّا يُصيبه من أذى الكفار باتهامه وما أنزل إليه اتهامات شتى[٢] ، فجاء استعمال الفعلين المبنيين للمجهول (يقال و قيل) متسقاً مع مقام التسلية ، إذ إنّ فيهما إنزالاً لفاعل الحدث عن مرتبة الاهتمام تحقيراً ، والتركيز على الحدث الذي هو السبب الرئيس لما يلحق الرسول (ص) من غمّ أو ضيق صدر[٣] ، لذا جاء التعقيب بذكر المقول إتماماً لدلالة التسلية والحث على الصبر . وقد يكون المراد " ما قلنا لك إلا ما قلناه للرسل من قبلك "[٤] . وعليه يكون استعمال الفعلين للدلالة على أنّ الفاعل معلوم علماً تاماً ، لأنّ المتلقي (الرسول) على يقين من ذلك ، مع تعظيم أمر المقول بالتشبيه البليغ على معنى : إلا مثل ما قيل للرسل ، وفيه تسلية وحث على الصبر ، لأن الرسل ـ كما يعلمهم الرسول (صلى الله عليه وآله) ـ قد صبروا على ما قيل لهم . إن ما حقق إمكانية القول بالمعنيين هو استعمال الفعلين المبنيين للمجهول ، ففيهما " نظم متين حمّل الكلام هذين المعنيين العظيمين "[٥] . ويبدو أنّ البنية الصوتية للفعلين (يقال ـ قيل) تتسق مع تعظيم الحدث ، فالقول عظيم على المعنيين ، عظيم بما فيه من تجاوز بلغ من السوء أن يسبب ضيقاً وغمّاً لنبيٍّ من أولي العزم ، بل هو أكثرهم عزماً وصبراً ، وعظيم لأنه قول الله (سبحانه) ، لجميع رسله . فصوت القاف شديد مستعلٍ تلته أصوات المدّ (الألف والواو) ، التي تحدث احتكاكاً مسموعاً عند نطقها ، جعلها أشد الأصوات اللغوية وضوحاً[٦] . ومن ثم جاء صوت اللام المجهور الذلقي الذي ينماز بوضوحه أيضاً ، وهي بنية صوتية تضفي قوة وفخامة على الحدث .

---

(١) فصلت : ٤٣
(٢) ينظر : تفسير أبي السعود : ١٦/٨
(٣) ينظر : نظم الدرر : ٣٦٦/٧
(٤) التحرير والتنوير : ٣١٠/٢٤
(٥) المصدر نفسه
(٦) ينظر : محاضرات في اللسانيات : ٩٦

وفي السياق نفسه يبرز قوله تعالى : ((قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ))[١] ، فالآية الكريمة تنهى عن أمرٍ عظيم ، وتثبت أمراً عظيماً ، بالقول الدال على التخويف والتحذير ، من خلال تخصيص النهي والأمر برسولٍ نُهي وأمر تكوينياً ، إذ إنّه لم يسجد لصنم قط ، " وكان ذلك مصرفة من الله تعالى إياه عن ذلك إلهاماً إلهياً إرهاصاً لنبوته"[٢] . وجاء النهي والأمر بفعلين مبنيين للمجهول (نُهيتُ وأُمِرْتُ) لتتسق دلالتهما مع فداحة المنهي عنه وهو عبادة غير الله (سبحانه) وعظمة المأمور به ، وهو الاستسلام لله وحده ، من خلال التركيز على الحدث تعظيماً له ، والاهتمام بالذي أسند إليه ، دليلاً عقلياً لحثهم على ترك ما نهوا عنه وإتباع ما أمروا به ، على معنى " فإذا كنت أنا منهياً عن ذلك فتأملوا في شأنكم ، واستعملوا أنظاركم فيه ، ليسوقهم إلى النظر في الأدلة سوقاً ليّناً خفيّاً لإتباعه فيما نُهي عنه "[٣] .

وفيهما إيماءٌ إلى أنّ الآمر والناهي معلوم للمخاطب (الرسول) ، على سبيل التسليم البَدَهي الذي لا يحتاج ذكراً ، ويبدو أنّ في ذلك نوعاً من مقابلة الشك أو الإنكار باليقين الدال على قوة ثبوت الإيمان، الذي يكون وسيلة من وسائل التبليغ ، فالمنكر إذا وجد الداعيَّ مصرّاً على دعوته كان ذلك مدعاة إلى التفكر والتبصر .

إنّ البنية الصوتية للفعلين توحي بقوة الحدث (النهي والأمر) ، فصوت النون المجهور المتوسط الشدة شكل بضمّه مقطعاً صوتياً قصيراً مفتوحاً ، يومئ إلى شدة تأثير الحدث في نفس المتلقي ، ولا سيما أنّه تُلي بمقطع طـويل مفتوح ، تكون من صوت الهاء المهموس وصـوت المد (الياء) اللذين يعكسان الشعور بالانصياع للنهي ، وتمكّنه من القلب من خلال خروج الهواء من الجوف عند نطقها .

أمّا الفعل (أُمِرْتُ) فابتدأ بصوت الهمزة الشديد المقطوع الذي يوحي بقطعية الأمر وحسمه ، والمتحرك بالضمة الثقيلة التي تحكي ثقل الأمر وعظمته ، فشكلا مقطعاً قصيرً

---

(١) غافر : ٦٦
(٢) التحرير والتنوير : ١٩٦/٢٤
(٣) المصدر نفسه

مفتوحاً يومىء إلى امتداد الأمـر وانكشافه . تلاه مقطع قصير يبدأ بصـوت الميم المجهـور الذلقي الـذي ينماز بخفته على اللسان موحـياً بقوة الأمـر مـع خفته على الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ، وقـد أغلق بصوت الـراء المجهـور ذي الطبيعة التكـرارية الذي يوحـي بتكرار الحدث (الأمر) واستمراره مـع قوته . واللافت أنّ الفعـلين ختما بصـوت التاء المهموس الشديد الـذي يعزز بهمسه معنى الاستجابة والقبول ، وبشدته تمكنها مـن نفس الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) .

الفصل الثاني

في بنية الأسماء

أبنية المصادر

تعددت تعريفات اللغويين للمصدر ، ولكنّها ركزت على مفهومين رئيسين ، يبدو أنّ التركيز عليهما ينطلق من العلائق الوثيقة بين المصدر والفعل من جهة ، والمصدر والاسم من جهة أخرى . فمن جهة الفعل ركّزوا على مفهوم الحدث الذي يشترك المصدر معه في الدلالة عليه ، فالمصدر عند الرمّاني هو " اسم لحادث يوجد فيه الفعل "(١)، وقال ابن هشام: " هو اسم الحدث الجاري على الفعل كضرب وإكرام "(٢) . والمفهوم الآخر ، هو الاسمية التي برزت في التعريفين السابقين ، لذا جهدوا في التفريق بينه وبين الفعل من خلال تجريده من الدلالة على الزمن ، التي هي من خصائص الأفعال . وذهبوا إلى تقييد دلالته وقصرها على الحدث فحسب ، للتفريق بينه وبين الأسماء التي هو من جنسها ، فقالوا هو الاسم الذي يدل على الحدث مجرّداً من الزمن والمكان والشخص(٣) ، فالتجرد عن الشخص يميزه عن الأوصاف ، كاسم الفاعل واسم المفعول ، والتجرد عن المكان يفرّق بينه وبين اسم المكان .

ولا شكّ في أنّ صفات الاسمية التي يتسم بها المصدر ، وعلاقته بالفعل ، قد أكسباه مرونة كبيرة دفعت إلى استعماله في مواضع عديدة ، وفي دلالات مختلفة ، وجعلت من السهولة بمكان أنّ يتناغم مع السياقات المختلفة ، فالمصدر " لفظ واسع الدلالة ، كثير تداوله في الكلام ، لأنّ فيه من الاسم والفعل خصائص ومعاني عدّة "(٤) .

ولكلّ بناء من أبنية الأفعال مصدر ، ولكن قد تتعدد مصادر الفعل الواحد ، ولا سيما الثلاثي منها ، إمّا لاختلاف العرب في استعماله ، قال الصيمري : " واعلم أنّ مصادر الأفعال الثلاثية كثيرة الاختلاف ، لا تكاد تجيء على قياس مستمر ، وذلك لكثرة الثلاثي في نفسه ، فكلّما كثر الشيء في نفسه كثر التصرف فيه "(٥) ، وإمّا لاختلاف دلالته من بناء

---

(١) رسالتان في اللغة : ٩٦ ، وينظر : شرح الحدود النحوية : ٨٨
(٢) شرح شذور الذهب في مقدمة كلام العرب : ٤٩١/١ ، وينظر : شرح قطر الندى وبل الصدى : ٢٦٠/١
(٣) ينظر : أبنية الصرف في كتاب سيبويه : ٢٠٨ ، والمنهج الصوتي للبنية العربية : ١٠٩
(٤) نحو القرآن : ٦٨
(٥) التبصرة والتذكرة : ٧٥٨/٢

لآخر[١] . أمّا مصادر الأفعال التي جاوز بناؤها ثلاثة أحرف فالغالب فيها أن تكون على قياس واحد ، قال المبرد : " وإنّما استوت المصادر التي تجاوزت أفعالها ثلاثة أحرف ، فجرت على قياس واحد ، لأنّ الفعل فيها لا يختلف ، والثلاثة مختلفة أفعالها الماضية والمضارعة ، فلذلك اختلفت مصادرها ، وجرت مجرى سائر الأسماء "[٢] .

وقد تعددت المصادر في سور الحواميم المباركة وفي سياقات متعددة ، وكان لسعة دلالتها وتصرفها وتنوع أبنيتها الأثر البارز في تحقيقها دلالات متنوعة تناغمت مع تلك السياقات . ومن أبنيتها :

بنْية فَـعْـل :

ومنه قوله تعالى : ((هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ))[٣] ، فالحمْد مصدر الفعل حَمَد ، وقد جاء في سياق إثبات وحدانية الله (سبحانه) على صعيد التوحيد الأفعالي بذكر أفعال القدرة الإلهية ، وتوحيد الصفات تمهيداً للأمر بإتباع سبيل الحق ، وهو تخصيصه بالعبادة على وجه التضرع والانكسار والخضوع، ومن ثم حمدهُ على التوفيق لذلك[٤]، وقد عبر عنه بالمصدر لدلالته على الثبوت والتوكيد ، زيادة على الاختصار الذي يحققه استحضار معنى الفعل ، ولا سيما " أنّ أصله النصب الذي هو قراءة بعضهم بإضمار فعله على أنّه من المصادر التي تنصبها العرب بأفعال مضمرة في معنى الإخبار ، كقولهم : شكراً ، وكفراً ، وعجباً ، وما أشبه ذلك ، ومنها : سبحانك ، ومعاذ الله ، ينزلونها منزلة أفعالها ويسدّون بها مسدّها ، لذلك لا يستعملونها معها ويجعلون استعمالها كالشريعة المنسوخة "[٥] ، وفيه تساوق مع سياق التعظيم بذكر صفاته وأفعاله ، فالمخصوص بهذه الأفعال والصفات (سبحانه) يستحق من

(١) ينظر : معاني الأبنية : ١٨- ١٩
(٢) المقتضب : ١٢٤/٢ ، وينظر : شرح ابن عقيل : ١٢٣/٢
(٣) غافر : ٦٥
(٤) ينظر : تفسير الطبري : ٨٠/٢٤-٨١
(٥) الكشاف : ٥٣/١

عباده حمداً ثابتاً في نفوسهم ، تفيده دلالة المصدر على الثبوت لكونه اسماً ، ومتحركاً في جوارحهم من خلال استحضار دلالة الفعل على الحدث فيه ، ولكن على سبيل الإنابة ، لتحقيق معنى المبالغة ، وكأنّ الحامد مخلوق من فعل الحمد ، لكثرة تعاطيه له واعتياده عليه[١] .

وقد تعززت دلالة الثبوت في الحمد بالوظيفة النحوية ، إذ رفع على الابتداء للدلالة على ثبات المعنى واستقراره ، قال الشوكاني : " هو مرتفع بالابتداء وخبره الظرف ، ... لقصد الدلالة على الدوام والثبات المستفاد من الجملة الاسمية ، دون الحدوث والتجدد اللذين تفيدهما الجملة الفعلية "[٢] . زيادة على أنّ في استعماله دلالة على العموم المستفاد من تعريفه أولاً ، أي محمود بأجناس الحمد كلها ، ومن الابتداء به بتغيير أسلوب الخطاب من الأمر المتحقق بالفعل (فادعوه) إلى الاسمية التي تحققت به ثانياً ، فقطع الخطاب الفعلي والابتداء بالمصدر كأنّه يومئ إلى أنّ الحمد ليس مرتبطاً بما ذكرته الآية الكريمة ، بل بكل آثاره المترتبة عليه ، أي ما ذُكر قبل الآية الكريمة وما بعدها ، بل بكل صفاته ونعمه (سبحانه). وبخاصة أنّ المتلقي لا يؤمن أصلاً بالصفات الغيبية التي ذكرتها الآية أو يشكك بها ، أي صفة ديمومة الحياة (هو الحيّ) ، وصفة التوحيد (لا إله إلا هو) ، لذا أومأ الخطاب بالمصدر إلى عموم الصفات والنعم ، ولا سيما الحسيّة منها التي ذكرتها السورة المباركة .

ومنه قوله تعالى : ((أُوْلَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ))[٣] ، فالسياق في الآية الكريمة سياق ترغيب وتبشير بتقبل طاعات الذين آمنوا ، والتجاوز عن سيئاتهم ، وما دام الوعد من الله فهو في حيز الوقوع لا محالة ، قال تعالى : ((إِنَّ اللّهَ لاَ يُخْلِفُ الْمِيعَادَ))[٤] ، لذا جاء المصدر (وَعْد) واقعاً موقع فعله نائباً عنه ، فهو " مصدر لفعل مقدر وهو مؤكد لمضمون

---

(١) ينظر : الخصائص : ٢٥٩/٣
(٢) فتح القدير : ١٩/١
(٣) الأحقاف : ١٦
(٤) الرعد : ٣١

الجملة قبله "[١] ، وإنّما تنوب المصادر عن الأفعال للدلالة في بلوغ المعنى أقصى غايته مبالغة وتوكيداً باستحضار دلالة الثبوت الاسمية للمصادر ، ودلالة الحدث الفعلية ، إذ " فيه اختصار مع إعطاء معنى التوكيد ، لأنّك تذكر المصدر وتدل على الفعل بالنصبة التي فيه "[٢] . ولا شكّ في أنّ التوكيد والمبالغة في المعنى تتناغم مع هذا السياق ، إذ إنّ السياق سياق تعظيم ابتدأ باسم الإشارة (أولئك) الذي يفيد تعظيم أمر المشار إليهم ، وزيد تعظيمهم بوصفهم بقبول الإعمال بالموصول الذي صلته فعل مسند لله (سبحانه) ، بضمير الجماعة المدلول عليه بنون (أنيت) ، لذا جاء استعمال المصدر إكمالاً لصورة التعظيم بإثبات قبول الأعمال وتجاوز السيئات ، وزيدت بإضافة المصدر إلى لفظ (الصدِق) ترسيخاً لمعنى تحقق الوعد ، لـ " أنّنا نستطيع أن نحدد معنى الكلمات بموجب ارتباطها بالكلمات الأخرى "[٣] . ومما زاد في وضوح هذه الدلالات أنّ صوت العين صوت مجهور موصوف بقوته[٤]، وقد تكرر في الآية الكريمة خمس مرات ، كان متحركاً في كل الألفاظ التي ورد فيها إلا في المصدر ، فأضفى عليه التسكين في بنية المصدر وضوحاً وقوة ، فسكونه ولّد امتداداً في نطقه أضاف تركيزاً على الحدث الذي عبّر عنه ، وجعله محور ألفاظ الآية ، فالوعد قويّ وواضح ومعظّم ، كأنّه يوحي بصوت الواعد الصادق الذي يدخل الطمأنينة في نفوس المتلقين ، ويتسق مع عظيم فعلهم الذي استحقوا عليه هذا الوعد الثابت .

ومنه قوله تعالى : ((وَاتْرُكْ الْبَحْرَ رَهْواً إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ))[٥] ، إذ جاء المصدر (رهواً) في سياق ذكر معجزة نبوية حدثت لموسى (ع) ، فأمر بضرب البحر بعصاه ليتجاوزه وأصحابه ، ومن ثم يتركه كما هو ليغرق آل فرعون ، وقد عبّر عن ترك البحر ساكناً أو منفتحاً أو طريقاً يابساً[٦]بلفظ المصدر (رهواً) ، لتحقيق دلالات تتناغم مع سياق تعظيم الحدث من ناحية ، ومع توكيده تطميناً لموسى (ع) بحتمية نجاته وقومه ، وإهلاك آل

(١) روح المعاني : ٢٠/٢٦ ، وينظر : فتح القدير : ١٩/٥
(٢) الكشاف ٣١٩/٤
(٣) علم الدلالة : جون لاينز : ٧٧
(٤) ينظر : العين : ٣٥٧/١
(٥) الدخان : ٢٤
(٦) ينظر : تفسير مجمع البيان : ٨٠/٩

فرعون من ناحية أخرى . ومن دلالاته الثبوت الذي تفيده اسمية المصدر ، أي اترك البحر ثابتاً على حاله لن يتغيّر حتى يتحقق إغراق فرعون وقومه ، ففي هذا الثبوت دلالة التوكيد للحدث الذي استحضر من خلال المصدر . وفيه مبالغة بالعدول من اسم الفاعل إلى المصدر ، فهو فَعْل بمعنى فاعل ، " وهذا الباب بجملته لا يقصد به إلا المبالغة في إيراد المعاني "(١)، إذ إنّ استعمال المصدر في هذا المقام يفيد الثبوت في الحدث والمبالغة فيه، وكأنّ البحر صار مخلوقاً من ذلك الحدث (الرهو) مجرداً عن ذاته التي تخالف حاله الذي طوعه الله سبحانه فخضع لقدرته ، فحال البحر الهيجان والأمواج العالية التي تنتج عن أي تغيير يطاله ، كالريح أو حجب المياه ، ولكنّ القدرة الإلهية حولته إلى ما تريد . ونلحظ أنّ الجرس الذي أضفاه التركيز على صوت الهاء بسكونه جرس هادئ ، فصوت الهاء مهموس ضعيف رخوّ يومئ إلى سكون البحر وضعفه وانصياعه للأمر الإلهي .

ومما ورد من هذا البناء قوله تعالى : ((فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۞ أَمْراً مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ))(٢)، فـ (أمْراً) مصدر على زنة (فَعْل) ، تناغم استعماله مع سياق التعظيم في الآيات الكريمة ، تعظيم الليلة المباركة ، وما أنزل فيها ، وما يفرق فيها ، " أي فيها تفرق أمور عظيمة "(٣) ، إذ إنّ فيه مبالغة من وجوه ، الأول : تضمنه معنى الدلالة الإفرادية ، لأنّها تدل على الثبوت الذي هو من خصائص الاسمية ، وهي ـ أي الإفرادية ـ بمثابة مادة أولية لا غنى للمتكلم عنها في التعبير عن المعاني والمقاصد(٤) ، والثاني : استحضار معنى الفعل بدلالة على الحدث على وجه الطلب والتكليف مع الاستعلاء الذي يُفيده الأصل الواحد في مادة (أمَرَ)(٥) ، وهذا الاستحضار يعطي حركية في دلالة الأمر المسند إلى الله (سبحانه) ، ففيه تقدير وتدبير ، والثالث : تكراره زيادة في الجزالة

---

(١) المثل السائر : ٥٧/٢
(٢) الدخان : ٤ـ٥
(٣) التحرير والتنوير : ٢٨٠/٢٥
(٤) ينظر : الإعجاز الصرفي في القرآن الكريم : ٤٩
(٥) ينظر : التحقيق في كلمات القرآن الكريم : ١٥٨/١

والتفخيم[١] ، والرابع : تصرفه من حيث الوظيفة النحوية ، إذ جاز أن يكون اختصاصاً بأن " جعل كلّ أمر جزلاً مفخماً ، بأن وصفه بالحكيم ، ثم زاده جزالة وفخامة بأن قال : أعني بهذا الأمر أمراً حاصلاً من عندنا ، كما اقتضاه علمنا وتدبيرنا "[٢] ، وجاز أن يكون حالاً على سبيل المبالغة ، أي : آمرين أمراً . وغيرها من الوجوه المحتملة التي وصلت إلى اثني عشر وجهاً[٣] . ويبدو أنّ البنية الصوتية لهذا المصدر تعاضد دلالاته السابقة ، فهيمنة صوت الهمزة الانفجاري المقطوع الخارج من الحنجرة يشير إلى قوة هذا الأمر وفخامته وقطعية حدوثه ، وبخاصة أنّ المقطع الذي شكل بدايته قد أقفل بالميم ، وهو صوت مؤثر في المتلقي بصفات الجهر والغنة والخفة ، وهي صفات تضرب لها أوتار قلوب المتلقين ، وتعزز فيها مشاعر الرهبة والترقب[٤] . وكذا الحال في المقطع الآخر الذي ابتدأ بصوت الراء وأُقفل بالنون الساكنة ، وهما من الأصوات المذلقة السهلة النطق التي تضفي إيقاعاً سريعاً يعزز من دلالات الفخامة والحسم والحركية .

ومنه قوله تعالى : ِ))نَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ))[٥] ، إذ إنّ السياق سياق تهديد ووعيد بحتمية المعاد ووقوف المعاندين للحساب ، وقد عُبّر عن يوم الحساب بإضافة اليوم إلى لفظ (الفصل) على سبيل الوصف مبالغة في وصفه ، لأنّ المضاف والمضاف إليه شيء واحد ، وزيد في المبالغة بأن كان هذا اللفظ مصدراً ، وهذا يعني أنّ اليوم بجملته ليس إلا فصل ، أي " إبانة أحد الشيئين من الآخر "[٦] ، زيادة على ذلك يدل (الفصل) على معنى التسمية بالمصدر ، وهي من الاستعمالات الكثيرة في الصيغ الاسمية ، فالمراد بالفصل (يوم القيامة) ، وهو من أسمائه المشهورة[٧] ، وفيها مبالغة ، وكأنّ عين ذلك اليوم فصل من دون أن تشاركه صفة فيه ، فاستعمال المصدر في هذا المقام فيه دلالة على استحضار الحـدث واستمراره والمبالغة فيه ، ولا سيما أنّ صيغة (فَعْل) من أوزان

---

(١) ينظر : الكشاف : ٢٧٥/٤
(٢) تفسير النسفي : ١٢٣/٤
(٣) ينظر : البحر المحيط : ٣٤/٨ ، وفتح القدير : ٥٧٠/٤ ، وزاد المسير : ٣٣٨/٧
(٤) ينظر : الدلالة الصوتية في آي مشاهد القيامة : ١٠٠
(٥) الدخان : ٤٠
(٦) مفردات ألفاظ القرآن : (فصل) : ٦٣٨
(٧) ينظر : التحرير والتنوير : ٣١١/٢٥

المبالغة [١] . وممّا تقدم يتضح أنّ استعمال (الفَصل) في هذا المقام فيه مبالغات من حيث البناء ، تتساوق مع سياق تعظيم المعاد من ناحية ، وسياق إنكاره من المعنيين بالخطاب القرآني من ناحية أخرى . وفي التعبير بالمصدر في هذا السياق اتساق مع دلالة العموم التي يفيدها معنى الفصل معرّفاً بـ (ال) ، فقوة معناه تناسب دلالته على العموم ، فهو يعني أن " يفصل الله فيه بين أهل الجنة وأهل النار ، والثاني يفصل في الحكم والقضاء بين عباده ، الثالث أنّه في حق المؤمنين ،... بمعنى أن يفصل بينه وبين كلّ ما يكره ، وفي حق الكفار بمعنى أنّه يفصل بينه وبين كل ما يريده ، الرابع أن يظهر حال كلّ أحد كما هو ، فلا يبقى في حاله ريبة ولا شبهة "[٢] .

ولعل صوت الصاد الساكن بفخامته وإطباقه واستعلائه وصفيره قد ساهم في خلق جرس صوتي ، يميل بشكل كبير إلى تقوية الحدث ، والمبالغة فيه ، والقطع بحدوثه ، فاصلاً بين المتنازعين . وقد تعضّد ذلك بالأصوات التي هيمنت على الآية الكريمة هي أصوات الذلاقة (النون والميم واللام) ، التي تتماز بخفتها وسهولة نطقها[٣]، فأضفت قوة على الحدث من خلال الإيماء إلى سلاسة حدوثه ، فهو الطريق النهائي الذي لا مرد له .

وممّا يرتبط بهذا السياق وبالدلالات ذاتها قوله تعالى : ((وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ))[٤] ، فكلمة الفصل تعني " القضاء والحكم السابق منه تعالى بتأخير العذاب إلى يوم القيامة ، أو إلى آخر أعمارهم "[٥] .

ومن صيغة (فَعْل) المصدرية قوله تعالى : ((وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ))[٦] ، إذ استعمل المصدران (خلق ، جمعهم) في سياق التوحيد الأفعالي بذكر أفعال القدرة الإلهية إثباتاً لربوبيته (سبحانه) ،

---

(١) ينظر : الإعجاز الصرفي في القرآن الكريم : ١٧٤
(٢) التفسير الكبير : ٢١٤/٢٧
(٣) ينظر : تهذيب اللغة : ٥٠/١ ، وجهود علماء العرب في الدراسة الصوتية : إبراهيم أنيس ، مجلة مجمع اللغة العربية ، ج١٥ ، ١٩٦٢ : ٤٥
(٤) الشورى : من الآية ٢١
(٥) روح المعاني : ٢٨/٢٥
(٦) الشورى : ٢٩

وفي هذا الاستعمال تناسق بين قوة دلالة المصدر على الحدث وثبوته وبين عظمة هذه الأفعال واستقرارها " على ما هي عليه من تعاجيب الصنائع ، فإنّها بذاتها وصفاتها تدل على شؤونه تعالى العظيمة ، ومن له أدنى إنصاف وشعور بحزم باستحالة صدورها من الطبيعة العديمة الشعور "[١]. وكذلك جمع ما خلق (سبحانه) دابّا متناثراً في سمواته وأرضه ، فهذا الجمع فيه من إعجاز الحدث وعظمته والدلالة على حتمية حدوثه من دون حركة أو فعل ما يتساوق مع دلالة المصدر تأكيداً وثبوتاً ، باستحضار الحدث ساكناً غير متحرك حركة فعله ، وهو ما يتسق مع قوله تعالى : ((إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ))[٢]. وإذا تأملنا في بنية الفعلين الصوتية نجد أنّ سكون عينهما يعني التركيز على نطق صوتي (اللام والميم) الذلقيين الخفيفين في النطق ، مما يومئ إلى عظمة الفاعل من خلال سهولة حصولهما التي تعكسها سهولة نطق هذين الصوتين ، فسهولة خلق السماوات والأرض وجمع ما بُثّ فيهما يوحي بعظمة الخالق وقدرته . واللافت للنظر أنّ اللام شكّلت في المصدر (خَلْق) قفل المقطع الصوتي الطويل المغلق الذي ابتدأ بصوت الخاء المهموس الرخو (خَلْ) ، تلاه المقطع نفسه وبصوتين مهموسين (القاف والسين) ، (قُس) ، واجتماع هذه الأصوات بصفاتها الضعيفة يؤكد سهولة الحدث على فاعله (سبحانه). على حين جاء المقطع القصير الذي أغلقه صوت الميم في المصدر (جمعهم) مبدوءاً بصوت الجيم المجهور الشديد ، وأردف بصوت العين المجهور الشديد ، الأمر الذي يوحي بقوة الحدث وشدته أكثر من المصدر الأول ، على الرغم من أنّ آيات خلق السماوات والأرض أعظم إعجازاً من آية الجمع ، ويبدو أنّ ذلك مرتبط بمراعاة حال المتلقي الذي ينكر البعث والنشور الغيبي ، ولا ينكر عائدية الخلق لله (سبحانه) ، قال تعالى : ((وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ))[٣] ، لذا جاء استعمال المصدر(جمع) بأصواته القوية لتقوية الحدث المُنكَر وتمكينه من نفس المتلقي .

---

(١) روح المعاني : ٣٩/٢٥
(٢) يس : ٨٢
(٣) الزخرف : ٩

بِنْية فِعْل :

وهي من أوزان الثلاثي المجرد السماعية[١] التي كثر ورودها في سور الحواميم ، وأبرز ما جاء منها لفظ (علم) ، مصدر (عَلِمَ) ، وفي سياقات تتسق مع قوة دلالة المصدر على معنى الحدث ، فجاء مقترنا بلفظ الساعة ، مضافاً إليها ، أو مجروراً بحرفي الجر (من وعلى) . ومن سياقات وروده ما يتعلق بإثبات المعاد الغيبي الذي هو من أبرز القضايا التي أنكرت ، بل أُصرّ على إنكارها ، ولا سيما في بواكير الدعوة الإسلامية التي حرصت سور الحواميم القرآنية على التركيز عليها ، بعدّ أنّ العقول ترتبط بالجوانب المحسوسة ، وتشكك بالأمور الغيبية . ومما ورد منها قوله تعالى : ((إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ))[٢] ، إذ إنّ السؤال عن توقيت يوم القيامة استفهاماً معرفياً أو إنكارياً من القضايا التي كثر الجدل فيها ، لذا تكرر ذكرها إثباتاً لوقوعها ونفياً لتوقيتها في القرآن الكريم ، فتوقيتها من مختصات الله سبحانه ، ومن أدلة توحيده[٣] ، لذا عُبر عنها في الآية الكريمة بالمصدر الدال على المعرفة على وجه الثبوت والتوكيد والمبالغة التي تفيدها المصدرية من خلفية اسميتها ودلالتها على الحدث ، إثباتاً لحصرية علمها بالله سبحانه ، " أي إذا سئل عنها قيل الله تعالى يعلم أو لا يعلمها إلا الله عزّ وجلّ "[٤] ، لذا قُرن علم الساعة في الآية الكريمة بما يراه الإنسان مراراً ويجهل كنهه ، فهو ظاهر محسوس بنتائجه غائب في تفاصيله وعلله زيادة في ترسيخ الغيب حسياً في عقول المتلقين ، " والساعة غيب عائد في ضمير المجهول ، والثمرات في أكمامها سرّ غير منظور ، والحمل في الأرحام غيب كذلك مستور ، وكلها في علم الله ، وعلم الله بها محيط "[٥] . لذا نجد أنّ في صفات القوة والوضوح لأصوات بنيته إلماحة إلى تقوية الحدث وتأكيده ، فالعين صوت مجهور موصوف بقوته[٦] ، أمّا اللام والميم فهما

---

(١) ينظر : التكملة : ٣٣٤/٥
(٢) فصلت : ٤٧
(٣) ينظر : الميزان : ١٧٣/١٧
(٤) روح المعاني : ٢/٢٥
(٥) في ظلال القرآن : ٣١٢٩/٥
(٦) ينظر العين : ٣٧٥/١

صوتان مجهوران ذلقيان ، ينمازان بقوتهما ووضوحهما ، زيادة على أنّ ما يحصل في نطقهما من انسداد كامل لمخرج الصوت ، لينحرف الهواء إلى أطراف اللسان في اللام ، والى الأنف في الميم يومئ إلى انحباس معرفة الساعة بالله (سبحانه) من دون غيره . كما أنّ التعبير بالمصدر على وجه الثبوت والتوكيد والمبالغة فيه إيحاء بترسيخ دور العقل في موازنة الأمور وحسمها بالنسبة للإنسان ، لأنّ معلول لفظ (علم) مرتبط بالعقل لا بالهوى والغرائز . ومنه قوله تعالى : ((وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ))[١] . وقوله تعالى : ((وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ))[٢] .

أمّا استعماله مجروراً بـ (على) ، فجاء في سياق يقتضي تعظيماً وتوكيداً ، ومنه قوله تعالى : ((وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ))[٣] ، فالتعظيم في الآية الكريمة يبتدئ بالاختيار ، إذ أُكد باللام وقد ، وعُظّم بالوحدة الصرفية المزيدة (اخترناهم) ، التي أسندت إلى الضمير (نا) الذي يفيد التعظيم ، " أي فعلنا بما لنا من العظمة في جعلنا لهم خياراً فعل من اجتهد في ذلك "[٤] ، وجاء الاختيار مستعلياً (على علم) ، ليتساوق مع ما يفيده المصدر من دلالة على ثبوت الحدث والمبالغة فيه ، لأنّه يدل في الغالب على مجرد الحدث المطلق من دون تقييد بزمن معين ، " والمصادر لا تدل على الزمن من جهة اللفظ ، وإنّما الزمان من لوازمها وضروراتها "[٥] . فدلالة المصدر على الحدث دلالة مطابقة ، بمعنى أنّ الحدث هو كل معنى المصدر، وليس جزءاً منه ، فتكون دلالته عليه على وجه المبالغة . على عكس الفعل الذي تكون فيه الدلالة على الحدث دلالة تضمنية ، بمعنى أنّ الحدث جزء من معنى الفعل ، إذ يشاركه فيه الزمن[٦] . لذا إنّ الثبوت والمبالغة اتسقا مع سياق التعظيم لموسى الذي جرت على يديه معجزة إهلاك فرعون وقومه ، وكأنّ الخطاب

---

(١) الزخرف : ٨٥
(٢) نفسها : ٦١
(٣) الدخان : ٣٢
(٤) نظم الدرر : ٧/٨
(٥) شرح المفصل : ٥٠/١
(٦) ينظر : البحث النحوي عند الأصوليين : ١٤٤

القرآني يقول للمتلقي لا تعجب مما جرى لأنّنا اخترناهم لعلمنا بحالهم ، أو على معنى أنّهم عالمو زمانهم[١] ، فاستحقوا إكرام الله لهم ، وتصديق المتلقي لرسالتهم . ويبدو جلياً أنّ صوتي العين واللام قد هيمنا على أصوات الآية الكريمة ، وهما صوتان مجهوران متوسطا الشدة ، أضفيا جرساً قوياً وواضحاً ، فيه إلماح إلى تعظيم معنى الحدث والمبالغة فيه .

وجاءت هذه الصيغة في قوله تعالى : ((أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ))[٢] ، فالمصدر (عِلْمْ) المجرور بـ (على) تتسق دلالته على الحدث على وجه الثبوت والتأكيد مع فداحة فعل مـن خالف ربّه بإتباع هـواه ، الذي جاء متعجباً منه بالاستفهام تعظيماً لسوء فعله ، والمعنى أنّ الموصوف يستحق ذلك لأنّ الله (سبحانه) على علم ثابت مؤكدّ أنّ جوهر روحه لا يقبل الصلاح ، لذا قابله بما يليق بجوهره وماهيته[٣] . أو على معنى أنّ العلم منسوب إلى الضال ، أي " إنه يعلم أنّ له إلهاً يجب أن يعبده ـ وهو الله سبحانه ـ لكنّه يبدله من هواه ، ويجعل هواه مكانه فيعبده ، فهو كافر بالله سبحانه على علم منه "[٤] . وما يلفت النظر أنّ الحديث عن الموصوف بإتباع هواه هيمنت عليه أصوات الهمس والرخاوة إيحاءً بضعف نفسه وهوان ما اتخذ من آلهة ، وفي مقابل ذلك جاء المصدر (علم) بأصواته المجهورة القوية (العين واللام والميم) فأضفى قوة وتأكيداً ووضوحاً ، يتسق مع قوة الحدث الذي هو علة لفداحة الضلالة ، سواءً أكان منسوباً لله (سبحانه) أم للواقع في شرك الضلالة .

ووردت صيغة (علم) مجرورة بـ (من) في سياقات اشتركت بعظمة الحدث فيها ، كعبادة الملائكة من دون الله ، أو إنكار القيامة ، ومنه قوله تعالى : ((وَقَالُوا لَوْ شَاء الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم مَّا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ))[٥] ، وقوله تعالى : ((وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ))[٦]

---

(١) ينظر : التفسير الكبير : ٢١٢/٢٧-٢١٣
(٢) الجاثية : من الآية ٢٣
(٣) ينظر : التفسير الكبير : ٢٣١/٢٧
(٤) الميزان : ٢٤٩/١٨
(٥) الزخرف : ٢٠
(٦) الجاثية : ٢٤

، فالمصدر (علِمْ) المجرور بـ (من) التي تفيد الجنس ، أي عموم ما يدخل تحت مفهوم العلم ، سواء أكان حضورياً ، أي بحضور المدرك وهو النفس أو الذات وإحاطته على ذات المدرك ، أم حصولياً ، وهو ما يكتسب بالنظر والفكر والعلوم المتداولة(١)، جاء منفياً عن اتصافهم به نفيا استغراقياً ، أكده استعمال المصدر على وجه الثبوت والمبالغة اللذين يفيدهما(٢)، لذا وصفوا بالكذب لادعائهم ما يمكن أن يكون علماً يدرك بالعقل ، وهو أن قالوا : لــو يشاء الله عدم عبادتهم مـا عبدناهم(٣) ، ووصفوا بالظن الــذي هو نقيض اليقين الذي يفيده العلم فــي أحــد مدلولاته زيادة فــي تأكيد نفي العلم عمّا يدّعون .

ومما جاء من هذه الصيغة المصدرية قوله تعالى : ((فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاء أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ))(٤) ، فالآية الكريمة تكمل ذكر أفعال القدرة الإلهية دليلاً على توحيده الأفعالي ، وتخص المصابيح بإخبار على وجه التعظيم ، تدل عليه قرائن لغوية منها : إسناد فعل التزيين إلى ضمير العظمة (نا) الذي مثل التفاتا من الغيبة إلى التكلم أفاد مزيداً من التفخيم(٥) . وفي هذا السياق يأتي استعمال المصدر (حفِظا) على زنة (فِعْل) تعبيراً عن وظيفة أخرى للمصابيح (النجوم) غير زينة السماء المعبّر عنها بالفعل (زيّنا) ، ويبدو أنّ استعمال المصدر في هذا الموضع يفيد المبالغة والتوكيد في التعبير عن تلك الوظيفة بياناً لأهميتها وخطرها الذي يتجاوز مجرد الزينة من ناحية ، أيّ " حفظناها حفظاً ، يعني من الشياطين الذين يسترقون السمع ، فأعد لكل شيطان نجماً يرميه به ولا يخطئه ، فمنها ما يحرق ، ومنها ما يقتل ، ومنها ما يجعله مخبلاً "(٦) . ومن ناحية أخرى يستفاد من هذا الاستعمال مراعاة حال المتلقي المنكر للغيبيات التي لا يدركها بحسه ، فقد أنكر من وُجّه إليهم الخطاب القرآني كلّ ما يتعلق بهذا الغيب ، وعلى رأسه معرفة الله وتوحيده والإيمان

---

(١) ينظر : التحقيق في كلمات القرآن الكريم : ٢٥٣/٨
(٢) ينظر : نظم الدرر : ٤٥٢/٧
(٣) ينظر : فتح القدير : ٥٥٠/٤
(٤) فصلت : ١٢
(٥) ينظر : تفسير أبي السعود : ٧/٨
(٦) التفسير الكبير : ٩٤/٢٧-٩٥

باليوم الآخر ، لذا لا يستسيغ هذا المنكر أن يكون الغيب ـ وهو هنا (وظيفة الحفظ) ـ دليلاً على الغيب ، لذا جاء التعبير بالمصدر إثباتا مؤكّداً ومبالغاً في معناه ترسيخاً لهذه الوظيفة العظيمة في ذهن المتلقي المنكر الجاحد . على عكس التعبير عن الوظيفة المُدركة بالحس (تزيين السماء) التي يراها الإنسان في كل ليلة ، فقد جاء ذكرها معبراً عنه بالفعل . ولا شكّ في أنّ التعبير بالمصدر أثبت وآكد وأكثر مبالغة في إتمام المعنى[١] ، مما يجعل الخطاب القرآني مراعياً حال المتلقي ، وبخاصة أنّ هذا التوكيد تضاعف بالوظيفة النحوية للمصدر (حفظاً) ، وهي إنابته عن فعله في باب التوكيد ، أي : حفظناه حفظاً[٢].

وإذا ما تأمّلنا البنية الصوتية للحدث الحسّي (زيّنا) والحدث الغيبي (حفظاً) وأجرينا مقارنة بينهما لوقفنا على سمة من سمات االتعبير القرآني ، فأصوات الفعل الحسّي أصوات مجهورة وقويّة وواضحة في النطق ، إذ يبدأ بصوت صفيري احتكاكي (الزاي) يتسق مع حركة النجوم ظهوراً واختفاءً ، ويتوسطه صوت مجهور امتدادي مشدّد (الياء) زاد التشديد في امتداده ، وينتهي بصوت مجهور شديد ذلقي مشدّد (النون) ممتد بالألف المجهورة ، وهذه الصفات القويّة تلمح إلى حسية المنظر وعظمته وحركيته . أمّا أصوات الحدث الغيبي (حفظاً) فهيمنت عليها صفات الهمس والرخاوة ، فأضفت عليه جرساً هادئاً يتسق مع غيبيّته وعدم ظهوره ، وختم بصوت إطباقيّ مفخّم ، زيد تفخيمُه بالنون الساكنة ، فأوحى بإطباق الحفظ على المحفوظ إتماماً للوظيفة ، ومن ثمّ ترسيخها في ذهن المتلقي .

ومنه قوله تعالى : ((وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ))[٣] ، فعبّر عن صفة رئيسة من صفات ما أوحي إلى الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) بالمصدر (ذكر) في سياق تثبيت الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) والذين آمنوا، وتشريفهم به بقوله : ((لك ولقومك))[٤] في أجواء الإنكار والتكذيب والأذى الذي يواجهه حملة الكتاب ، وكان التعبير بالمصدر متسقاً مع هذه الأجواء التي تقتضي إثباتاً وتوكيداً ومبالغة تحققت باستعمال

---

(١) ينظر : الخصائص : ٢٠٧/٢

(٢) ينظر : ظاهرة المفعول المطلق في القرآن الكريم (رسالة ماجستير) : ٧٧

(٣) الزخرف : ٤٤

(٤) ينظر : روح المعاني : ٨٥/٢٥

المصـدر ببنيته التي تفيد هـذه المعاني ، وباستغراقه غير المحدد بزمنٍ معين ، فالمصادر أجناس للمعاني ، تدل عليها على سبيل الاستقلال عن الزمن والذات[1] ، لذا تكون دلالتها على المعنى على سبيل التوكيد والمبالغة ، فضلاً عن الثبوت المستفاد من اسميتها . زيادةً على وظيفته النحوية التي تدل على المبالغة أيضاً ، إذ إنّ المصادر لا تقع خبراً أو صفة أو حالاً ، إلا على سبيل المبالغة فـي تأدية المعنى ، قـال ابن جنّي : " وأمّـا المعنوي فلأنّه إذا وصـف بالمصدر صـار الموصوف كأنه فـي الحقيقة مخلوق مـن ذلك الفعـل ، وذلك لكثرة تعاطيه له واعتياده إياه "[٢] . وبإيحـاء أصواته المجـهورة (الذال والراء) والشـديدة (الكاف) ، فصفاتها تناسب مقام الثبوت والتوكيد والوضوح ، فهي أصوات ذو وضوح سمعي ، ولا سيما أنّها عُضّدت بصوت اللام الذلقي الواضح سمعياً الذي تكرر في الآية الكريمة ، فأضفت بمجموعها جرساً واضحاً يتساوق مع وضوح الحق في الكتاب المعُبّر عنه بالذكر . زيادة على أنّ صفات الهمس والرخاوة في هذه الأصوات ـ وبخاصة صوت الكاف الذي توسط المصدر وتكرر في الآية ـ أشاعت جوّاً هادئاً اتسق مع مقام الحث على قبول الكتاب الموصوف .

بنْية فُعْل :

وجد اللغويون أنّ هذه الوحدة الصرفية ترتبط غالباً بالفعل الثلاثي من الباب الخامس ، قال سيبويه : " أمّا ما كان حسناً أو قبحاً فإنه ممّا يُبنى فعله على (فَعُل ـ يفْعُل) ، ويكون المصدر (فَعالاً وفَعالة وفُعْلاً)"[٣]، ومنها قوله تعالى : ((قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْناً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ))[٤] ، فالآية الكريمة في سياق الحث والترغيب على فعل عُدّ أجراً للرسالة المحمدية بكاملها ، على الرغم من نفي الأجر عنها في أكثر من موضع قرآني ، ومنه قوله تعالى : ((وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ

(١) ينظر : الخصائص : ٢٠٦/٢
(٢) المصدر السابق : ٢٥٩/٣
(٣) الكتاب : ٢٨/٤
(٤) الشورى : ٢٣

إنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ))[١] ، ولذا عُدّت المودة من الرسالة وليس أجرها ، ولكنّ ذكر الأجر عليها من باب التأكيد على فضلها والحث عليها والترغيب فيها ، فكانت حسنة على سبيل العموم ، قال الرازي : " والظاهر العموم في أي حسنة كانت ، إلا أنّها لما ذكرت عقيب ذكر المودة في القربى دل ذلك على أنّ المقصود التأكيد في تلك المودة "[٢] . ولمّا كان هذا التعظيم في أمر المودة أُجيب بالزيادة فيها بالمصدر (حُسناً) الدال على عموم المعنى على سبيل الثبوت والتوكيد والاستغراق ، بتجرده من الدلالة الزمنية الذي يتساوق مع دلالة الأفعال المضارعة (يقترف ونزد) التي تفيد التجدد والاستمرار في الحال والاستقبال . كما أنّ في استعمال المصدر (حُسناً) مغايرة في العموم الذي تفيده لفظة (حسنة) ، والمعنى - والله أعلم - أنّ فعل أي حسنة تحت سقف المودة في القربى صغيرة كانت أم كبيرة يقابله عموم في الجزاء بالحُسن على سبيل المبالغة والتكثير ، ويُؤكّد هذا المعنى بفاصلة الآية الكريمة ((إن الله غفور شكور)) ، أي غفور لمن أذنب ، " والشكور في حق الله تعالى مجاز ، والمعنى أنّه تعالى يحسن إلى المطيعين في إيصال الثواب إليهم ، وفي أن يزيد عليه أنواعاً كثيرة من التفضيل "[٣] .

ولا شكّ في أنّ التجنيس الصوتي الذي تشكّل من اللفظتين (حسنة ، حسناً) أضفى جرساً صوتياً هادئاً من خلال أصواته التي تنماز بسهولة نطقها وهمسها ورخوتها ، وهو ما يتسق مع معنى المودة الذي يرتبط بالنفوس الطيبة المذعنة لأمر ربّها أولاً ، ومع مفهوم الأجر الغيبي الذي ينسجم مع طبيعة الدعوة الإسلامية ، فالمودة عمل تكليفي ديني ، لا يرتبط بطلب دنيويّ ، لـ" أنّه لا يناسب شأن النبوة ، لما فيه من التهمة ، فإن أكثر أهل الدنيا يفعلون شيئاً ويسألون عليه ما يكون فيه نفع لأولادهم وقراباتهم "[٤]. فانسياب هذه الأصوات وهدوء جرسها يضفي طابعاً خفياً يتساوق مع خفاء الغيب .

---

(١) الشعراء : ١٤٥
(٢) التفسير الكبير : ١٤٤/٢٧
(٣) نفسه ، وينظر : تفسير أبي السعود : ٣٠/٨
(٤) الميزان : ١٩٣/١٨

وفي سياق إثبات القدرة الإلهية دليلاً من أدلة التوحيد الأفعالي ـ " ويعني أنّ كلّ وجود وكلّ حركة وكلّ فعل في العالم يعود إلى ذاته المقدسة ، فهو مسبب الأسباب ، وعلة العلل "[١] ـ يطالعنا قوله تعالى: ((ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ))[٢]، وهو سياق يقتضي تبيان القدرة من خلال انقياد مخلوقاته لقدرته ومشيئته (سبحانه) ، فعبّر عن هذه المشيئة بالمصدرين (طوعاً وكُرْها)، فالكره بضم الكاف وفتحها مصدران قيل إنهما بمعنى واحد ، كالفَقر والفُقر ، والضَعْف والضُعْف[٣] ، وقيل إن الكره بالضم من نفس الكاره ، وبالفتح ما أكره عليه[٤]، وعلى كلا المعنيين تتحقق المبالغة في معنى لزوم وتأثير قدرته (سبحانه) فيهما (السماء والأرض)، وأن امتناع تأثير قدرته عليهما محال . ويتحقق هذا المعنى ببنية المصدر الدالة على الثبوت والتوكيد من ناحية ، وبوظيفته النحوية من ناحية أخرى ، إذ إنّهما مصدران في موضع الحال ، أي طائعين أو كارهين[٥] ، والمصدر إذا وقع حالاً فإنه يفيد المبالغة ، على معنى أنّ السماء والأرض وما فيها ، خلقا من معنى المصدرين (طوعاً أو كُرْها) من دون أن يعيق إتيانهما عائق ذاتي أو موضوعي ، وهو " تمثيل لتحتم تأثير قدرته (تعالى) فيهما ، واستحالة امتناعهما من ذلك ، لا إثبات الطوع والكره لهما "[٦] ، لذا كان جوابهما : أتينا طائعين ، " أي منقادين ، تمثيلاً لكمال تأثرهما عن القدرة الربانية ، وحصولهما كما أمرا به، وتصويراً لكون وجودهما كما هما عليه جارياً على مقتضى الحكمة البالغة "[٧] .

ومنه قوله تعالى : ((وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَاناً حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً))[٨] ، فالمصدر كُرْهاً ، جاء علة للتوصية بالإحسان على وجه التخصيص للأم ،

---

(١) تفسير الأمثل : ٥٥٧/٢٠
(٢) فصلت : ١١
(٣) ينظر : روح المعاني : ١٧/٢٦
(٤) ينظر : معاني القرآن للأخفش : ٢١٦/١-٢١٧
(٥) ينظر : التفسير الكبير : ٩٢/٢٧
(٦) تفسير أبي السعود : ٥/٨
(٧) روح المعني : ١٠٣/٢٤
(٨) الأحقاف : من الآية ١٥

دلالة على أنّ حقها أعظم ، ووصول المشاق إليها بسبب الولد أكثر[١] . ولا شكّ في أنّ التعظيم لأمر الإحسان للوالدين لا يخفى ، إذ قُرن بجوهر الدين وغايته ، قال تعالى : ((وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً))[٢] ، لذا جاء التعبير بالمصدر متسقاً مع هذا السياق ، على معنى أنّ الثواب على قدر المشقة ، فجاء وصف هذه المشقة بالمصدر على سبيل المبالغة المستفادة من أصل بنية المصدر، وجرس أصواته ، ولا سيما الراء الساكن ، إذ إنّه صوت تكراريّ رخوّ ذو وضوح سمعي ، تتساوق صفته التكرارية مع استمرار العناء والمشقة في أثناء الحمل وفي الوضع ، وكذا صوت الهاء الذي يعزز بهمسه ورخاوته ضعف الحامل واضطراب قلبها ، ومعنى هذا أنّ " تركيب الألفاظ وجرسها يكاد يجسّم العناء والجهد والضنى والكلال ،... لكأنّها آهة مجهد مكروب ، ينوء بعبء ، ويتنفس بجهد ، ويلهث بالأنفاس ، إنّها صورة الحمل وبخاصة في أواخر أيامه ، وصورة الوضع وطلقه وآلامه "[٣]. كما يستفاد معنى المبالغة من وقوع هذا المصدر حالاً ، ففيه مبالغة في وصف صاحب الحال ، وكأنّ ذات الأم من حملها ووصفها كره مطلق ، لا يقيدهُ صبر ولا أمل ، تعبيراً عن المشقة ، أي ذات كُره أو حملاً ذا كره[٤] . وقد قرئ بفتح الكاف (كَرْها) ، وقيل إنهما بمعنى واحد ، إلا أنّ بعض المفسرين حملوها على اختلاف الدلالة ، فقالوا إنّ (كرها) بضم الكاف يعني ما يعافه الإنسان من حيث الطبع أو من حيث الشرع ، أي ما يرتبط بذاته ، أمّا بفتح الكاف ، فيعني التي تنال الإنسان من خارج ، مما يحمل عليه بإكراه[٥] . ويبدو أنّ كلا المعنين يتساوقان مع السياق ، فهما لا يتناقضان مع المبالغة المستفادة منهما ، فمن جهة لا تخرجهما القراءتان من دائرة المصدرية ، ومن جهة أخرى لا يتعارض المعنيان المستفادان من القراءتين مع طبع الإنسان أولاً ، فالإنسان مجبل على كره المشقة ، ومع مفهوم المشيئة الإلهية ثانياً ، فالحمل والوضع منقادان لقدرة الله ومشيئته ، ولا دخل للإنسان فيها إلا من باب جريان الأسباب بمسبباتها .

---

(١) ينظر : التفسير الكبير : ١٣/٢٨
(٢) الإسراء : ٢٣ ، وينظر : تفسيرها في أضواء البيان : ٨٥/٣
(٣) في ظلال القرآن : ٣٢٦٢/٦
(٤) ينظر : الكشاف : ٣٠٦/٤
(٥) ينظر : فتح القدير : ٨/٥ ، وروح المعاني : ١٧/٢٦ ، ومعجم القراءات القرآنية : ٤٨٩/٨

ومما تكرر من هذه الوحدة الصرفية لفظ (مُلك) ، مصدر الفعل الثلاثي مَلَك ، في تعالى : ((لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ))(١) ، وقوله تعالى : ((وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرضِ وَيَومَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ))(٢) ، وقوله تعالى : ((وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ))(٣) ، فدلالة المصدر (مُلك) ، في إفادته الثبوت والتوكيد والاستغراق الزمني ، يتساوق مع سياق تبيان القدرة النافذة له (سبحانه) ، ردّاً على منكري التوحيد والمعاد ، وفيه مراعاة لمقتضى حال المتلقي المنكر ، فثبوت الإنكار وتمكنه من المخاطب تقابله قوة في معنى إثبات الملكية لله في سماواته وأرضه على سبيل العموم ، " أي له التصرف فيهما بما يريد ، لا مانع لما أعطى ، ولا معطي لما منع "(٤) . وما يلفت نظر دارس النص القرآني التناسب العجيب بين الانحراف والردّ عليه الذي يستتشف من تكرار صوتي اللام والميم اللذين ينحرف الهواء عن مخرجه عند نطقهما نتيجة لانسداده ، فيختار مسلكاً آخر ، وهو أطراف اللسان في اللام ، والأنف في الميم(٥) ، وفي هذه الظاهرة إيحاء بانحراف المتلقي الذي سيقت الآيات لثنيه عن انحرافه . ويلحظ في الآيات الكريمة تساوق لافت بين ما يفيده المصدر (ملك) ممّا تقدم مـن دلالة على الثبوت والتوكيد والعـموم ، وبين دلالة القصر بتقديم الخبر (الجار والمجرور) على المبتدأ (مُلك) ، ولا سيما أنّ لفظ الجلالة هو الذي وقع خبراً بتأثره بحرف الجر ، على معنى أنّ الملك مختص به ،" لا لغيره سبحانه اشتراكاً واستقلالا "(٦) .

ومنه قوله تعالى : ((مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِّلْعِبَادِ))(٧) ، إذ استعمل المصدر بدلالته على المعنى على وجه العموم الذي يفيده

---

(١) الشورى : من الآية ٤٩
(٢) الجاثية : ٢٧
(٣) الزخرف : من الآية ٨٥
(٤) فتح القدير : ٥٤٤/٤
(٥) ينظر : الأصوات اللغوية : ٤٤ ، ٥٩
(٦) روح المعاني : ٥٣/٢٥
(٧) غافر : ٣١

التنكير ، " وحيث نُكّر الظلم كأن نفي أن يريد ظلماً ما لعباده "[١] ، استعمل في نفي إرادة الظلم ، لا الظلم نفسه ، " وفيه مبالغة في نفي الظلم حيث علّقه بالإرادة "[٢] ، لذا اتسق هذا المعنى مع دلالة الثبوت والمبالغة التي يفيدها المصدر في أصل وضعه ، بدلالته على الحدث المجرد من دون أيّ علائق أخرى كالذات والزمن ، وهذا ما دفع بعض المفسرين[٣] إلى القول إنّ هذه الصيغة في الآية الكريمة أبلغ من قوله تعالى : ((وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ))[٤] . لأنّ (ظلّام) صيغة مبالغة تدل على الحدث والذات ، فيقل فيها الثبوت والتوكيد لتوزع دلالتها بين القسيمين . ولعل الربط بين الانحرافات التي وقع فيها المذكورين على لسان مؤمن آل فرعون في الآية الكريمة ودلالة أصوات المصدر (ظلماً)، يدفع إلى القول إن المراد أنّ الله (سبحانه) لا يريد لعباده الوقوع في الانحرافات الظالمة لأنفسهم ، وليس نفي الظلم عن نفسه (سبحانه) ، فصوت الظاء الإطباقي يوحي إلى أنّ المذكورين قد أطبق الظلم على أنفسهم ، فاستحقوا العذاب ، كما أنّ تغيير مجرى الهواء عند نطق صوتي اللام والميم وانحرافه عن مساره باتجاه مخرج آخر يومىء إلى انحراف أولئك الذين سيق سلوكهم تحذيراً للمتلقي من الوقوع فيه .

بنْية فَعَال :

وهي من أبنية الثلاثي المجرّد السماعية ، والأكثر فيها أن تكـون مصدراً للثلاثي (فَعَل) بفتح العين[٥] ، ومنها قوله تعالى : ((أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاء بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ))[٦] ، فجزاء مصدر الثلاثي (جزى)[٧] ، وجاء في سياق البشرى بالخلود في الجنة للذين اعترفوا بالربوبية ثم استقاموا عليها قولاً وفعلاً ، فعظّمت الآية الكريمة

---

(١) روح المعاني : ٦٧/٢٤
(٢) البحر المحيط : ٤٤٤/٧
(٣) ينظر : تفسير النسفي : ٧٣/٤
(٤) فصلت : ٤٦
(٥) ينظر : المفصّل : ٢٧٥/١ ، وشذا العرف : ١١٥
(٦) الأحقاف : ١٤
(٧) ينظر : تهذيب اللغة : ٩٩/١١

ذكرهم بالإشارة للبعيد تفخيماً ، وتـوّجت هذا التعظيم بخلودهم في الجنة ، واستمراراً في زف البشرى ترغيباً في قولهم (الذين قالوا ربنا الله) ، وفي فعلهم (ثم استقاموا) ، جاء التعبير بالمصدر (جزاءً) ، إثباتاً وتوكيداً ومبالغة في معنى الجزاء ، أي جزاء عظيم ثابت يتسق مع عظيم القول والفعل ، " وهـذا من تمام العناية بالتنويه بهم "(١) ، فالثبوت فيه مستفاد مـن خلفيته الاسمية ، إذ إنّ " موضوع الاسم على أن يثبت به المعنى للشـيء ، مـن غير أن يقتضي تجدده شيئاً بعـد شيء "(٢) ، والتوكـيد متأت مـن وقوعه بدلاً عن فعله، إذ جـاء فـي موضع التوكيد نحوياً على أنّه مفعول مطلق مـؤكد مضمون الجملة التي قبله (أولئك أصحاب الجنة) ، لأنّها بمعنى جزيناهم ، على نحو قولهم : أنت أبني حقاً(٣) ، والمبالغة فيه مرتبطة بالزيادة على حروفه الأصلية ، لأنّ الأصل في البناء الدال على معنى زائد على بنائه المجرّد أن تكون فيه حروف زائدة تحمل هذه الدلالة ، زيادة على دلالته المعجمية . وبنية (فَعال) ـ كما يرى ابن جنّي ـ من الأبنية الدالة على المبالغة والكثرة في المعنى للزيادة التي فيها(٤) ، ولا سيما إذا كانت الزيادة صوت مدّ وهو الألف الذي يعمل على إشباع الحركة ومن ثَم إطالة الصوت وزيادة وضوحه ، " لأنّ الصوت يزداد وضوحاً إذا طالت حركته "(٥) ، وصوت الزاي صوت مجهور احتكاكي ذو وضوح سمعي بسبب جهره واحتكاكه ، فزاده المد وضوحاً ، وكأنه نداء يراد له أن يصل إلى ما شاء الله ، وعبر الزمن ، وجاء رادفاً صوت الجيم المجهور الشديد ، فأسهمت هذه الأصوات في إسماع البشرى واضحة ، وبثّت جوّاً من الراحة والطمأنينة لدى المتلقي ، وبخاصة أنّ المصدر ختم بصوت الهمزة المقطوع الذي يلمح بإيقاعه المتميّز إلى تقوية المعنى وتأكيده والقطع بحصوله . زيادة على ما تقدم يتضح في الآية الكريمة تناسق جليّ بين دلالة الثبوت المستفادة من الفعلين الماضيين (قالوا واستقاموا) ودلالة المصدر ، فقولهم بالتوحيد واستقامتهم أمران نافذا الوقوع ، استحقوا عليهما جزاءً ثابت الحصول .

---

(١) التحرير والتنوير : ٢٦/ ٢٨
(٢) دلائل الإعجاز : ١٤١
(٣) ينظر : تفسير النسفي ١٣٨/٤
(٤) ينظر : الخصائص : ٢٦٨/٣
(٥) أبرز خصائص لغات هذيل : د. عبد الرحمن محمد إسماعيل ، مجلة معهد اللغة العربية : ع٢ ، المملكة العربية السعودية ، ١٩٨٤م

ومما جاء على هذه البنية قوله تعالى : ((فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ))(١) ، فالآية الكريمة تحمل في سياقها أكثر من موضوع ، أولها تثبيت الرسول وتسليته بذكر صبر أولي العزم ، وهم أعظم رسل الله (سبحانه) ، ولا يخفى ما في ذكرهم من تعظيم ، وثانيها التهديد والوعيد لكفار قريش بشدة العذاب وطول مدته من خلال تصوير لبثهم في الحياة الدنيا وفي البرزخ بكونه ساعة من نهار(٢) ، وفيه تعظيم أيضا لأمر عذابهم في يوم القيامة ، ثم يأتي استعمال المصدر (بلاغ) ليكمل صورة التعظيم بقوة معناه المترتبة على دلالته على الحدث الذي هو جنس ، والجنس يفيد العموم ، لذا كان وقوعه موقع الخبر على تقدير : هو بلاغ ، والخبر وصف للمبتدأ ، " فكأنّه وُصف بجميع الجنس مبالغة "(٣) ، " أي هذا الذي وعظتم به كفاية في الموعظة ، أو هذا تبليغ من الرسول عليه السلام ... ويدل على معنى التبليغ قراءة من قرأ بلغ فهل يهلك ، وقرئ بلاغاً أي بلغوا بلاغاً "(٤) . ويلحظ في لفظ المصدر التناسق بين معناه ودلالة أصواته ، ومن ثم مع سياق الآية الكريمة ، إذ إنّ البلاغ يقتضي وضوحاً سمعياً أولاً ، وقوة حجة ثانياً ، وقد توافرا في الآية الكريمة ، لذا كانت أصوات المصدر (بلاغ) تعكس ذلك من خلال صفات القوة فيها ، إذ بدأ بصوت الباء المجهور الشديد الذي شكلّ مقطعاً قصيراً مفتوحاً (بَـ)، وأُردف باللام المجهورة الذلقية التي تتسم بخفة النطق ، وقد امتدت بالألف المجهورة فاتحة منها مقطعاً طويلاً (لا) . ولا شكّ في أنّ هذه البنية الصوتية تنماز بالقوة والوضوح اللذين يناسبان ما ساقت الآية الكريمة من عظيم التسلية للرسول بالاعتبار بما جرى للأنبياء السابقين (عليهم السلام) ، وبالوعد بسرعة وقوع الهلاك بمكذّبيه ، وتتسق مقاطعها المفتوحة مع انفتاح البلاغ وامتداده ليشمل ما بعد متلقي الخطاب وزمنه . وقد ختم المصدر بمقطع قصير مغلق ، ابتدأ بالغين المجهورة المستعلية المتحركة بحركة ثقيلة ، وانتهى بالنون الساكنة المجهورة الغُنية ، موحياً باستعلاء البلاغ على المبلغين وثقله عليهم ، والقطع بوقوع ما حذروا منه .

---

(١) الأحقاف : ٣٥
(٢) ينظر : التفسير الكبير : ٣١/٢٨
(٣) الخصائص : ٢٠٢/٢
(٤) الكشاف : ٤/ ٣١٧

ومنه قوله تعالى : ((فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ))[1] ، إذ يطالعنا مرة أخرى سياق التسلية للرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) بسبب إصرارهم على الكفر ، فالآية الكريمة السابقة تحكي شكوى النبي من هذا الإصرار ، وهو واضح في قوله تعالى : ((وَقِيلِهِ يَارَبِّ إِنَّ هَؤُلَاء قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ)) [2] ، وسياق التهديد والوعيد ، وبين هذين السياقين يقف المصدر سلامٌ على زنة (فَعال) بدلالته على الثبوت المعبر عن أمر متاركتهم والقنوط من إيمانهم[3] ، على وجه الثبات على الموقف ، ودلالته على المبالغة في المعنى التي تقابل مبالغتهم في الإصرار على الكفر على الرغم من جهود الإقناع التي بذلها الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ، وبخاصة أنّ " .. أصل سلام مصدر جاء بدلاً من فعله فأصله النصب ، وعُدل إلى رفعه لقصد الدلالة على الثبات "[4] ، والمعنى أمري سلام، وكأن أمره (صلى الله عليه وآله وسلم) معهم مخلوق من سلام من غير أن يُعيقه شعور باليأس منهم ، أو هَم من حرص عليهم .

وما يلفت النظر أنّ الأمرين (الصفح والسلام) أشاعا بصفات الهمس والرخاوة في أصواتهما جوّاً من الراحة يتسق مع سياق التسلية في الآية الكريمة أولاً ، ومع الخلق النبوي ثانياً ، مع فارق ، وهو القطع بحدوث الصفح الذي يتناسب مع مقام الخلق العظيم والرحمة النبوية ،((وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ))[5]، وهو ما يعكسه المقطعان الطويلان المغلقان (فَص ، فَح) ، والامتداد الواضح الذي يضفيه صوت اللام الممتد بالألف رادفاً صوت السين الصفيري الاحتكاكي ، وهو امتداد يعكس الصبر والمطاولة والانصياع لأمـر الله (سبحانه) إلى حيـن حصول الـوعد بحتمية علـمهم ((فسوف يعلمون)) تهديداً ووعيداً .

ومنه قوله تعالى : ((وَآتَيْنَاهُم مِّنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاء مُّبِينٌ))[6] ، فـ (بلاء) من بلوت الرجل بلواً وبَلاءً[1] ، وجاء في سياق ذكر بني إسرائيل وما أنعم الله عليهم من نعم

---

(١) الزخرف : ٨٩
(٢) نفسها : ٨٨
(٣) ينظر : الكشاف : ٢٧٠/٤
(٤) التحرير والتنوير : ٢٧٣/٢٥
(٥) الأنبياء : ١٠٧
(٦) الدخان : ٣٣

فضلهم بها على غيرهم ، وهي نعم وآيات عظيمة ، كان مقتضى الإنصاف أن تكون علّة لإيمانهم ، ولكنهم أصرّوا على كفرهم ، فسيقت الآية الكريمة من باب التماثل بينهم وبين كفار قريش في الإصرار على الكفر تحذيراً من أن يحل بهم ما حلّ ببني إسرائيل ، لذا كان السياق سياق تعظيم وتفخيم لهذه الآيات ، " كغلق البحر وتظليل الغمام وإنزال المن والسلوى ، وغيرها من عظائم الآيات التي يعهد مثلها في غيرهم "(٢) ، وتُوّج هذا التعظيم بوصفها اختباراً ظاهراً بما يفيده المصدر (بلاء) من دلالة الثبوت والتوكيد والمبالغة في المعنى ، والإشارة إلى العموم المستفادة من دلالته على معنى حدث فعله ، معززاً بالتنكير والتنوين . ولا شكّ في أنّ البنية النحوية التي اشترك المصدر في تشكيلها هي التي أسهمت في إشعاعه بهذه الدلالات لـ " أنّنا نستطيع أن نحدد معنى الكلمات بموجب ارتباطها بالكلمات الأخرى "(٣) ، زيادة على أنّ الأصل الواحد في مادة (بَلو) وهو - " إيجاد التحوّل ، أي التقليب والتحويل لتحصيل نتيجة منظورة ، وهذا المعنى ينطبق على جميع مواردها ومصاديقها ، من دون أن يتجوّز أو يتكلف ، فيها "(٤) - يتناغم مع السياق القرآني الذي سيقت فيه الآية الكريمة ، وهو استنكار موقف كفار قريش وتحقيرهم(٥) ، لأنّهم ساروا على نهج بني إسرائيل الذين لم تؤثر فيهم الآيات العظيمة تحولاً في نفوسهم ، ولا انقلاباً في مواقفهم تجاه نبيّهم ودعوته الحق . ويبدو أنّ صفات القوة الوضوح في أصوات المصدر تتسق مع عظمة الآيات المُساقة وقوة حجيّتها ، فهي أصوات مجهورة (الباء واللام والألف) ، والأصوات المجهورة أكثر دلالة على القوّة والحزم ، لأنّها أكثر وضوحاً ، ممّا يجعلها مناسبة للأوامر والنواهي والتكاليف والوعد والوعيد(٦) ، وتزداد دلالتها على قوة الحدث إذا اتسمت بصفة قوة أخرى كالشدة (الباء) ، والهمزة التي خُتم بها المصدر مشكلة مقطعاً قصيراً مغلقاً بالنون الساكنة (أن) ، ضاعف من دلالتها على القطع، وكأن الآيات التي سيقت لبني إسرائيل مقطوع بحجيّتها ووصولها إلى غاية البيان .

---

(١) ينظر : المحكم والمحيط الأعظم : ٤٣١/١٠
(٢) تفسير أبي السعود : ٦٣/٨
(٣) علم الدلالة : جون لاينز : ٧٧
(٤) التحقيق في كلمات القرآن الكريم : ٣٦٢/١
(٥) ينظر : روح المعاني : ١٢٦/٢٥
(٦) ينظر: الأفكار الأساسية بعلم الصوت الحديث : ١١١

زيادة على ما تقدم من قول في الشواهد السابقة يبدو أنّ هناك معنىً مشتركاً بينها تفيده صيغة (فِعَال) وهو الدلالة على انتهاء الغاية ، قال سيبويه : " وجاءوا بالمصادر حين أرادوا انتهاء الزمان على مثال فِعَال ... وربّما دخلت اللغة في بعض هذا ، فكان فيه (فِعَال) و(فَعَال) ، فإذا أرادوا الفعل على فَعَلْت قالوا : حصدته حَصْداً ، وقَطَعْته قطعاً ، إنّما تريد العمل ، لا انتهاء الغاية "[١] . فالجزاء في قوله تعالى : ((جَزَاء بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)) يمثل نهاية غايته ، فلا جزاء بعده ، لحصوله في يوم الجزاء الذي لا حساب بعده أولاً ، ولبلوغه غاية الفضل والإكرام لأنه من عند الله (سبحانه) الذي يمثل مطلق الفضل والإكرام والرحمة . وكذلك البلاغ في قوله تعالى : ((كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَاغٌ))[٢]، فقد بلغ غايته ببلوغ أدواته من آيات الوعظ العظمى غاية التأثير ، فلا يمكن أن يؤثر فيهم ما هو أعظم منها في الحُجية .

والكلام نفسه يقال في البلاء ، فهو بلاء بلغ الغاية في الهدي والظهور ، لذا كان وصف كفار قريش الذين سيقت الآية الكريمة تمثيلا لهم ببني إسرائيل على وجه التحقير لبلوغهم غاية الكفر بإنكارهم البعث والنشور ، قال تعالى : ((إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ))[٣] ، " أي ما العاقبة ونهاية الأمر إلا الموتة الأولى المزيلة للحياة الدنيوية ، ولا قصد إلى إثبات موتة أخرى "[٤] . ويبدو أنّ زيادة صوت الألف على البنية ساهم في إفادة هذا المعنى ، فهو " صوت عالٍ يحكي المد إلى الأعلى "[٥] ، وهو امتداد يصلح للتنبيه، ويؤثر في الإيقاع من خلال إبرازه داخل النص ، وبخاصة أنّه يشكّل البنية المقطعية للألفاظ بوصفه حركة طويلة ، واللفظة بصيغتها المقطعية هي التي تقوم بتلوين الإيقاع وإبرازه داخل النص بما ينسجم مع السياق[٦] .

---

(١) الكتاب : ١٢/٤
(٢) الأحقاف : من الآية ٣٥
(٣) الدخان : ٣٤ـ٣٥
(٤) تفسير أبي السعود : ٦٣/٨
(٥) كتاب الموسيقى الكبير ١٠٧٣
(٦) ينظر : الإيقاع أنماطه ودلالاته في لغة القرآن الكريم ، دراسة أسلوبية دلالية (رسالة ماجستير): ٦٨

بنْية فِعَال :

وهي من مصادر الفعل الثلاثي التي تكون قياسية في بعض المعاني[1] ، ومشهورة في بعض الأفعال ، كالفعل الثلاثي المعتل[2] ، وممّا جاء من هذه البنية قوله تعالى : ((وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآناً أَعْجَمِيّاً لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاء))[3] ، فالسياق في الآية الكريمة يكمل تقابل معنيين متضادين ، أحدهما إنكار القرآن والإصرار عليه بحجج متعددة ، " وأيّا ما كان فالمقصود بيان أنّ آيات الله تعالى على أيّ وجه جاءتهم وجدوا فيها متعنتاً يتعللون به "[4] ، والآخر إثبات حجيّته وأثره في النفوس، وجاء هذا المعنى معبّراً عنه بمصدرين هما (هدى وشفاء) لإفادة الثبوت والتوكيد في المعنى ، على وجــه العموم والخصوص ، العموم الذي يفيده المصدر المجرّد (هدى)، " أمّا كونه هدىً فلأنه دليل على الخيرات ويرشد إلى كل السعادات "[5] ، لذا نجد أنّ أصواته تناسب دلالته العامة التي تقتضي قوة في دلالته ، ففيه صوتان مجهوران (الدال والنون الساكنة) اللذان ينمازان بقوتهما التي تتسق مع دلالة المبالغة والعموم والقطع بحتمية هدايته من خلال تشكيلهما مقطعاً مغلقاً يوحي بهذا القطع . أمّا صوت الهاء الذي ابتدأ به المصدر فيساوق بهمسه ورخاوته معناه ـ أي المصدر ـ المعجمي ، فالهداية تعني تجاوب النفس واطمئنانها وسكونها ، وهو ما تشيعه صفات الضعف في هذا الصوت . والخصوص الذي يفيد المصدر (شفاء) المتعلق بإمراض الظن والشك والجهل التي قد تصيب حتى القلوب المؤمنة . ويبدو أنّ استعمال المصدر المزيد في هذا المعنى يفيد مزيداً من المبالغة ، تتساوق مع خطورة هذه الأمراض على عقيدة الإنسان وفكره ، فالزيادة في المبنى زيادة في المعنى . لذا نلحظ أنّ أصواته شاعت فيها صفات الهمس والرخاوة التي تتسق مع حالة تجاوب المريض مع الدواء ، وبخاصة دواء النفوس المؤمنة التي شاع فيها

---

(١) ينظر : شرح الشافية : ١٠٧/١-١٠٨
(٢) ينظر : الصحاح (أدب) : ٨٩/١ ، ولسان العرب (أدب) : ٢١٨/١
(٣) فصلت : من الآية : ٤٤
(٤) تفسير أبي السعود :
(٥) التفسير الكبير : ١١٦/٢٧ ، وينظر : الميزان : ١٧٣/١٧

الاطمئنان والهدوء لتجاوبه مع دوائها ، وهو الشيوع الذي يعكسه صوت الشين[١]. زيادة على ما تقدم فإن وقوع هذين المصدرين في موضع الخبر يفيد المبالغة في المعنى التي تتسق مع سياق إنكاره من جهة ، ومع فضله ومكانته وقدسيته من جهة أخرى ، فهو ـ أي القرآن الكريم ـ في نفسه ، وعلى وجه العموم والخصوص ، هـدى وشفاء ، لا يضيره المنكرون ، بل تتلقفه القلوب التي آمنت به فيكون لها شفاء .

ومنه قوله تعالى : ((وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْراً))[٢] ، ففصاله مصدر الفعل (فصل) ، وقيـل إنه مصدر الرباعـي (فاصل) لأنّه يفيد معنى المشاركة بين الأم وطفلها ، "والفِصال الفِطام ، وهو مصدر فاصل ، فكأن الولدَ فاصل أمّه وأمّه فاصلته "[٣] ، وقد ردّ ابن جنّي بالتفريق بين هذا المصدر ومصدر الرباعي بقوله : " فأمّا الفِصال مصدر فاصلته فغير هذا المعنى ، وإن كان الأصل واحداً "[٤] .

إنّ استعمال المصدر في هذا السياق قد أشع بدلالات متعددة ، منها تناسب دلالة الثبوت الحدثية ـ إن صح القول ـ مع معنى المشّقة المصاحبة للحمل والفصال ، فالحمل حدث شاق تصاحبه الآلام والأعراض الجسدية ، والفصال حدث شاقّ أيضاً ، لا يكون إلاّ بألم النفس ، فالمرأة أكثر ما تكون حنواً على وليدها في أثناء رضاعه ، لذا عبّر القرآن الكريم عن أهوال القيامة بذهولها عن رضيعها ، قال تعالى : ((يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ))[٥] ، ويبدو أنّ في استعمال المصدر المزيد إيحاءً إلى أنّ مشقة الفصال أشد من الحمل . وفي البنية الصوتية للمصدرين إيماء إلى الفارق بين الحدثين من ناحية ارتباطهما بالجسد أو بالنفس ، فكلاهما يبدآن بصوت مهموس رخوّ وهما صفتا ضعف يوحيان بما تعانيه الأمّ من ضعف من جرّاء الحمل والفصال ، مع فارق تومئ إليه طريقة نطقهما ، فمخرج الحاء من وسط الحلق ، لذا يحتاج إلى جهد أكبر عند نطقه مرتبط

---

(١) ينظر : الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة : ١٠٩ ، وفي البحث الصوتي عند العرب : ٥٦
(٢) الأحقاف : من الآية ١٥
(٣) روح المعاني : ١٧/٢٦
(٤) المحتسب : ١٦٧/٢
(٥) الحج : ٢

بالجسد ، وهو يتسق مع جهد الحمل وآلامه المرتبطة بالجسد أيضاً ، بينما لا يحتاج صوت الفاء جهداً عند نطقه ، فمخرجه الشفة السفلى وأطراف الثنايا ، وهو بهذا يومىء إلى عدم ارتباط مشقة الفصال بالجسد بل بالنفس . وهذا ينطبق على بنيتهما الصوتية عامة ، فأصوات الحمل مجهورة متوسطة الشدة ، بينما أصوات الفصال يشيع فيها الهمس والرخاوة . ومنها أنّ الآية الكريمة فـي سياق بيان حكمين شرعيين ، أولهـما الإحسان للوالدين ، وثانيهما بيان حكم مـدّة الحمل والرضاع ، وكلاهـما يقتضيان إثباتاً وتوكيداً ، وقـد تحققا باستعمال المصدر . ومنها أنّ استعمال المصـدر المزيد (فِصال) ، من دون المجرّد (فَصْل) يتسق مـع محدودية معنى الفطام ـ أي فصل الرضيع عـن ثدي أمّه ـ فالمصدر المجـرّد يفيد العموم في الدلالة على الحدث ، أمّا المصدر المزيد على زنة (فِعال) فيفيد الخصوص ، وهو ما يتناغم مع مفهوم الفصل المخصوص بالرضاع من دون غيره ، قال ابن جنّي : " الفصل أعم من الفصال ، لأنّه مستعمل في الرضاع وغيره ، والفِصال هنا أوقع ، لأنّه موضع يختص بالرضاع "(١) . ومنها دلالة انتهاء الغاية التي تفيدها الوحـدة الصرفية (فِعال)(٢) ، فالفصال لا يكون إلا بانتهاء مدة الرضاع كاملاً ، فـ " المراد بالفصال الرضاع التام المنتهي بالفطام ، ولذلك عبّر بالفِصال عنه أو عن وقته دون الرضاع المطلق ، فإنّه لا يفيد ذلك "(٣) . ومنها ـ كما يبدو ـ التوافق الحاصل بين لفظ المصدر من خلال عدد حروفه والزمن الذي يستغرقه الحدث الدال عليه في الآية الكريمة ، فمدة الحمل أقصاها تسعة أشهر ، وأقلها ستة أشهر(٤) ، أمّا الفصال فما تبقى من ثلاثين شهراً نصت عليها الآية الكريمة ، فكان المصدر المجرّد دالاً على الحدث الأقل زمناً (حمله) ، والمصدر المزيد يدلّ على الحدث الذي يستغرق زمنا أطول (فصاله) .

ومنه قوله تعالى : ((أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاء رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ))(٥) ، فالآية الكريمة تجمع ما تضمنته السورة من أحوال المشركين المعاندين الناشئة عن إنكارهم

---

(١) المحتسب : ١٦٧/٢ ، وينظر : مفردات ألفاظ القرآن : ٦٣٨
(٢) ينظر : الكتاب : ١٢/٤
(٣) روح المعاني : ١٨/٢٦
(٤) ينظر : الميزان : ٢٦٢/١٨
(٥) فصلت : ٥٤

البعث ، لذا تضمنت وسائل تأكيد ومبالغة لترسيخ هذا المفهوم ، كأداة التنبيه ، وحرف التوكيد ، واستعمال لفظ (مِرية) ـ أي شكّ ـ مجروراً بحرف الظرفية لاستعارة تمكن الشك منهم، حتى كأنهم مظروفون فيه[١] . ومن ثم جاء استعمال المصدر (لقاء) مشيراً إلى يوم البعث ، لتتساوق دلالة الثبوت والتأكيد والمبالغة فيه مع عظيم إنكارهم ، فهم في شكّ عظيم من لقاء عظيم لابد أن يصلوا إليه ، فيلمسوا صدقه ، إذ يمثل غاية المسير الدنيوي ونهايته . وهذا المعنى أي الانتهاء مستفاد من مبنى الصيغة الصرفية (فِعال) . كما مرّ في شواهد سابقة .

ولابدّ من الإشارة في هذا المقام إلى نكتة تلفت نظر متفحص النص القرآني ، وهي التناسب الدقيق بين الانحراف عن طريق الله (سبحانه) المؤدي إلى إنكار لقائه وبين ما يجري من انحراف لمجرى الهواء في أثناء نطق صوت اللام بسبب انغلاق مجراه ، فينحرف إلى أطراف اللسان . وفيه إيماء إلى انحرافهم يضاعف التوكيد والمبالغة في دلالة المصدر .

بنْية فَعْلَة :

وهي بنية تدل على الحدث المجرّد مضافاً إليه معنى آخر ، وهو الدلالة على المرّة ، أي حدوث الفعل مرّة واحدة ، وتصاغ من كل فعلٍ ثلاثي ، نحو : ضربته ضربة ، وقتلته قتلة ، وشتمته شتمة[١]. لذا فهي بنية دالة على الحدث المقيّد من دون المطلق ، وتوصَف بواحدة إذا بُني المصدر على تاء التأنيث التي تلحق آخر الصيغة المصدرية ، نحو : رحمة واحدة ، ونعمة واحدة ، ويكون هذا الوصف فارقاً بين التقييد بإرادة المرّة وإرادة الحدث

---

(١) ينظر : التحرير والتنوير : ٢٢/٢٥

المطلق[٢]. وممّا ورد منها قوله تعالى : ((رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ))[٣] ، فـ (رحمة) مصدر ورد علّة لإنزال القرآن الكريم ، " على معنى : إنّا أنزلنا القرآن لأنّ من شأننا إرسال الرسل بالكتب إلى عبادنا لأجل الرحمة عليهم "[٤] . وهذه العلة على وجه التوكيد والثبوت والمبالغة التي تفيدها دلالة المصدر (رحمةً) الوضعية ، وتقوّيها وظيفته النحوية ـ المفعولية المطلقة ـ وتضيف إليها معنى آخر يتسق مع عظمة الكتاب وشموله ، وعظمة ليلة إنزاله وامتدادها ، وهي دلالة التجدد والحدوث المستفادين من فعلية جملة المفعول المطلق ، " والرفع في باب المصادر التي أصلها النيابة عن أفعالها يدل على الثبوت والاستقرار ، بخلاف النصب فلا يدل إلّا على التجدد والحدوث المستفادين من عامله الذي هو الفعل ، فإنّه موضوع للدلالة عليه "[٥]، فالكتاب رحمة ثابتة مؤكّدة مبالغ في معناها ، ممتدة متجددة من نزوله وغير منتهية بزمن ؛ لأنّها تورث الخلود الأبدي ، وكذا الأمر في ليلة إنزاله . والمصدرية بهذه المعاني تتسق مع قرائن التعظيم لأمر القرآن وليلة إنزاله الواردة في الآيات السابقة لهذه الآية الكريمة ((إنّا أنْزَلْنا)) ، ((إنّا كُنّا مُنْذرين)) ، فالكتاب العظيم في ليلة إنزاله العظيمة إنّما هو رحمة مبالغ في عظمتها ، عامة في شمولها . ويستفاد هذا المعنى من دلالة هذه البنية على الكثرة ، " وساغ ذلك لأنّ المصدر جنس "[٦] .

أمّا البنية الصوتية للمصدر فالواضح انقسام أصواتها بين الجهر والهمس متناوبين ، وفيها إيحاء بقوة الحدث وإسماعه المتسقَين مع ما ذُكر من دلالات ، زيادة على ما يشيعه

---

(١) ينظر : المنصف : ١٧٩/١
(٢) ينظر : شرح النظام : ٧٩
(٣) الدخان : ٦
(٤) الكشاف : ٢٧٥/٤
(٥) كتاب الكليات : أبو البقاء : ٨١٧/١ ، وينظر : معاني النحو : ١٤٥/٢
(٦) المحتسب : ٣١٦/١

الهمس من راحة وطمأنينة في نفس المتلقي تناسب عظمة الرحمة ، وبخاصة أنّ السكون في صوت الحاء الحلقي الذي يخرج الهواء من الجوف عند نطقه أضفى عليه تطويلاً في النطق عكس راحة النفس وسكونها بهذه الرحمة العظيمة .

ومنها قوله تعالى : ((قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ اِئْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ))[١]، إذ قرئت لفظة (أثارة) قراءات متعددة ، فحملت على الاسمية غير الدالة على الحدث تارة، قال ابن فارس : " والأثارة البقية من الشيء والجمع أثارات "[٢] ، وعلى الاسمية المصدرية بصيغ مختلفة تارة أخرى ، فقرئت أثارة وإثارة وأَثَرَة وأثْرة بسكون الثاء[٣]. ويبدو أنّ القول بدلالة المصدر على المرّة يتساوق مع سياق الاحتجاج بالتحدي ، فالسياق ينفي وجود الحجة لديهم في انحرافهم عن عبادة الله (سبحانه) ، فساق ذلك على وجه التعجب التحقيري ، لذا تكون دلالة المصدرية المقيّدة بالمرّة أولى بالمقام ، لأنّها تزيد من تحقيرهم بتصغير الحجة المطلوبة منهم إثباتاً لصحة اعتقادهم ، قال ابن جنّي : " الأثْرَة والأثارة التي تقرأ بها العامة البقية وما يؤثر، وهي من قولهم : أثَرَ الحديث يأثر أثراً وأثَرَة ... وأمّا الأثْرَة ساكنة التاء فهي أبلغ معنى ؛ وذلك أنّها الفعلة الواحدة من هذا الأصل ، فهي كقولك : ائتوني بخبر واحدٍ، أو حكاية شاذة ، أو قد قنعت بالاحتجاج لكم بهذا القدر على قلته وإفراد عدده "[٤] . وسكون الثاء المهموسة الرخوة يعزز صفات الضعف فيها التي تومئ إلى ضعف هذه الحجة ، أمّا مدّها بحركة طويلة أو قصيرة مجهورة (الألف) فيقلل من ضعفها ، ومن ثم إيحاؤها بالضعف . زيادة على أنّ سكونها يزيد من هيمنة صوت الهمزة الشديد المقطوع الذي يوحي بقطعية عدم امتلاكهم دليلاً على انحرافهم عن خطّ الله ، وبخاصة أنّ هذا الصوت قد تكرر في الآية الكريمة مشكلاً بدايات مفاصل الاحتجاج النبوي ، فأضفى بقطعه وشدته جرساً قويّاً يساوق قوة وقطعية غلبة الحجة الربّانية عليهم .

---

(١) الأحقاف : ٤
(٢) مقاييس اللغة : ٥٥/١
(٣) ينظر : تهذيب اللغة : ٨٦/١٥ ، وتفسير أبي السعود : ٧٨/٨ ، وروح المعاني : ٥/٢٦
(٤) المحتسب :٢٦٤/١

وممّا جاء منها قوله تعالى : ((هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ))[١] ، والبغتة مصدر بغت ، ومعناها الفجأة ، وقد جاء داعماً لسياق حتمية وقوع العذاب قرب زمانه أو بَعُد ، " وقد أشعر بهذا المعنى تقييد إتيان الساعة بقيد (بغتة) ، فإن الشيء الذي لا تسبقه أمارة لا يُدرى وقت حلوله "[٢] ، فالمبالغة المستفادة من دلالة المصدر على مستوى بنيته أولاً ، وعلى مستوى وظيفته ثانياً ، تقوّي معنى سرعة وقوع العذاب الذي أشير إليه في الآية الكريمة بأكثر من قرينة ، منها الاستفهام الإنكاري ، والتعبير عن اليوم بالساعة تلميحاً لسرعة ما يحصل فيه ، وجملة (وهم لا يشعرون) ، والشعور العلم بحصول الشيء الحاصل[٣]. فعلى مستوى البنية تمت الإشارة سابقاً إلى أنّها تفيد المبالغة ، أمّا على مستوى الوظيفة فقد حمل المصدر على المفعولية المطلقة أو الحالية ، وكلاهما يتناغمان مع السياق القرآني ، إذ يستلزم توكيداً يستفاد من دلالة المفعول المطلق ، فالآية توعد بحتمية وقوع الساعة ومباغتتها ، وهو أمر منكر لدى المتلقي الآخر المعنى بالخطاب، وهذا الإنكار يتطلب توكيداً يقابله مراعاة لمقتضى الحال . كما أنّ لوقوع المصدر في موضع الحال دلالة على المبالغة في وصف صاحبه ، أي مبالغة في فجأة مجيء الساعة ووقوعها تتناسب مع سياق التهديد والوعيد في الآية الكريمة[٤] .

وفي السياق ذاته يطالعنا قوله تعالى : ((يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنتَقِمُونَ))[٥] ، فالإصرار على الكفر بالله (سبحانه) وإنكار البعث اللذان تمكّنا من النفوس تطلبا تهديداً ووعيداً على مستوى عالٍ مـن الترهيب تحقق بالمصدر معرّفاً ومقيّداً بدلالته على المرّة ، فالبطشة واحدة البطش وهـو الأخذ الشديد بعنف[٦]، وقد أفادها التقييد تخصيصاً ، فهي واحدة لا تكرار لها قادرة على تحقيق الانتقام . وموصوفاً بالكبر على وجه العموم والإطلاق اللذين يفيدان المبالغة . ولا يخفى ما فـي جـرس الألفاظ المتجانسة من دلالة على

(١) الزخرف : ٦٦
(٢) التحرير والتنوير : ٢٥/٢٥١
(٣) ينظر : المصدر نفسه
(٤) ينظر : دراسات في ظواهر نحوية : ١٩٦
(٥)الدخان : ١٦
(٦) ينظر : القاموس المحيط : ١/٧٥٥

تقوية المعنى وتأثيره في النفس ، وبخاصة صوتا الطاء والشين ، فالطاء إطباقي استعلائي يصعد اللسان إلى الحنك الأعلى عند نطقه حتى ينطبق عليه ، فيحتاج نطقه إلى جهد عضلي، وهو بهذه الصفات يصور إطباق الانتقام واستعلائه ، وما يعانيه المهددون بالخطاب من شدة الموقف وألمه . أمّا صوت الشين فيومئ إلى تفشي الحدث في المنذرين وشموله إياهم من دون استثناء . وقد زاد تناوب هذه الأصوات من قوة دلالتها وإيحاءاتها .

أمّا مصادر الأفعال غير الثلاثية ، فإنها محدودة الورود في سور الحواميم ، إلى الحد الذي يشكل ظاهرة لافتة ، إذ لم يجد الباحث منها سوى ما جاء على زنة (تَفْعِيل) و (افْتِعَال) و (فُعْلان) و (إفْعَال) ، وبشكل محدود لم يتجاوز عشر مرات لخمسة مصادر وهي : (تنزيل) و (تصريف) و(سبحان) و(اختلاف) و (وإحسان) . ويبدو أنّ ذلك مرتبط بطبيعة سور الحواميم أولاً ، وبالمصادر ثانياً ، فآيات سور الحواميم ركّزت على الموضوعات التي تتعلق بالجانب العقائدي والغيبي ترسيخاً للمفاهيم الأساسية التي يقوم عليها الدين ، ولا سيما أنّ المتلقين للخطاب القرآني مشبعون بصور الإنكار والكفر، متعلقون بالقضايا الحسّية ، بعيدون عن التصديق بالغيب ، فكانت هذه السور الكريمة ، تستعمل مختلف الأساليب اللغوية والعقلية والحسّية لإقناع هؤلاء أولاً ، ومن ثم التحرك عبر الزمن لإقناع الإنسان عموماً بصدقية وأحقية دعوة الله (سبحانه) . فكان استعمال المصدر وسيلة من وسائل التأكيد والإثبات للحدث أو المعنى الذي يدل عليه ، وأفضل المصادر تحقيقاً لهذا الغرض مصادر الفعل الثلاثي ولا سيما المجرّدة منها ، لأنّ دلالة المصدر على الحدث دلالة مطابقة ، فالحدث هو كل معنى المصدر وليس جزءاً منه(١). ولا يعني هذا أنّ مصادر غير الثلاثي لا تدل على الحدث ، وإنّما تكون دلالتها على الحدث بالنظر إلى معانٍ أخرى تضفيها الحروف الزائدة ، فمعانيها مرتبطة بما تدل عليه أفعالها مع تقييد بمعانٍ أخرى طارئة على المجرّد منها . فكأن المصدر المجرّد لما كان مطلقاً غير مقيّد وأريد الدلالة على معانٍ معينة زيد فيه لتخصيص معناه بعد أن كان عاما ، وهذا التخصيص يجعل

---

(١) ينظر : البحث النحوي عند الأصوليين : ١٤٤

المعنى الأصيل في المصدر أقل قوة لأنّ المتلقي سيلتفت إلى المعنى الطارئ الذي تشكّل بالحروف الزائدة .

بِنْية تَفْعِيل :

المشهور أن يأتي مصدر الفعل الثلاثي المزيد بتضعيف العين ـ إذا كان صحيحاً ـ على زنة (تفعيل) ، نحو : هذّب تهذيباً ، وعلّم تعليماً[1] ، وقد ارتبطت هذه الوحدة الصرفية بتنزيل الكتاب الكريم ، وتكررت في مطالع أربع سور من سور الحواميم ، وجاءت في وسط الخامسة ، وهي قوله تعالى : ((تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ))[2] ، وقوله تعالى : َ))تنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ))[3] ، وقوله تعالى : ((تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ))[4] ، وقوله تعالى ((لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ)) [5]، وفي استعمال المصدر في هذه المواضع دلالات متعددة ترسخت من بنيته المزيدة ، منها الثبوت والتوكيد ، أي إنّ المنزَل هو من عند الله (تعالى) ، ليس بكذب ولا من عند غيره[6] ، فالثبوت من خلفيته الاسمية والتوكيد منها ومن دلالة فعله ، لأنّ معاني المصادر المزيدة مرتبطة بما تدل عليه أفعالها[7] . ولمّا كان ما استعمل فيه (نزّل) أهم وآكد مما استعمل فيه (أنزل) ، كان في استعمال المصدر (تنزيل) من التوكيد ما يتسق مع حال المتلقي المنكر للكتاب وما جاء فيه من جهة ، ومع أصل ما أُصِر على تكذيبه ، وهو الوحي والرسالة من جهة أخرى . فتأكيد التنزيل كأنّه يعالج الأصل لا فروعه. ومنها إفادته معنى التدرّج ، أي نزول القرآن منجماً بحسب الحوادث ، " فتنزيل مصدر نزّل

---

(١) ينظر : الإيضاح في شرح المفصل : ٦٢٧/١ـ٦٢٨ ، وشرح الشافية : ١١٤/١
(٢) غافر : ٢
(٣) فصلت : ٢
(٤) الجاثية : ٢ ، الأحقاف : ٢
(٥) فصلت : ٤٢
(٦) ينظر : التفسير الكبير : ٢٤/٢٧
(٧) ينظر : بلاغة الكلمة في التعبير القرآني : ٦٦

المضاعف ، وهو مشعر بأنّه أنزله منجماً "[١]. وهو معنىً يراعي مقتضى الحال من جانبين، الأول أنّ الطاعنين بالكتاب تعللوا به ، إذ قال (سبحانه) على لسانهم : ((لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً))[٢] ، فجاء المصدر مقرراً هذه الحقيقة ليقابل إنكارها . والثاني ذكر حقيقة واقعة على وجه الإخبار يدركها المؤمنون والمكذبون . ومنها دلالة التكثير التي تفيدها هذه الوحدة الصرفية وفعلها[٣] ، فالمنزَل كثير لا بالنسبة لألفاظه ، بل لما تعالجه هذه الألفاظ من موضوعات كثيرة على درجة عالية من الخطورة يتوقف عليها مصير الإنسان . ولا يتعارض معنى التكثير مع التنزيل منجّماً ، بل ينسجم معه ، لأنّ الكثرة صفة لكل نجم منه ، وإن كان محدوداً من حيث الألفاظ ، فتنزيل الكتاب " أي الجامع من الحدود والأحكام والمعارف والإكرام لكل ما يحتاج إليه بإنزاله بالتدريج على حسب المصالح ، والتقريب للأفهام الجامدة القاصرة "[٤]. ولا شكّ في أنّ ما ذكر من دلالات يرتبط بالمعاني العامة المشتركة في هذه الصيغة الصرفية ، التي لا تتعارض مع السياق الذي وردت فيه ، بل تعززه وتتساوق معه وتسهم في أشعاعه بهذه الدلالات ، وليس المقصود انعـدام الدلالة المخصوصة في كلّ سياق على حدة ، وبخاصة أنّ التنزيل نسب لله (سبحانه) بصفات مختلفة تناسب السياق العام للسورة المباركة التي وردت فيها هذه الصيغة الصرفية .

أمّا البنية الصوتية للمصدر فتشكّلت من أصوات تغلب عليها صفات القوة والوضوح ، التي تتسق مع الدلالات التي أفادها المصدر ، فبدأ بصوت التاء الشديد الذي أغلق مقطعه القصير بصوت الميم المجهور الغني ، وفي هذا الانغلاق إيحاء بحسم التنزيل يقابل التشكيك به ، وأردف بصوت الزاي المجهور الاحتكاكي الذي يعد من أشد الأصوات الاحتكاكية احتكاكاً ، وقد امتد بالياء المجهورة ، وهو امتداد مسموع واضح كأن له أزيزاً يقرع أسماع المتلقين وينبههم ، وختم المصدر باللام المجهورة الذلقية المتحرّكة بحركة ثقيلة ، وهي صفة توحي بقوة المنزل وثقله ووضوح أحقية أتباعه .

---

(١) التحرير والتنوير : ٣١٤/٢٣
(٢) الفرقان : من الآية ٣٢
(٣) ينظر : المبدع في التصريف : ١١٢ -١١٣ ، وحاشية الصبان : ٣٠٦/٢
(٤) نظم الدرر : ٢٨٨/٧

ومنه قوله تعالى : ((وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ))[١] ، فالآية القرآنية من آيات إثبات التوحيد الأفعالي بأفعال القدرة الإلهية ، وهي أفعال باهرة سيقت لتبهر العقول المتعلقة بالحسّيات لجـذبها إلى الغيبيات وعلى رأسها التوحيد ، ومنها تصريف الرياح ، فـ (تصريف) مصدر صرّف ومجرّده صَرَف ، وهو تغيير الشيء من حال إلى حال ، ولا يختلف التصريف عن هذا المعنى إلّا في التكثير[٢]، لذا إنّ تصريف الرياح تغييرها من حالة إلى حالة على وجه التكثير والمبالغة لاختلاف أوجه التغيير ، تغيير في سرعتها ، وتقلب في إتجاهها ، وتنوع في فوائدها ، وكلّ ذلك مع تجددها في كل وقت . وبذا يكون استعمال المصدر في هذا السياق متناسقاً مع مقتضى حال ما عَبّر عنه ، ولا سيما أنّ طبيعة أصواته تنسجم مع طبيعة الرياح وحركتها ، فصوت الصاد الصفيري الاحتكاكي يعكس صوت الرياح وصفيرها ، وصوت الراء التكراري الموحي بالحركة واستمرارها يومىء إلى حركة الرياح وتكرار تقلّبها وامتداد أثرها الذي يوحي به امتداد الياء ، وأخيراً يأتي صوت الفاء بهمسه ورخاوته ليكرس مفهوم انصياعها لقدرة الله في تسخيرها آية من آيات نعمه (سبحانه) .

بِنْية اِفْتِعال :

وهي مصدر الفعل المزيد بهمزة الوصل والتاء ، سواء أكان متعدياً أم لازماً[٣] ، وقد جاء في الآية الكريمة السابقة في قوله تعالى : ((واختلاف الليل والنهار)) ، وفي استعماله في هذا الموضع دلالة على عظمة الحدث (الاختلاف) وثبوته واستمراره ، فالليل والنهار آيتان عظيمتان تتعاقبان بين ظلمة وضياء ، فالاختلاف " من الخلف وهو أن يجيء شيء

---

(١) الجاثية : ٥
(٢) ينظر : مفردات ألفاظ القرآن : ٤٨٢
(٣) ينظر : الكتاب : ٢٨٣/٤ ، والتصريف الملوكي : ١٥

عوضاً عن شيء آخر يخلفه في مكانه "[١] ، وفي استعمال المصدر وإضافته إلى الليل معطوفاً على النهار تعظيم لأمر الآية ، إذ لا ترتبط باختلافهما في أنفسهما فحسب ، بل بما يتعلق بهذا الاختلاف من نعم عظيمة وفوائد جمّة ، فلو حصل أي اختلال في هذا الميزان لانقلب النفع ضرراً ، قال تعالى : ((قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاء أَفَلَا تَسْمَعُونَ))[٢] ، وقال تعالى : ((قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ))[٣] . وفي المصدر (اختلاف) دلالة على المشاركة في الفاعلية ، فالليل والنهار متشاركان " في مجيء كلّ واحد منهما خلف الآخر وتعاقبهما "[٤] . ولأنّ اختلاف الليل والنهار سيق آية من آيات القدرة الإلهية التي تفرّد بها (سبحانه) ، لذا كان معنى المطاوعة التي تفيدها هـذه البنية الصرفية[٥] متناسقاً مـع هذا المعنى ، فتعاقب الليل والنهار وما يترتب عليه ، إنّما هو آية من آيات تسخير مخلوقاته ، فهي طيّعة بيد قدرته (سبحانه) ، لذا قال تعالى : ((وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ))[٦] ، يعـني سبب الاختلاف ، فسيرهما بإرادة الله لا بإرادتهما[٧]. والبنية الصوتية للمصدر بالهمس الذي غلب على صفات أصواتها (الخاء والتاء والفاء) ، وبرخاوة بعضها (الخاء والفاء) ، وبخفة اللام الممدودة بالألف ، بكل ذلك توحي باستجابة الليل والنهار لقدرة بارئهما ، زيادة على انسيابية التعاقب وامتداده وخفة حصوله . وهـذا يتسق مع كون هـذه الآيات أدلـة توحيد منشئها ومسخّرها (سبحانه) ، فلو كانت علتها غير القدرة الإلهية لما صلحت أن تساق دليلاً لمن يعقلون ، فالعقل يقضي حينئذ أن يعظّم هذه العلّة .

---

(١) التحرير والتنوير : ٧٨/٢
(٢) القصص : ٧١
(٣) نفسها : ٧٢
(٤) مفردات ألفاظ القرآن : ٢٩٥
(٥) ينظر : شرح الشافية : ١٠٨/١
(٦) الزمر : من الآية ٥
(٧) ينظر : التفسير الكبير : ١١/٢٦

بنْية إفْعَال :

وهي من المصادر القياسية للفعل الثلاثي المزيد بالهمزة ، نحو : أكرم إكراماً[١] .

ووردت في قوله تعالى : ((وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَاناً))[٢] ، وهو من باب إنابة المصدر مناب فعل الأمر بمعنى : أحسنوا بالوالدين إحسانا[٣] ، وهي إنابة تناسبت مع سياق التأكيد والمبالغة في الوصيّة على معنى وجوبها على سبيل الثبوت والتوكيد الذي يفيده المصدر مع دلالة العموم في الحدث والزمن ، فالإحسان المأمور به هو مطلق الإحسان ، في القول والفعل من دون التقييد بزمن معين ، إذ هو واجب أقرنه الله سبحانه بعدم الإشراك به دلالة على عظمة جرم تاركه . وفي استعمال المصدر في سياق الأمر الثابت سمو بالإنسان عن أن تظن به الإساءة إلى الوالدين ، زيادة على أنّ المطلوب فعل الخير لا مجرّد دفع الضرر ، بما يتجاوز ميزان العدل الواجب ، " فالإحسان زائد على العدل ، فتحري العدل واجب ، وتحري الإحسان ندبٌ وتطوع "[٤] ، فأخرج التطوع مخرج الواجب المأمور به على سبيل الثبوت والتوكيد مبالغة في تعظيم أمره . والبنية الصوتية لهذا المصدر تتسق مع معناه المعجمي ودلالته السياقية ، فالهمس المتعاقب في صفات أصواته يضفي جوّاً من الراحة والسكون يتناسب مع معنى الإحسان المطلق ، وبخاصة صوت الحاء الساكن الذي يرتبط نطقه بخروج الهواء من الجوف ، وكأنّه يصور بهمسه ورخاوته حالة سكون النفس المحسنة التي تنعكس فعلاً حسناً على الجوارح . وقد شكّل هذا الصوت قفلاً لمقطع قصير بدأ بالهمزة التي تحمل صفة ضعف وصفة قوة ، فهمسها يعزز معنى الإحسان ، وقطعها وشدتها يوحي بالقطع والتوكيد والوضوح الذي يقتضيه التبليغ المؤكّد ، الذي ساهم صوت السين الاحتكاكي بإشاعته بصفيره . وقد تأكدت الإيحاءات السابق بخفة النون وذلاقتها ووضوح نطقها . زيادة على أثر غنّتها في النفس التي تسهم في إثارة مشاعر المتلقي وتلفت انتباهه إلى ضرورة الالتزام بالوصية الإلهية .

---

(١) ينظر : شرح النظام : ٧٣

(٢) الأحقاف : من الآية ١٥

(٣) ينظر : الكشاف : ١٨٦/١ ، ٥٤١/١ ، والجامع لأحكام القرآن : ١٣/٢

(٤) مفردات ألفاظ القرآن :٢٣٦-٢٣٧ ، وينظر : الفاصلة القرآنية : عبد الفتاح لاشين : ١٠١

اسم الفاعل

بناء من إفرازت اشتقاقات اللغة العربية ، فهو " ما اشتق من فعل لمن قام به على معنى الحدوث ، كضارب ومكرم "[1] ، ويمثل جسراً بين الاسمية والفعلية ، إذ يحمل من صفاتهما ما يؤهله أن يكون صالحاً لشغل وظائفهما . فهو اسم يتصرف تصرف الأسماء الجامدة فيقع فاعلاً ومفعولاً ومبتدأ ، وغيرها من وظائف الاسم الجامد ، زيادة على وظيفته وصفاً مشتقاً يقع خبراً أو حالاً أو صفة إلى غير ذلك . ويحمل مع هذا كلّه علاقة وثيقة بالفعل دفعت البصريين إلى القول إنّه فعل في صورة الاسم ، إذ إنّ معناه وعمله كالفعل . أمّا الكوفيون فذهبوا إلى أنّه فعل محض ، أطلقوا عليه الفعل الدائم[1] . ولا شك في أنّ ميزاته الاسمية والفعلية جعلته عنصراً لغوياً مهماً في الاستعمال القرآني بعامة ، وفي سور الحواميم على وجه الخصوص ، وأبرز هذه الميزات الجمع بين دلالتين ، دلالة الذات الاسمية ، ودلالة الحدث الفعلية على وجه نسبة ذلك الحدث إلى تلك الذات ، وهي نسبة يعبّر عنها باتصاف الذات بالحدث ، فاسم الفاعل ما دلّ على الحدث والحدوث وفاعله[2] . وهو بهذا يمثل تكثيفاً دلالياً ، وإيجازاً لغويّاً يغني عن تعدد الألفاظ ، زيادة على خصوصية اتصاف الذات بالحدث في اسم الفاعل عنه في الفعل ، من جهة تلبس الحدث بالفاعل على وجه الصدور والقيام ، فاسم الفاعل يعني " نسبة الفعل إلى الفاعل بطريق الصدور والقيام والإسناد ، ولا يقال في الاصطلاح إنّه متعلق به ، فإنّ التعلق نسبة الفعل إلى غير الفاعل "[3] .

---

(١) شرح شذور الذهب : ٤٩٦/١

ومنها ـ أي مميزاته ـ دلالتا الثبوت والتجدد ، الثبوت الاسمي والتجدد الفعلي اللذين لا يتناقضان في اسم الفاعل ، فهو اسم ، و" أنّ موضوع الاسم على أن يثبت به المعنى للشيء من غير أن يقتضي تجدده شيئاً بعد شيء ،... فإذا قلت : زيد منطلق فقد أثبت الانطلاق فعلاً له ، من غير أن تجعله يتجدد ويحدث منه شيئاً فشيئاً "(٤) . إلّا أنّ علاقته بالفعل المضارع من جهتي اللفظ والمعنى فتحت باباً لدلالته على التجدد والحدوث اللذين يفيدهما الفعل المضارع ، وهو بهذا يمتلك خاصية ينماز بها عن الأسماء والأفعال ، وهي " إنّ اسم الفاعل يدل في كثير من المواضع على ثبوت المصدر في الفاعل ورسوخه فيه ، والفعل الماضي لا يدلّ عليه ، كما يقال : فلان شرب الخمر ، وفلان شارب الخمر ، وفلان نفذ أمره ، وفلان نافذ الأمر ، فإنّه لا يفهم من صيغة الفعل التكرار والرسوخ ومن اسم الفاعل يفهم ذلك "(١). وقد رسّخ النحويون هذا المفهوم من خلال وصفهم عمل اسم الفاعل عمل الفعل وربطه بدلالته الزمنية ، فهو عامل عندهم إذا كان دالاً على الحال والاستقبال كشبيهه (الفعل المضارع) ، أمّا إذا كان دالاً على ما وقع وانقضى من الأحداث فهو ليس بعامل ، بل يجري مجرى الأسماء التي من غير ذلك الفعل(٢) .

---

(١) ينظر : معاني القرآن للفراء : ١٦٥/١ ، مجالس ثعلب : ٤٤/١ ، ٣٠٩ ، والمصطلح النحوي : ١٨٥، ومدرسة الكوفة ومنهجها في اللغة والنحو : ٢٣٩

(٢) ينظر : شرح التصريح على التوضيح : ٢ / ٦٥ ، ومعاني الأبنية : ٤٦

(٣) الكليّات : ٢٦٥/٥

(٤) دلائل الإعجاز : ١٤١

إنّ استعمال اسم الفاعل في سور الحواميم القرآنية جاء معبّراً عن الثبوت والحدوث ، مع تقدم أحدهما على الآخر في الأولوية ، والسياق هو الحاكم في ذلك كلّه ، إذ يكون ثبوت المعنى ورسوخه هو الأساس في سياق معين ، والحدوث والتجدد يمثل الأولوية في سياق آخر . فدلالة الرسوخ بتلبس الحدث بفاعله في اسم الفاعل وتكرره تتسق مع وصف حال الكافرين واستحقاقهم العذاب تهديداً ووعيداً ، إذ إنّ هناك تناسقاً في مفهوم الثبوت بين العمل وجزائه ، وبخاصة في العقيدة التي هي من مرتكزات الخطاب القرآني في هذه السور المباركة . ففي ذكر ما جرى على الأقوام السابقة من عذاب استئصال يطالعنا قوله تعالى : ((وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ۞ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ۞ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ))[٣]، إذ إنّ عذاب الاستئصال الذي وقع بهؤلاء إنّما يتلاءم مع ثبوت العقيدة الكافرة ورسوخها في نفوسهم وتجددها فيهم ، بل وانتقالها على وجه التطابق إلى المعنيين بالخطاب القرآني (كفار قريش) ، فتقليد الآباء ضلال قديم ليس لأسلافهم سند غيره[٤]. لذا إنّ ثبوت الاقتداء الباطل المؤدي إلى الكفر الراسخ المتجدد يستحق عذاب الاستئصال الثابت الوقوع بدلالة الفعل الماضي (فانتقمنا) ، مع مغايرة دلالية بين ثبوت العذاب ورسوخ علّته

---

(١) التفسير الكبير : ٢٧/٢٥
(٢) ينظر : الكتاب : ١٧١/١
(٣) الزخرف : ٢٣ ـ ٢٤
(٤) ينظر : تفسير أبي السعود : ٤٤/٨

(الكفر) ، وهي وقوع العذاب على الموصوفين بالخطاب القرآني من دون النظر إلى تكراره ، فكلّ أمّة كفرت برسلها كان لها عذاب مخصوص ، قال تعالى : ((فَكُلّاً أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا))(١) ، أمّا التقليد الباطل والكفر المعبّر عنهما باسم الفاعل ففيهما معنى الثبوت والرسوخ مع التجدد والتكرار ، لذا سيقا على وجه التشابه بين الأقوام الغابرة وقوم الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ، يدلنا على ذلك ابتداء الآيات الكريمة بقوله (وكذلك)، " أي والأمر كما ذكر من عجزهم عن الحجة وتشبثهم بذيل التقليد "(٢) .

إنّ ما يلفت النظر في البنية الصوتية لاسمي الفاعل (مقتدون وكافرون) هو التساوق بين دلالة اللفظة وإيحاء أصواتها ، فالاقتداء ناتج عن تشبثهم بعادات الآباء التي يفصلها عنهم الامتداد الزمني ، وهو ما يوحي به المقطع الأخير ، وهو مقطع طويل ممتد بحركة طويلة (الواو) ، وقد استمر الامتداد بصوت النون الذي أغلق المقطع ، وهو صوت شبيه بالحركة ينماز بالامتداد الصوتي بحسب السياق الذي يرد فيه ، فإذا دلّ على القطع ـ كما هو الآن ـ كان القطع فيه مستمراً مؤكّداً(٣) . زيادة على أنّ المقطع الأول الذي يبدأ بصوت الميم المتحرّك بالضم الثقيل يومىء إلى انحرافهم من خلال انحراف الهواء إلى الأنف لانسداد مجراه ، وقد أغلق بالقاف الساكنة المستعلية التي توحي باستعلائهم وتكبرهم . وكذلك لفظة (كافرون) ، فامتداد مقطعها الأول بصوت الألف الذي يحكي المدّ إلى الأمام ، ومقطعها الأخير الممتد بالواو فيهما إيحاء بامتداد كفرهم واستمراره بقوة يفيدها صوت الواو وصوت الراء المجهور المتكرر . ويلحظ في اسمي الفاعل في الآية الكريمة فارق يرتبط بصفتي القوة والضعف المهيمنة على أصواتهما ، إذ هيمنت صفات القوة على الاقتداء ، بينما كان الضعف واضحاً في أصوات الكفر من خلال همس الكاف والفاء . ويبدو أنّ ذلك يرجع إلى قوة إصرارهم على الاقتداء بآبائهم قبل أن يساق الدليل على بطلانه ، وضعف حجتهم الدافعة إلى الكفر ، بعدما واجهوا الحجة الدامغة التي يضعف أمامها إصرارهم على الكفر

---

(١) العنكبوت : من الآية ٤٠

(٢) تفسير أبي السعود : ٨/٤٤

(٣) ينظر : التغيّر الصوتي في الفواصل القرآنية ودلالاته (أطروحة دكتوراه) : ٤٤

من دون دليل ، وهي قوله تعالى على لسان النذير : ((أولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم)) .

ومنه قوله تعالى : ((إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ۝ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ۝ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ))(١) ، فالتلاؤم واضح بين الوصف والجزاء باستعمال اسم الفاعل بصيغتيه ، أي من الثلاثي على زنة (فاعل) ، ومن غير الثلاثي ، بإبدال حرف المضارعة ميماً مضمومة وكسر ما قبل الآخر ، إذ إنّ الإجرام راسخ في نفوسهم على وجه التلبس ، وكأنهم قد اعتادوه ، فتجدد في سلوكهم تجدداً ثابتاً ، فاستحقوا الجزاء بالعذاب الخالد في جهنم ، فهو استحقاقهم الثابت المتجدد الذي لا خلاص لهم منه ، لذا كان اليأس راسخاً فيهم ،" والمبلسُ اليائس الساكت سكوت يائس من فرج "(٢). وكلّ ما يجري عليهم من عذاب لا بظلم من الله (سبحانه) ، بل لأنّ الظلم تلبس في نفوسهم وتكرر في أفعالهم إلى الحد الذي استنفدوا فيه نصيبهم من حلم الله عليهم ، فكان العذاب . ولا شكّ في أنّ الامتداد بالواو في المقطع الأخير في اسمي الفاعل (خالدون ومبلسون) يوحي بالامتداد الزمني الثقيل لبقائهم في جهنم مبلسين ، فصوت الواو ثقيل يضيق مجرى الهواء عند نطقه في موضعين ، مرّة داخل الفم وأخرى عند استدارة الشفتين ، ليشير بهذا الثقل إلى الحالة النفسية السيئة التي يمرّ بها الكافرون إثر معاناتهم من العذاب والهوان(٣) . أمّا الامتداد بالياء في (الظالمين) فيحكي امتداد الظلم فيهم الذي هو علّة ما يعانون من عذاب ، وإذا ما عرفنا أنّ الياء تلي الألف في سعة الامتداد ، قال سيبويه : " وأخفاهن وأوسعهن مخرجاً الألف ، ثم الياء ، ثم الواو "(٤) تبين لنا تناسب العذاب مع العمل ، فامتداد الجرم والظلم فيهم أدّى إلى امتداد العذاب .

---

(١) الزخرف : ٧٤ ـ ٧٦
(٢) التفسير الكبير : ١٩٤/٢٧
(٣) ينظر : الدلالة الصوتية في آي مشاهد القيامة : ٧٣
(٤) الكتاب : ٤٣٦/٤

وفي سياق التهديد والوعيد أيضاً نجد قوله تعالى : ((إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ۞ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنتَقِمُونَ))[١]، " وصيغة الفاعل في الفعلين للدلالة على تحققها لا محالة ، ولقد وقع كلاهما ، إذ كشف الله تعالى بدعاء النبي (صلى الله عليه وسلم) "[٢] ، ولمّا كان كشف العذاب استجابة لدعاء من قالوا : (ربنا اكشف عنا العذاب) ، لم ينظر إلى التجدد في دلالة اسم الفاعل ، بل أجري مجرى الأسماء بإضافته إلى العذاب إثباتاً لقدرة الله (سبحانه) ، وتأكيداً لوقوع الاستجابة ، لذا تقيّد الكشف بالقليل ، ولو كان متجدداً لرفع القيد ، وأصبح كشف العذاب مطلقا . أمّا العودة إلى الكفر ونتيجتها أي (الانتقام) فكانا مطلقين من دون قيد ، ثابتين ثبوتاً تجددياً ، فعودة الكافرين لكفرهم ثابتة لتلبسه بهم ، متجددة تجدد وقوع الضرّ عليهم ، قال تعالى : ((وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ))[٣] . وكذلك الانتقام، فهو ثابت الوقوع ثبوت عودتهم إلى الكفر ، متجدد تجدداً ثابتاً ، فهو سنة من سنن الله (سبحانه) في الكافرين ، " أي ذلك صفة ثابتة لم نزل نفعلها بأعدائنا لنسر أضدادهم في أوليائنا "[٤]. ويلحظ في أسماء الفاعلين في الآية الكريمة تباين في البنية الصوتية ، يتمثل بضعف صفات أصوات الأول منها (كاشفوا) ، وقوة صفات أصوات الآخرين (عائدون ومنتقمون) ، فهمس أصوات الأول (الكاف والشين والفاء)، ورخاوتها (الشين والفاء والواو المتوسطة) ، تشيع جوّاً من الراحة والسكون ـ يقوّيه تفشي صوت الشين ـ لدى المتلقي يتسق مع معنى رفع العذاب ، كما تومئ إلى سهولة الفعل ويسره بالنسبة لقدرة الله (جلّ وعزّ) . أمّا أصوات حدث العودة والانتقام فغلبت عليها صفات الجهر والشدة ، موحية بقوة الحدث متلبساً بالذات . زيادة على تباين المقطع الأخير في هذه الأحداث ، فكشف العذاب انتهى بمقطع قصير مغلق بدأ بالفاء المهموسة المتحركة بحركة قصيرة ، وأغلق بصوت اللام (فُل) نتيجة إدغام اللفظة بلاحقتها ، وفي هذا القصر (قصر المقطع) إيماء إلى قلة زمن كشف العذاب . أمّا اسما الفاعلين الآخرين فكانت نهاياتهما مقطعين

---

(١) الدخان : ١٥ ـ ١٦
(٢) تفسير أبي السعود : ٦١/٨
(٣) الروم : ٣٣
(٤) نظم الدرر : ١/٨

طويلين مغلقين بصوتي النون ، ليومئا إلى امتداد العودة للكفر في نفوسهم ومن ثم امتداد الانتقام فيهم . ولعل ما يحدث في صوت النون من انحراف الهواء إلى الأنف نتيجة انحباس مجراه في الفم ، مكوناً ما يسمى بالغنّة[١] فيه إيحاء إلى انحرافهم بالعودة إلى كفرهم، وتغيير مسار انكشاف العذاب باتجاه الانتقام وانحباسهم فيه . كما أنّ الغنّة في النون تنبّه المتلقي وتثير انتباهه وتحرّك فيه مشاعر الخوف .

وقد تكرر ورود اسم الفاعل واصفاً حال الكافرين وما يرتبط به من عقاب ، فكما أنّ الكفر ومصاديقه السلوكية قد تلبّس فيهم ، كان الجزاء حتمياً ثابتاً . ولمزيد من التوكيد يلفت النظر التلازم بين اسم الفاعل والجملة الاسمية ، إذ إنّ أكثر ما ورد منه يمثل أحد أركانها أو توابعها ، وقد يكون مرد ذلك تعويض دلالة الحدوث فيه ، فـ " صيغة الفاعل موضوعة للحدوث ، والحدوث فيها أغلب ، ولهذا أطّرد تحويل الصفة المشبهة إلى فاعل كـ (حاسن) و(ضائق) عند ذكر النص على الحدوث "[٢] .

وكذا الحال في سياق الترغيب بذكر أحوال المؤمنين وجزائهم ، إذ تلبّس الإيمان في نفوسهم وتجدد في سلوكهم ، فكان الجزاء ثابت الوقوع متحرّك المراتب بتحرّك الأفعال وتصاعدها باتجاه الإيمان . ففي قوله تعالى : ((إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ۞ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ))[٣] ، لا شكّ في أنّ التقوى من مراتب الإيمان العليا التي يصل إليها الإنسان بعد أن يطوي مراحل التغلب على هوى النفس وغرائزها ، لذا فهي شاملة لهذه المراحل ، فالتقوى لم تصل إليها الذات ولم تتلبس بها إلّا بالحركة المستمرة باتجاه الإيمان والصبر عليه ، أي إنّ حالة الإيمان متجددة تحت هذا المفهوم ـ أعني مفهوم تكاملها على مراحل ، وتحرّكها باتجاه ما يمكن أن يصل بالعبد المؤمن إلى حالة كونه من المتقين ـ أمّا لكونها أثراً قلبياً ، والتعبير باسم الفاعل يفيد دلالة ثبوتها ورسوخها في القلب ، ولا سيما قلب المؤمن ،

---

(١) ينظر : جهود علماء العرب في الدراسة الصوتية ، إبراهيم أنيس ، مجلة مجمع اللغة العربية ، ج١٥، ١٩٦٢م : ٤٥

(٢) شرح الشافية : ١٩١/٢ ، وينظر : شرح الرضي على الكافية : ٤١٤/٣

(٣) الدخان : ٥١،٥٥

" ومن هذا يعرف لمَ قيل (الَّذِينَ يُنفِقُونَ)[١] ، ولم يقل (المنفقين) في غير موضع؟ وقيل كثيراً (المؤمنون والمتقون) لأنّ حقيقة النفقة أمر فعلي شأنه الانقطاع والتجدد ، بخلاف الإيمان ، فإنّ له حقيقة تقوم بالقلب يدوم مقتضاها ، وإن غفل عنها ، وكذلك التقوى والإسلام ، والصبر والشكر ، والهدى والضلال ، والعمى والبصر ، فمعناها أو معنى وصف الجارحة ، كلّ هذه لها مسمّيات حقيقية أو مجازية تستمر ، وآثار تتجدد وتنقطع ، فجاءت بالاستعمالين ؛ إلا أنّ لكل محلّ ما يليق به ، فحيث يراد تجدد حقائقها أو آثارها فالأفعال ، وحيث يُراد ثبوت الاتصاف بها فالأسماء "[٢]، لذا كان الجزاء حتمي الوقوع ، متجدد الأثر تجدد الإيمان فـي ساحة العمل (الدنيا) ، إلى حدّ الخلود . فكان التعبير باسم الفاعل المجموع (آمنين) يحقق الثبوت والتجدد والاختيار ، كأنّ الأمن من فعلهم ، كما أنّ التقوى من اختيارهم . ولا شكّ في أنّ الأمـان في يوم الحساب مـن نعم الله يهبه مـن يشاء مـن عباده . ويبدو أنّ تكرار صوتي الميم والنون المجهورين اللذين ينمازان بغنّتهما يثير مشاعر المتلقي ، ويؤثر فيه ، ويعزز معنى الرغبة لديه ، ويجعل شوقه إلى ذلك المشهد جيّاشاً[٣] . زيادة على أنّ الامتداد الصوتي في أول اسم الفاعل وآخره (آمنين) يقوّي المعاني السابقة بإيمائه إلى امتداد النعيم ، وإشاعته جوّاً من الراحة والسكون ، ولا سيما إذا خُتمت الفاصلة القرآنية بمقطع مديد موقوف عليه ، فيكون النبر على نهايتها ، ويعلو جرس الصوت الأخير (النون) ، ويعلو معه صوت المدّ الذي يسبقه فتهيمن على السياق إيحاءات هذه الأصوات من امتداد وخوف وسكون نفس[٤] .

ومنه قوله تعالى : ((يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ))[٥]، فالموقف من الساعة متباين أشد التباين بين المنكرين والمؤمنين ، وقد أظهرت الآية الكريمة هذا التباين وبرّزته باستعمال الفعل المضارع الدال على التجدد والحدوث من غير توكيد ولا ثبوت في الإشارة إلى موقف منكري المعاد ، ليتساوق مع

---

(١) البقرة : من الآية ٢٧٤
(٢) البرهان في علوم القرآن : ٤/٦٧
(٣) ينظر : الدلالة الصوتية في آي مشاهد القيامة : ١٣٩
(٤) ينظر : التغيّر الصوتي في الفواصل القرآنية ودلالاته : ١٦٧
(٥) الشورى : من الآية ١٨

عقيدتهم المبنية على الشك والريب ، على حين جاء اسم الفاعل للتعبير عن عقيدة المؤمنين الراسخة في قبولهم القيامة وخشيتهم منها ، فهم مشفقون منها ، " أي خائفون منها مع اعتناء بها ، فإنّ الإشفاق عناية مختلطة بخوف "[١] ، وهو إشفاق ثابت متلبّس بنفوسهم ، متجدد في سلوكهم ، مستمر استمرار معرفتهم اليقينية بحتمية وقوعها (القيامة) ، وقد عُبّر عن ذلك بالفعل المضارع (يعلمون) ، الذي أغنى معناه المعجمي عن تأكيده أو ترسيخه بالإسمية ، كأن يقال : مشفقون منها وعالمون أنّها الحق . ويتضح ممّا يتقدم أنّ استعمال اسم الفاعل نائباً عن المضارع أكثر ثباتاً في تبيان الفرق بين الموقفين ، إذ دل اسم الفاعل على ثبات الوصف وعدم تحوله وزيادة في وقوع الحدث[٢] . ويلفت النظر في أصوات اسم الفاعل (مشفقون) توسط الأصوات المهموسة (الشين والفاء والقاف) بين الأصوات المجهورة (الميم والنون) ، لتضفي بهمسها جوّاً من السكون يتسق مع حالة الخوف والرهبة اللذين سيطرا على نفوس الموصوفين وانتشرا فيها على سبيل التفشي الذي يفيده صوت الشين . وقد أضفى صوتا الميم والنون اللذان اكتنفا هذه الأصوات بجهرهما وغنّتهما قوة أومأت إلى تمكن دلالة أصوات الهمس من نفوس الموصوفين وامتدادها فيهم ، وبخاصة أنّ هذه الأصوات تشبه الحركات في قوة وضوحها السمعي وامتدادها لحرية مرور الهواء معها ، فهواء هذه الأصوات يخرج حرّاً طليقاً كالحركات ، ولكنّه مع الحركات يخرج من وسط الفم، ومع هذه الأصوات يخرج من الأنف[٣] ، فيسهم في امتدادها وقوة تأثيرها في النفس .

وفي سياق إثبات القدرة الإلهية آيةً من آيات توحيده يرد اسم الفاعل معبّراً عن تناسب السياق مع مقتضى حال المتلقي المنكر المعاند ، الذي يقتضي خطابه تثبيتاً للمعنى ، كقوله تعالى : ((أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ))[٤] ، فالآية الكريمة تستدل على إمكان البعث بخلق السماوات والأرض استدلالاً عقلياً ، فالرؤية علمية ، والحجة بيّنة مشاهدة على ما هو

---

(١) روح المعاني : ٢٦/٢٥
(٢) ينظر : الإعجاز الصرفي في القرآن الكريم : ١٠١
(٣) ينظر: علم اللغة العام ، الأصوات : ١٣١
(٤) الاحقاف : ٣٣

دون الحجة المساقة عظمة ، "ولا شكّ في أنّ خلقـها أعظـم وأفخـم من إعادة هذا الشخص حياً بعد أن صار ميتاً ، والقادر على الأقوى الأكمل لابدّ وأن يكون قادراً على الأقل والأضعف"[١] وهو إحياء الأموات ، لذا عبّر عن هذه القدرة باسم الفاعل ليقابل ثبوت معنى خلـق السموات والأرض الذي أفاده الفعل الماضي (خلق) ، فالخلق كائن مشاهّد ، والإحياء غيبيّ ينتظر البعث ، لذا جاء اسم الفاعل يثبت القدرة الغيبية ويرسّخها في قلوب المتلقين للخطاب القرآني ، مع إفادة دلالة التكرار التي تقوي مفهوم القدرة على الإحياء وترسخ تهوينهُ ، فالأمر إذا تكرر وتجدد دل ذلك على يُسره بالنسبة لفاعله وتلبّسه به ، وهو ما يتسق مـع كون القدرة صفة مـن صفات الله (سبحانه) ، تجـري على الإحياء وغيره ، وهـو مـا أفادته فاصلة الآية الكـريمة (إنه على كل شيء قدير) . زيادة على ذلك يبدو واضـحاً أنّ استعمال الفعـل الماضي مـع خلـق السمـوات والأرض الكائنين ، واستعمال اسم الفاعل مـع إحياء الموتى الغيبي يؤكّـد خصوصية اسم الفاعـل فـي الدلالة على ما لا يدل عليه الفعـل الماضي ، " فإنّه لا يفـهم مـن صيغة الفعـل التكـرار والرسـوخ ، ومـن اسم الفاعـل يفهم ذلك "[٢] . ولمّا كان الحدث عظيماً ، وسيق لإثبات الغيـب الذي ينكره المخصوص بالخطاب كانت أصـواته تغلب عليها صفات القوة ، وبخـاصة أنّه بـدأ بصـوت القاف الشـديد المستعلي الذي عدّه الخليل ـ ومعه صوت العين ـ " ..أطلق الحروف وأضخمها جرساً "[٣]، وقـد امتدت فخـامته واستعلاؤه بصـوت المدّ (الألف) ، فازداد دلالة على استعلاء القـدرة الإلهية وقوتها . وقد تعززت قوة الحدث بالدال المجهورة والراء المتكررة التي توحي بتكرار فعل الإحياء واستمراره .

وفي هذا السياق ـ أي سياق القدرة ـ يطالعنا قوله تعالى : ((وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ))[٤] ، إذ يظهر في الآية الكريمة التناسق بين الفعل المضارع (ترى)

(١) التفسير الكبير : ٣٠/٢٨
(٢) المصدر السابق : ٢٧/٢٥
(٣) العين ٥٣/١
(٤) فصلت : ٣٩

وشبيهه اسم الفاعل (خاشعة) ، من ناحية الدلالة على التجدد والحدوث ، فالرؤية متجددة حادثة ، والخشوع كذلك ، فما دامت الأرض خالية عن المطر والنبات ، استمرت رؤيتها بحال التذلل والتصاغر ، وهي حال ثابتة فيها ، مترسّخة في طباعها وخصائصها ، متكررة تكرير منعها المطر والنبات ، تعكسها صفات الضعف في أصوات اسم الفاعل (خاشعة) ، فامتداد صوت الخاء المهموس الرخو في مقطع طويل مفتوح يعزز دلالة التذلل والسكون الممتدين في الأرض ما دامت رحمة الإسقاء الإلهي متوقفة ، على وجه تلبّس هذه الصفة وتفشيها الذي يوحي به صوت الشين المهموس الرخو الموصوف بالتفشي . ومن ثَم يأتي صوت العين الذي يومىء من خلال طريقة نطقه الجوفية إلى أنّ الأرض (سكانها) كأنّها تختنق وتشكو من حالها .

إنّ خشوع الأرض الذي تلبّس بها ، وثبت في طباعها ، وجاء معبّراً عنه باسم الفاعل ، تقابله صورة أخرى مُلئت حركة ، فإنزال الماء يؤدي إلى حركتها بالنبات وانتفاخها ، " لأنّ النبت إذا قرب أن يظهر ارتفعت له الأرض وانتفخت ، ثم تصدعت عن النبات "[1] ، وقد سيقت هذه الصورة الحيّة دليلاً على إحياء الموتى للحساب الذي عبّر عنه باسم الفاعل ترسيخاً له في ذهن المتلقي ، وبخاصة المنكر ، فإحياء الموتى ثابت الحصول ، متلبّس بذات الله ، فهو صفة من صفاته (سبحانه) . لذا يمكن القول إن استعمال الأفعال جاء مع الأحداث الحسّية التي تتصف بكونها أمراً فعليا ينماز بالانقطاع والتجدد ، أمّا ما كان غيبيّاً لم تدركه حواس الإنسان في الحياة الدنيا ، وهو مرتبط بعقيدة المعاد الغيبية التي يصرّ على إنكارها الكافرون ، فكان على صيغة اسم الفاعل المضاف استجلاباً لاسميته لتحقيق مزيد من توكيد المعنى وترسيخه في أذهان المخاطبين . زيادة على أنّ اسم الفاعل " أشعر بثبوت الصفة " [2] ، وهو ما يتناسب مع كون الإحياء صفة من صفات الله (عزّ وجلّ) .

---

(١) التفسير الكبير : ١١٣/٢٧

(٢) البرهان في علوم القرآن : ٦٧/٤

وفي سياق القدرة نفسها نجد قوله تعالى : ((ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ))[١] ، إذ وردت هذه الآية بعد أن سيقت دلائل القدرة على وجود الإله القادر الجامع لتلك الأوصاف التي لا يشاركه فيها أحد[٢] ، وقد ختمت الآية الكريمة آيات القدرة بأعظمها ، وهي الخلق ، خلق كلِّ هذه الآيات وغيرها ، وقد سيقت على صيغة اسم الفاعل ترسيخاً لثبوتها صفة من صفاته (سبحانه) ، وقد أُكّد إثباتها بإضافة اسم الفاعل وقطعه عن العمل ، مما يقرّبه أكثر من دلالة الاسم على الثبوت واللزوم ، ليتساوق مع سياق الإنكار أوّلاً ، ومع المفهوم العقائدي ثانياً ، إذ ورد اسم الفاعل خبراً ، ومعنى ذلك أنّ ما يوصف به الله (سبحانه) ، لابد أن يكون وصفاً ملازماً لذاته ، فصفات الله ليست مغايرة لموصوفها ولا زائدة عليه ، بل هي " مع كونها قديمة وأزلية ، فهي في نفس الوقت* عين ذاته سبحانه لا غيرها "[٣] ، فما جاء من اسم الفاعل وصفاً لله (سبحانه) فالنظر فيه إلى الثبوت ، " فاسم الفاعل يدل على الثبوت في الصفات التي تلازم الموصوف "[٤] .

أمّا إذا كان اسم الفاعل منوناً ـ أي عاملاً ـ فيقترب في دلالته على الحدوث والتجدد من الفعل أكثر[٥]، ونلمس ذلك واضحاً في قوله تعالى : ((وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ))[٦]، فالدعوة (كلمة التوحيد) جعلها الله (سبحانه) في ذرية آدم متحرّكة من جيل إلى جيل ، ومن نبي إلى نبي ، ومن إمام إلى إمام ، مع ثبوتها ورسوخها فيهم ، قال تعالى : ((قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ))[٧] ، فاسم الفاعل (باقية) جاء معبّراً عن معنى التجدد فيمن يحمل هذه الرسالة (التوحيد) عن قابل ، إذ يقال لمن يتوقع منه رئاسة قومه : هذا رائس ، أي من يكون خلفاً لرئيس قومه[٨] . ويتأكّد هذا المعنى بابتداء اسم الفاعل (باقية) بمقطع طويل مفتوح ، يبدأ بصوت الباء

---

(١) غافر : ٦٢
(٢) ينظر : التفسير الكبير : ٧٢/٢٧
(٣) العقيدة الإسلامية للسبحاني : ٤٥
(٤) التحليل اللغوي في ضوء علم الدلالة : ٧٢
(٥) ينظر : منازل الرؤيا ، منهج تكاملي في قراءة النص : ٩٦
(٦) الزخرف : ٢٨
(٧) البقرة : من الآية ١٢٤
(٨) ينظر : لسان العرب : (رأس) : ٩٣/٦

المجهور الشـديد الممتد بالألف ، الذي يصلح للتنبيه ، ويحـكي امتداد الأصوات التي قبله ، فكأنه " إعلان عام في ساحة الوجود الكبير ، إعـلان ينطلق من الملأ الأعلى فتتجاوب به أرجاء الوجـود ... بهـذا الإيقاع الصـاعد الذاهـب إلى بعيد يجلجل فـي طباق الوجود ، ويخاطـب كلّ موجود ، ويتلقّت على رنّته كل كائن ، وهـو يملأ فضـاء السماوات والأرض، ويبلغ إلى كلّ سمع وكلّ قلب "[١] .

(١) في ظلال القرآن ٣١٨٥/٥

أبنية المبالغة

قد يُعدَل عن اسم الفاعل إلى أبنية متعددة تدل على تكثير المعنى وتوكيده والمبالغة فيه ، وهي أبنية المبالغة ، فاسم الفاعل يدل على أمرين ، هما : معنى الحدث وصاحبه ، وهو معنىً مجرد يحتمل القلة والكثرة ، والقوة والضعف ، لذا يُحوَّل إلى تلك الأبنية لإفادة وصفه بالمبالغة والكثرة[١] ، ومن هنا لم تجر مجرى الفعل ، وإنّما جرت مجرى المنسوب ، قال المبرد : " هذا باب ما يبنى عليه الاسم لمعنى الصناعة ، لتدل على المنسب على ما تدل عليه الياء ، وذلك قولك لصاحب الثياب ثوّاب ، ولصاحب العطر عطّار ، ولصاحب البز بزّاز ، وإنّما أُصل هذا لتكرير الفعل ، كقولك : هذا رجل ضرّاب ، ورجل قتّال ، أي هذا منه ، وكذلك خيّاط ، فلمّا كانت الصناعة كثيرة المعاناة للصنف فعلوا به ذلك "[٢]. وقد تعددت صيغ أبنية المبالغة ، ولكنّ الأشهر فيها الذي أولاه العلماء أهمية أكبر خمسة أوزان ، هي فَعِل وفَعُول وفَعِيل وفَعَّال ومِفْعَال[٣]. وعلى الرغم من دلالتها جميعاً على كثرة المعنى كمّا وكيفاً ، نلحظ أنّ بينها فروقاً في الدلالة على المعنى ترتبط باختلاف أبنيتها ، " فإذا كان الرجل عدة للشيء قيل فيه : مَفْعَل ، مثل مَرحَم ومَرحَب ، وإذا كان قويّاً على الفعل قيل : فَعُول ، مثل صَبور وشَكور ، وإذا كان ذلك عادة له قيل : مِفْعال ، مثل مِعوَان ومِعْطاء ومِهْداء ، ومن لا يتحقق المعاني يظن أنّ ذلك كلّه يفيد المبالغة فقط ، وليس الأمر كذلك ، بل هي مع إفادتها المبالغة تفيد المعاني التي ذكرناها "[٤] .

ويبدو أنّ الدلالات المضافة إلى الحدث المجرّد في أبنية المبالغة تقف وراء محدودية استعمالها في سور الحواميم قياساً إلى اسم الفاعل والصفة المشبهة ، لأنّ هذه السور المباركة تنماز بثبوت خطابها وتأكيده ، ولا سيما في الموضوعات العقدية والغيبية التي

---

(١) ينظر : شرح المفصل : ١٠٥/٦-١٠٦
(٢) المقتضب : ١٦١/٣ ، وينظر : المنصف : ٢٣٧/١
(٣) ينظر : الكتاب : ١١٠/١ ، وأبنية الصرف في كتاب سيبويه : ٢٦٩ ـ ٢٧٠ ، والقياس وصيغ المبالغة (بحث) : صلاح الدين الزعبلاوي : ٧٥ .
(٤) الفروق اللغوية : ٢٦/١

تشكل البنية الأساسية فيها ، لذا يرتفع استعمال العناصر اللغوية الدالة على الحدث المجرّد على وجه الدوام والثبوت كالصفة المشبهة ، بينما ينخفض استعمال الألفاظ التي يشارك الحدث فيها معنى آخر ، كأبنية المبالغة ، لأنّه يؤدي إلى ضعف دلالتها على الحدث (المعنى) نسبياً . والدليل على ذلك اختلافها في درجة قوة المبالغة في المعنى تبعاً لاختلاف أبنيتها ، على أساس أنّ الزيادة في المبنى زيادة في المعنى ، فوزن (فعّال) مثلاً أدلّ على المبالغة من (فَعُول) أو (فَعِيل) ، وهما أدلّ على المبالغة من فَعِل[١] .

ولعلّ السياق الوحيد الذي مثّل استعمال أبنية المبالغة فيه ظاهرة بارزة في سور الحواميم سياق وصف حال الإنسان المستحق خطاب التعنيف والتهديد لإنكاره وحدانية الله (سبحانه) وشرائعه وأحكامه ، وهو الذي كان له النصيب الأكبر من خطاب هذه السور المباركة ، ويبدو أنّ الإلحاح باستعمال صيغ المبالغة في هذا السياق قد حقّق معنى تمكّن هذه الصفات من موصوفها وتلبّسها به ، إذ صدرت منه على وجه التكثير والمبالغة ، لذا استحق خطاب التعنيف والتهديد ، ومنه قوله تعالى : ((وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ))[٢] ، فالآية الكريمة في سياق استنكار أمر عظيم ، وادّعاء خارق للمعقول ، وهو أن جعلوا جنس الأنثى جزءاً لله ، أي منفصلاً منه[٣] . وقد سيق الاستنكار بصورة استدلال عقليّ اعتمد على عادة جاهلية انطوت عليها أنفسهم ، إذ كانوا يكرهون أن تكون لهم بنت كرهاً شديداً ، فعبّرت الآية الكريمة عن عمق ترسخ ذلك في نفوسهم بانعكاسه اسوداداً واضحاً لكثرته في الوجه من شدة الغضب والغيظ ، " أي صارَ أسودَ في الغايةِ من سوء ما بشّر به "[٤]، لما يجد من كراهة موصلة إلى الحنق ، وهو حابس نفسه على ما مليء من الكرب ، على وجه التكثير والمبالغة . ومن هنا جاء الاستدلال ، " فكيف يأنف عاقل من شيء ويرضاه لعبده ، فضلاً عن مكافيه ، فضلاً عن سيده ، هذا ما لا يرضي عاقل أن يمرَ بفكره ، فضلاً عن أن يتفوه به "[٥].

---

(١) ينظر : معاني الأبنية : ١٠٦ ، وأسماء الله الحسنى ، دراسة في البنية والدلالة : ٩٦
(٢) الزخرف : ١٧
(٣) ينظر : الكشاف : ٢٤٥/٤
(٤) تفسير أبي السعود : ٤٢/٨
(٥) نظم الدرر : ٤٤٩/٧

ويلحظ في الصيغتين أنّ الاسوداد تكونت بنيته الصوتية من ثلاثة مقاطع قصيرة مغلقة بأصوات تنماز بقوة صفاتها ووضوح إسماعها (مُس ، وَد ، دَن) ، وهو ما يتسق مع وضوح اسوداد الوجه وقوّته ، وما يشير إليه من حالة إعلان لما هو مكنون في نفس الموصوف من غيظ . أمّا أصوات الكظم فتنماز عن سابقتها بعمق مخارجها (الكاف والياء) ، وبمقطعها الطويل المغلق (ظيم) ، وهي تشير إلى ارتباط هذا الصفة بأعماق الإنسان واستعلائها - الذي هو صفة في الظاء - وامتدادها فيه ، وحبسها الذي يومئ إليه انحباس الهواء في مخرج الميم .

ومنه قوله تعالى : ((وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءاً إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ))[1] ، فصيغة المبالغة الموصوفة (كفور) ، بدلالتها على التكثير والمبالغة عبّرت عن غاية الغلظة في الكفر ، لفرط جهل الإنسان وكثرة جحوده ، لذا كان وقوعها في سياق الجملة المؤكّدة يرسّخ دلالتها على المبالغة في إظهار الكفر بنسبة الولد ذكراً أم أنثى إلى الله (جل وعزّ) وثبوته في الإنسان المنحرف صفة من صفاته ، ممتدة فيه ، متكررة في سلوكه تكرار صوت الراء ، ويعكس هذا الامتداد المقطع الطويل الممتد بصوت الواو الذي يحكي المدّ إلى الأمام[2]، ويتعزز بصوت الراء الشبيه بالحركة ، فالهواء يستمرّ بالمرور معه بسبب تكرار عملية الاتصال والانفصال بين طرف اللسان واللثة ، وبسبب هذا الاستمرار وقوّة الوضوح السمعي أصبحت الراء من أشباه الحركات . زيادة على أنّ هذه الصيغة تفيد معنى تمكّن الكفر من نفوس المدّعين ، ومن ثم انعكاسه مصاديق قولية وفعلية ظاهرة ، لأنّ مصاديق الكفر الظاهرة لا يمكن أن تطفح سلوكاً إلّا إذا تمكّن الكفر من نفوس الموصوفين به ، وشاع فيها . وملخص القول إنّ وصف الإنسان بالكفر على سبيل المبالغة والتكثير يتساوق مع أمرين ، أحدهما فداحة الادّعاء واستمراره ، والآخر كثرة المصاديق واستمرارها قولاً وفعلاً .

---

(١) الزخرف : ١٥
(٢) ينظر : الموسيقى الكبير : ١٠٧٣
(٣) فصّلت : ٤٩

وفي السياق نفسه نجد قولـه تعالى : ((لَا يَسْأَمُ الْإِنسَانُ مِن دُعَاء الْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَؤُوسٌ قَنُوطٌ)) [٣]، إذ إنّ الآيـة تصـف طبعـاً إنسانـياً عـامـاً عبّرت عنه دلالة الجنس في (الإنسان) ، وعلى سـبيل التجـدد والحـدوث اللذين تفيدهـما دلالـة الأفـعـال (لا يسأم ، مسّه) ، ومقابل هذه الكثرة في الجنس الإنساني من ناحية ، وفي تجدد الحدث من ناحية أخرى ، يأتي استعمال لفظي المبالغة (يؤوس وقنوط) الدالين على المبالغة والكثرة ، ليعبّرا عن المبالغة والتكثير في وصف اسم الفاعل ، وتأكيد تمكّن المعنى من الذات الموصوفة ، ومن ثم زيد هذا التأكيد بورود صيغتي المبالغة خبراً عن الموصوف المحذوف (الإنسان) . زيادة على تناسب كثرة اتصافه باليأس والقنوط مع دلالة الجنس المستفادة من (ال) الداخلة على لفظ الشر ، فهو كثير اليأس والقنوط في كلّ شرٍّ يصيبه ، صَغُر أم كبر. ولا يخفى ما في الواو من دلالة على قوّة الوصف وامتداده في الموصوف بسبب حركة أقصى اللسان التي تمنحه عمقاً ، وقد فرّق ابن جنّي بين الدُلّ والذّل منطلقاً من دلالة القوة في الواو (الضمّة) قائلاً : " واختاروا الضمة لقوّتها للإنسان والكسرة لضعفها للدابة "[١] .

وأضـاف الزركشي معـنى آخر يستفـاد مـن صيـغة المبالغة ، وهـو الاخـتصـار قـال : "ويجوز أن يُعَد هذا من أنواع الاختصار ، فإنّ أصله وضع لذلك ، فإن (ضروباً) ناب عن قولك : ضارب وضارب وضارب "[٢] .

الصفة المشبهة

وهي اسـم يدلّ على معنى متعين بالموصوف على وجه الثبوت والـدوام ، نحو كريم وأبيض وفـرح وعطشان ... ، لـذا تكـثر صياغتها في الأفعال الـلازمة من بابي (فَعِل وفَعُل) لدلالتها على معانٍ ثابتة في صاحبها ، قال الرضي : " إنّمـا يكثر الصفة المشبّهة

(١) المحتسب : ١٨/٢
(٢) البرهان في علوم القرآن : ٥٠٢/٢

في (فَعِل) لأنّه غالب في الأدواء الباطنة والعيوب الظاهرة والحلي ، والثلاثة لازمة في الأغلب لصاحبها ، والصفة المشبهة ... لازمة وظاهرها الاستمرار ، وكذا (فَعُل) للغرائز، وهي غير متعدية ومستمرّة "[١] . أمّا باب (فَعَل) فلا تصاغ منه إلّا قليلاً ، وإن كان لازماً، لأنّ شرط الاستمرار في الوصف غير متحقق فيه ، فما يُعدّ من هذا الباب صفة مشبهة على وجه الندرة ، نحو شاب فهو أشيب[٢] .

وذهب بعض اللغويين إلى أنّ الثبوت ليس مطّرداً فيها ، فهناك صفات ليست دائمة أو مطّردة في الاستمرار مثل : غضبان وجوعان وريان...، وهناك صفات تتغير بتغير الوصف نحو : حسن وسعيد وحزين... ، فالحسن قد يذهب ، والسعيد قد يصبح حزيناً ، والعكس[٣] . ولكنّ الثابت أنّها أقوى في الوصف من اسم الفاعل ، ولهذا اطّرد تحويل الصفة المشبهة إلى فاعل كـ (حاسن) و (ضائق) ، عند ذكر النص على الحدوث[٤] .

لذا كانت عنصراً لغوياً بارزاً كثر استعماله في سور الحواميم ، إذ إنّ الدوام والثبوت المستفاد منها تناسب مع الموضوعات التي طرحت في هذه السور المباركة ، وبخاصة موضوعة العقيدة والغيب ، إذ تقتضي ثباتاً وتأكيداً في الخطاب ، ولا سيما إذا كان المتلقي منكراً أو خالي الذهن ، وهو الشائع في خطاب سور الحواميم . وأول ما يطالعنا من السياقات التي استعملت فيها الصفة المشبهة سياق إثبات صفات الله (سبحانه) ، فأكثر ما جاء منها يشير إلى هذه الصفات في ختام الآيات المباركة فاصلة قرآنية رسّخت مضامين الآيات الكريمة التي وردت فيها وتلاءمت معها ، لذا ستكون معالجتها منطلقة من هذا المفهوم ، مرتبطة بما تؤديه من وظيفة دلالية في السياق القرآني . أمّا النظر إليها أسماءً حسنى لله (سبحانه) فتعنى به الدراسات العقدية التي تعالج هذه الصفات والأسماء ، وتتحدث عن ميزاتها وعلاقتها بالذات المقدسة .

---

(١) شرح الشافية : ١٠٤/١

(٢) ينظر : شرح ابن عقيل : ١٣٦/٣ ، وتصريف الأسماء : ٢٦٢ وما بعدها

(٣) ينظر : التحليل اللغوي في ضوء علم الدلالة : ٧٧ ، ومعاني الأبنية : ٧٦ ـ ٧٧

(٤) ينظر : المفصل : ٢٩٣/١ ، وروح المعاني : ٨٠/١٩

ولكنّ المشترك بين هاتين النظرتين هو الدوام والثبوت الذي تفيده الصفة المشبهة الذي يتلاءم مع أهم ما أرادت أن تثبته سور الحواميم في أذهان المتلقين ، وترسّخه في ضمائرهم، وهو التوحيد الذي يعد أساس العقيدة ، وبخاصة أنّ المتلقين في وقت نزول القرآن الكريم كانوا يشركون بمظاهره المختلفة ، وينكرون آياته ، لذا كان السياق القرآني يقتضي توكيداً وإثباتاً يتساوق مع أهمية الموضوع من جهة ، ومع رسوخ مفاهيم الإنكار لدى المتلقي من جهة أخرى .

وأكثر ما ورد من أوزان الصفة المشبهة في سور الحواميم صفاتاً لله (سبحانه) صيغة (فعيل) ، إذ جاءت في تسعة وأربعين موضعاً من أصل سبعة وستين موضعاً ، أي بنسبة ٧٣,١% تقريباً ، ويبدو أنّ ذلك مرتبط بقوة دلالتها على الدوام والاستمرار من ناحية، وبطبيعة سور الحواميم وسياقاتها من ناحية أخرى ، إذ إنّ وزن (فعيل) يفيد ثبوت الصفة بقدر كبير من الدوام والاستمرار ، ولذلك يكثر مجيؤه وصفاً من فَعُل يفعُل الدال على الغرائز والطباع[١]، وهو ما اتسق مع خطاب المنكر أو خاليَ الذهن الذي انمازت به سور الحواميم . ومنه قوله تعالى : ((تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ))[٢] ، فالمقصود من الخبر هم المشركون المنكرون أنّ القرآن منزل من عند الله (سبحانه) ، والذين تعللوا بقولهم : ((لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً))[٣] ، لذا جاء الوصفان (العزيز العليم) ليقابلا الإنكار بإثبات الوصف ودوامه لله والكتاب الذي هو من صفة منزلة ، فوجه التعرض لوصفي العزة والعلم للإيماء إلى أنّ ما ينزّل منه يأتي على ما يناسب الصفتين ، فيكون عزيزاً ، أي غالب بالحجة لمن كذّب به ، وغالب بالفضل لمن سواه من الكتب ، فالعزيز هو " الغالب الذي لا يغلب ، فلا ينال جنابه لعزّته وعظمته وجبروته وكبريائه ، من العزّة وهي القوة والشدة والغلبة ... أو الذي لا مثيل له ولا نظير ، أو الذي يستحيل وجود مثله ، وتشتد الحاجة إليه "[٤] . ويكون عليماً من صفة منزله ، فهو " المحيط علمه بكلّ شيء ، فلا تخفى

---

(١) ينظر : أسماء الله الحسنى ، دراسة في البنية والدلالة : ٩٥ ، ومعاني الأبنية : ٩٥
(٢) غافر : ٢
(٣) الفرقان : ٣٢ ، وينظر تفسيرها في التحرير والتنوير : ٣١٤/٢٣
(٤) أسماء الله الحسنى ، دراسة في البنية والدلالة: ٣٩

عليه خافية ، ولا تغرب عن علمه قاصية ولا دانية "[١] . زيادة على أنّ ورود هاتين اللفظتين صفتين للفظ الجلالة جاء في مقام إثبات الصدق مقابل التكذيب والإنكار وعداً ووعيداً ، أي الله الجامع لجميع صفات الكمال والربوبية التي تؤهل النفوس للتصديق ومن ثم التسليم[٢] . والواضح أنّ معاني القوة والشدة والإحاطة التي تفيدها هذه الصفات تعززت بصفات الجهر في أصواتها ، فالأصوات المجهورة أكثر دلالة على هذه المعاني ، لأنها أكثر وضوحاً مما يجعلها مناسبة للأوامر والنواهي والتكاليف والوعد والوعيد[٣]. وتختلف المجهورات في درجة جهرها التي تضفي عليها وضوحاً سمعياً يناسب الإعلان الواضح المتحدي للإنكار والتشكيك ، فالأصوات المجهورة الاحتكاكية أكثر وضوحاً من الأصوات المجهورة الانفجارية ، لذا يعدّ صوت الزاي الصفيري الاحتكاكي ـ الذي تكرر وامتد بحركة طويلة ـ من أكثر الأصوات المجهورة تنبيهاً ووضوحاً ، لأنّ " استمرار الانحباس يمنع من استمرار جريان الهواء الذي يحمل الذبذبات إلى الهواء الخارجي ومن ثم يتوقف سماع الصوت بعد فترة وجيزة "[٤].

وما يلفت النظر في هذه السور الكريمة ارتباط صفات العزيز والعليم والحكيم بالكتاب ووسيلة إنزاله ، أي الوحي ، ويبدو أنّ العلّة ترجع إلى إرادة إثبات ظهور آثار هذه الصفات في الكتاب ووحيه على وجه الدوام والاستمرار ، فما فيه من أوامر ونواهي وأحكام مبنية على أساس من الحكم الباهرة من لدن مقتدر عليم من غير مدافع ولا ممانع[٥] .

إنّ سياق التهديد والوعيد الذي ينبني على الثبوت والتوكيد كان من المواضع البارزة التي جاءت فيها الصفة المشبهة في سور الحواميم ، وأوضح ما يطالعنا منه قوله تعالى : ((غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ))[٦] . إذ إنّ

---

(١) المصدر السابق : ٤٥ ـ ٤٦
(٢) ينظر : نظم الدرر : ٢٨٨/٧
(٣) ينظر: الأفكار الأساسية بعلم الصوت الحديث : ١١١
(٤) أصوات اللغة : ١٣٥-١٣٦
(٥) انظر : فصلت : ٤١،٤٢ ، الشورى : ٣،٥١ ، الزخرف : ٤ ، الدخان : ٤،٦ ، الجاثية : ٢ ، الأحقاف : ٢ ، وينظر : تفسير أبي السعود : ٢٤٠/٧
(٦) غافر : ٣

الآية الكريمة جمعت تعريضين متضادين في آن واحد ، تعريضاً بالترغيب يقابله تعريض بالترهيب[١]، وما يلفت النظر أنّ في الأول استعمل اسم الفاعل ، بينما جاءت الصفة المشبهة في الثاني ، ويبدو أنّ اختلاف الاستعمالين نابع من تغاير موضوعهما من جهة ، ومن تساوق دلالة ألفاظهما مع الموضوع من جهة أخرى ، فغفران الذنوب وقبول التوبة يرتبطان بزمان التكليف ومكانه (الحياة الدنيا) ، وفيها استمرار العمل وما يترشح منه من ارتكاب الذنوب والوقوع في المعاصي ، وهو أمر مستمر استمرار حياة الإنسان ، لذا جاء التعريض بالترغيب والتبشير باستعمال اسم الفاعل ليستفاد من دلالة الحدوث والتجدد فيه ، تساوقاً مع تجدد ارتكاب الذنوب في وقت التكليف ، فغفران الذنوب وقبول التوبة مستمر استمرار الحياة . ويؤيد هذا المعنى الامتداد الصوتي للألف الذي يحكي المدّ إلى الأعلى ، زيادة على تأديته دلالة الامتداد للأصوات السابقة له[٢]، وهي هنا صوتان استعلائيان (الغين والقاف) ، مما يضاعف دلالة قوة الحدثين ، ويوحي باستعلاء الوصفين وتقدمهما على السياق ترغيباً للمتلقي . وقد تضاعف هذا الامتداد بأشباه الحركات التي ختمت اللفظتين ، (الراء) التكرارية التي أظهر الإحصاء عند بعض الباحثين أنّ أكثر الأحداث التي تحتوي صوت الراء في البداية أو في النهاية تدلّ معانيها على التحرك والتكرار والترجيع[٣]. و(اللام) الذلقية التي تدل على الامتداد والطول بسبب حرية مرور الهواء من جانبي اللسان معها ، ولذلك فهي من الأصوات التي تمتد مع النغم ولا تبشّعه[٤]. أمّا الترهيب فكانت أداته الصفة المشبهة لتحقيق دلالة ثبوت شدة العقاب ودوامه ، فالعقاب مرتبط بالآخرة التي هي أوان حساب لا عمل ، فالقطع بالعذاب يتسق مع انقطاع العمل ، وفوات زمن التوبة . والمتأمل في دلالة أصواتها يجد أنّ الشين بتفشيه وامتداده بالحركة القصيرة يمنحها معنى الانتشار والإحاطة ، كأن شدة العذاب محيطة بمستحقيها ، ثم يأتي دور صوت الدال القويّ المجهور المقلقل الذي يشيع جوّاً من الثقل والشدة ، وقد امتدت هذه

(١) ينظر : التحرير والتنوير : ٨٠/٢٤
(٢) ينظر : التغيّر الصوتي في الفواصل القرآنية ودلالاته : ٤٤
(٣) ينظر: خصائص الحروف العربية ومعانيها : ٨٥ ، ٨٧
(٤) ينظر : الموسيقى الكبير : ١٠٧٢ ، والتغيّر الصوتي في الفواصل القرآنية : ٥٨

المعاني بالياء التي " تدل على الانفعال المؤثر في الباطن "(١) ويحصل هذا المعنى من صدور الصوت بكسر الشفتين ورجعتهما ، وهذا الصوت يعبّر عن معاني الحركات المقابلة له بصورة مقحمة لأنه يمثّل تفخيماً لهذه الحركات(٢).

زيادة على ما تقدم نلحظ أنّ في اختلاف الاستعمالين إيماءة إلى تغاير في مستوى الترغيب والترهيب يتناسب مع السياق العام للخطاب القرآني في السورة المباركة ، فالآية الكريمة توجه خطابها إلى المشركين المنكرين أنّ القرآن منزل من عند الله(٣)، لذا تميل إلى التهديد بإثباته على وجه الدوام والاستمرار باستعمال الصفة المشبهة الدالة على ذلك . وهذا لا يعني أنّ الآية الكريمة لم تشر إلى الترغيب على وجه من الثبوت والتوكيد ، فاستعمال اسم الفاعل المضاف إلى مفعوله يقرّبه من دائرة الاسمية ومن ثم يقوّي فيه دلالة الثبوت(٤) ، ولكنّه مع ذلك لا يرتقي إلى ثبوت دلالة الصفة المشبهة ودوامها ، فاسم الفاعل يقع في موقع الوسط بين الفعل والصفة المشبهة من حيث هذه الدلالة ، فهو أدوم وأثبت من الفعل ، ولكنّه لا يرقى إلى ثبوت الصفة المشبهة إلا بقرينة دالة على ذلك(٥).

وفي سياق التهديد والوعيد نفسه يبرز استعمال الصفة المشبهة نعتاً لألفاظ العذاب المختلفة ترسيخاً لعامل الردع وحثاً للمتلقي على الاستجابة لمفاهيم الغيب ، ولا سيما التوحيد والمعاد ، ومنه قوله تعالى : ((وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ))(٦) ، فوصف العذاب المنكّر تعظيماً وتهويلاً بالصفة المشبهة التي تفيد غالباً ثبوت الصفة للموصوف بها(٧) ، يتساوق مع شدة قبح الفعل المرتكب ، وهو تكذيب الله ودينه بعد الاستجابة على وجه الردّة والنكوص .

(١) تهذيب المقدمة اللغوية : ٦٤
(٢) ينظر : المؤلفات الكاملة :٢٤٠
(٣) ينظر : التحرير والتنوير : ٢٤/٧٩-٨٠
(٤) ينظر : منازل الرؤيا ، منهج تكاملي في قراءة النص : ٩٦
(٥) ينظر : أسماء الله الحسنى ، دراسة في البنية والدلالة : ٩٣
(٦) الشورى : ١٦
(٧) ينظر : الإعجاز الصرفي في القرآن الكريم : ٢٣١

فالعذاب مهول لا يُعرف وصفه ، والشدة مطلقة ثابتة فيه ثبوت المرض في نفوسهم ، فكما تمكن الكفر منهم وتأبّد فيهم ، كذلك جزاؤهم ، فالشدة متلبسة بالعذاب مؤبدة فيه .

ومنه قوله تعالى : ((وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاء مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَى فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ))(١) ، إذ إنّ المعنيَ بالوصف سواء أكان إنساناً معيناً أم صنفا ـ وهم الكفار ـ امتازت نفوسهم بحب النِعم وإنكار منعمها على وجه التجدد والاستمرار الذي تفيده دلالة الأفعال ، حتى جبلت عليها ، فأصبحت عقيدة ، فيأنسون بالخير ويسعون لتحصيله ، ويحسبونه ملازماً ذاتياً ، فلا يتدبرون في معطيه لشكره وسؤاله المزيد ، ولا يستعدون للضرّ بسؤال الفاعل المختار أن يدفعه عنهم ويعيذهم منه(٢). وهذه صفة للنفوس الخشنة ، لذا كان جزاؤها عذاباً من صنفها ، فالغلظة ضد الرقة ، وهي الخشونة(٣) ، أي تدوم في العذاب صفة الخشونة وتلازمه ، كما دامت في نفوسهم ولازمتها . وليس خافياً أنّ الدوام يعني امتداد الصفة في الموصوف ، وهو ما يوحي به الامتداد الصوتي في الياء ، وبخاصة أنّه جاء رادفاً صوتاً خفيفاً في النطق واضحاً في السمع شبيهاً بالحركة (اللام) ، مما ضاعف دلالة الامتداد ، ولا سيما أنّ امتداد هذه الأصوات مرتبط بمعانيها ، فإذا دلّت على الكثرة ـ كما في صفة الغلظة ـ كانت الكثرة مستمرّة ممتدّة(٤) . زيادة على أنّ في (غليظ) جرساً متميّزاً تضفيه صفات الاستعلاء والفخامة في صوتي الغين والظاء ، والإطباق في الظاء ، فنطق هذه الأصوات يحتاج إلى جهد عضليّ مميّز يعكس أحوال الشدة والألم وثقل الموقف(٥) الذي يعانيه من أحاط به العذاب الموصوف . وإذا عرفنا أنّ صوت الياء منخفض يحكي المدّ إلى الأسفل(٦)، تبين لنا ما في امتداده من انحدار قيميّ وحسي نحو الأسفل يعانيه المشمولون به . وقد تعدد ورود الصفة المشبهة وصفاً للعذاب في سور

---

(١) فصلت : ٥٠
(٢) ينظر : التحرير والتنوير : ١٤/٢٥
(٣) ينظر : مفردات ألفاظ القرآن : ٦١٢
(٤) ينظر : التغيّر الصوتي في الفواصل القرآنية ودلالاته : ٤٤
(٥) ينظر : الأصوات اللغوية ، رؤية عضوية ونطقية وفيزياوية : ١٤٣
(٦) ينظر : المؤلفات الكاملة :٢٤٠

الحواميم ، وببنية (فعيل) ، وبخاصة لفظة (أليم) ، ويبدو أنّه يومئ إلى ثبوت الصفة في العذاب ودوامها تهديداً ووعيداً ، ليقابل ثبوت العناد والكفر في نفوس المتلقين ، وبما يتعلق بغيب اليوم الآخر على وجه الخصوص ، لأنّه من أشد القضايا التي واجهت عدم التصديق والإنكار ، فيكون الجزاء من جنس العمل من جهة ثبوته ودوامه . ومنه قوله تعالى ((فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ))[١] .

(١) الزخرف : ٦٥ ، وكذلك: الشورى : ٢١، ٢٦ ، ٤٢ ، الدخان : ١١ ، ٤٨ ، الجاثية : ١٠ ، ١١ ، الأحقاف : ٢١ ، ٢٤ ، ٣١

الجموع

الجمع هو " الاسم الذي يدل على أكثر من اثنين أو اثنتين "[١]. ويقسم في العربية على قسمين : جمع سالم وجمع تكسير .

الجمع السالم

جمع المذكر السالم :

هو الاسم الذي يزاد في آخره واو ونون في حالة الرفع وياء ونون في حالتي النصب والجر ليدل على أكثر من اثنين[٢]. وقد ورد في سور الحواميم مقترناً بالأوصاف المشتقة أولاً ، كاسم الفاعل واسم المفعول والصفة المشبهة وصيغ المبالغة ، دالاً على معنى الكثرة ثانياً ، مشكّلاً من هاتين الناحيتين بروزاً استعمالياً يلفت النظر . فورد كثيراً في سياق وصف حال المناوئين للدعوة الإسلامية في الدنيا ، أو ما يجري عليهم في الآخرة من عذاب وتنكيل. ويبدو أنّ الخطاب الجمعي على هذا النسق يراد منه الاستفادة من المعاني والدلالات التي ترتبط بالأبنية المذكورة ، زيادة على ما يفيده الجمع من تركيز على الخطاب الجمعي العام الذي تزخر به هذه السور الكريمة . ففي سياق خطاب الكافرين أنبياءهم للتصريح برفض دعوتهم ، يطالعنا قوله تعالى : ((وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ))[٣] ، وقوله تعالى : ((إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ))[٤] ، إذ تصف الآيات الكريمة موقف المشركين على سبيل الجمع من دعوات أنبيائهم ، تشكيكاً وكفراً ، وعلى سبيل الثبوت التجددي الذي يفيده اسما الفاعلين (مستيقنين ، كافرون) ، الثبوت الاسمي ، والتجدد الفعلي الذي تعزز بجمعهما جمعاً سالماً ، لأنّ " جمع الصفات جمعاً سالماً يقرّبها من الفعلية "[٥] ، ليقابل الخطاب الناصح المؤكّد الذي يثبت أحقية دعوة أنبيائهم . إذ يلحظ التناسب بين تأكيد

---

(١) أبنية الصرف في كتاب سيبويه : ٢٩٢ ، وينظر: جموع التصحيح والتكسير في اللغة العربية : ٧
(٢) ينظر: شرح الشافية : ٩/٢ ، وشذا العرف : ١٤٦، وجامع الدروس العربية : ٢/ ١٥
(٣) الجاثية : ٣٢
(٤) فصلت : ١٤
(٥) معاني الأبنية : ١٤٤

الدعوة والرفض الجمعي ، وكأنّ الرافضين لها يستعينون بقوة الجمع لدفع وهنهم أمام إصرار الدعاة إلى الله أولاً ، وقوة حججهم ثانياً . ويلحظ في سور الحواميم أنّ هذا الوصف الجمعي يتركز في قضايا الغيب الرئيسة كالتوحيد والمعاد ، وهو يومئ الى أنّ الموقف الرافض لدعوة الأنبياء في هذه الموضوعات ، وبخاصة النبي الخاتم (صلى الله عليه وآله وسلم) كان موقفاً جماعياً عاماً ، يبعد الالتزام بالقول إنّ جمع المذكر السالم يدل على جمع القلة ، ولا سيما أنّ الألفاظ المجموعة في الآية الكريمة جاءت نكرة ، لتعزز دلالة العموم الجمعي لهذه الألفاظ . ويدل على هذا المعنى القرآن الكريم نفسه ، إذ وصف أتباع الباطل بالكثرة ، قال تعالى : ((بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ))(١) .

ويتكرر هذا الأسلوب في سياق وصف الشخصية الكافرة على وجه العموم الذي يفيده الجمع ، كقوله تعالى : ((فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ))(٢) ، إذ إنّ ثبوت صفة الفسق التي يفيدها اسم الفاعل (فاسقين) في أصل وضعه الاسمي ، وعمومها الذي يفيده جمعه جمعاً سالماً ، مدعّماً بالتنكير الذي يفيد العموم أيضاً ، يتسق مع ثبوت الاستخفاف المستفاد من الفعل الماضي (استخف) ، والعموم الذي تفيده دلالة لفظة (قوم) المجموعة ، فالاستخفاف العام علّته الفسق العام فيهم .

ويتكرر ورود هذا الجمع أيضاً ، وبصفة الوصف ، في سياق تبيان ما يجري على الكافرين من أهوال القيامة ، كقوله تعالى : ((تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ))(٣) ، فمعنى الظالمين " أي الواضعين الأشياء في غير مواضعها "(٤) ، وهي صفة عامة يتلبس بها كثير من أعداء الدين ، فيكون جمعها دالاً على الكثرة ، تدل على ذلك القرائن القرآنية التي ركزت في أكثر من آية كريمة على شيوع هذه الصفة في كثير من الناس ، كقوله تعالى : ((وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ))(٥)،

---

(١) فصلت : ٤
(٢) الزخرف : ٥٤
(٣) الشورى : من الآية ٢٢
(٤) نظم الدرر : ٢٩٣/١٧
(٥) المائدة : من الآية ٣٢

وقوله تعالى : ((وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ))[١] ، ويقوي هذا المعنى السابقة (ال) التي تكون دالة على الجنس فتفيد الكثرة من خلال دلالتها على العموم ، أو على العهد ، فتكون في دائرة العموم أيضاً ، لأنّ الظالمين المعهودين الذين جرّب المتلقي ظلمهم كُثُر ، وهذا يتسق مع إمكان أن يحمل الخطاب على التخصيص بالنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ، أو على العموم ، أي إنّ الرؤية تشمل كلّ المتلقين ، لوضوح الأمر ، " إشارة إلى أنّ هذا لا يفهمه حقّ الفهم ويوقن به حق الإيقان غيره (صلى الله عليه وسلم) ، أو يكون المراد كلّ من يصح أن يخاطب ، إشارة الى أنّ الأمر في الوضوح بحيث لا يختص به أحد دون أحد "[٢] .

جمع المؤنث السالم :

هو الاسم الذي " لحق آخره ألف وتاء ، سواء كان لمؤنثٍ كمسلمات ، أو مذكّر كدريهمات "[٣]، وهذا الجمع يدل على أكثر من اثنتين . وقد كثر وروده في سور الحواميم ، ولكنّه لم يشكّل بروزاً استعمالياً يرتبط بسياق معيّن ، بل ورد في سياقات متعددة ومختلفة . ولكنّ ما يلفت النظر في شواهد كثيرة من سور الحواميم المباركة ، دلالته على الكثرة التي لم يثبتها اللغويون صفة من صفاته[٤] . وأبرز الألفاظ التي وردت مجموعة بهذه الصيغة لفظة الآيات ، كقوله تعالى : ((وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ))[٥]، وقوله تعالى : ((وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ))[٦] وقوله تعالى : ((تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ))[٧]، فيلحظ في هذه الآيات الكريمة أنّها ترتبط بالحث على الإيمان بالله من خلال ما سيق من أدلة ربوبيته ، معبّراً عنها بلفظ الآيات

---

(١) نفسها : ٦٢
(٢) نظم الدرر : ١٧/٢٩٢-٢٩٣
(٣) التعريفات : ١/ ١٠٦
(٤) ينظر : معاني الأبنية في العربية : ١٤٤
(٥) غافر : ٨١
(٦) الجاثية : ٤
(٧) نفسها : ٦

التي هي جمع الآية[١] . ولا شكّ في أنّ السياق وقرائن اللغة تحكم بكثرتها أوّلاً ، وبعظمتها ثانياً ، ولو لم تكن كذلك لما كانت دليلاً على ربوبيّته (سبحانه) ، لذا وردت نكرة ، "وتنكير آيات في المواضع الثلاثة للتفخيم كمّاً وكيفاً "[٢] . ولا يخفى ما في الامتداد الصوتي في أول اللفظة ووسطها ، الذي تشكّل من أصوات المدّ من دلالة على التكثير والتفخيم ، وكأنّها تمدّ النداء ليصل الى أبعد مكان وزمان ، ويدخل الى أعماق القلوب . وهو ممّا لا يتفق مع ما قيل من إفادة جمع المؤنث السالم لمعنى القلّة[٣] . فالقرائن تحكم بعكسه . ويتضح ذلك أيضاً في قوله تعالى : ((سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ))[٤] ، فآيات الله كثيرة في عددها ، لا يُقوى على إحصائها ، قال تعالى : ((وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ)) [٥] ، وهي عظيمة في قدرها ، لذا جاء الخطاب " لافتاً القول إلى مظهر العظمة "[٦] ، التي تعززها البنية الصوتية للفظة ، إذ تهيمن عليها أصوات المدّ التي تحكي المدّ الى الأمام (الألف) ، والى الأسفل (الياء) ، وكأنّها تنادي في كلّ الاتجاهات ، وبصوت مسموع وممتد ، هل من عاقل يستجيب لنداء الحق . وكما خرجت الآيات من قيد الدلالة على القلّة ، تحررت الآفاق منها لتساوق كثرة الآيات وتعظيمها ، فالآفاق من جموع القلّة ، وهي "جمع أفق كعنق وأعناق ، أبدلت الهمزة الثانية ألفاً لسكونها بعد مثلها "[٧] ، ودلّت على إخبار النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أمّته "... من الحوادثِ الآتيةِ وآثارِ النوازلِ الماضيةِ وما يسرّ الله تعالى له ولخلفائِه من الفتوحِ والظهورِ على آفاقِ الدنيا والاستيلاءِ على بلادِ المشارقِ والمغاربِ على وجهه خارقٍ للعادةِ "[٨] .

---

(١) ينظر: تفسير النسفي : ٢/ ٢٥١
(٢) تفسير أبي السعود : ٦٨/٨
(٣) ينظر : معاني الأبنية في العربية : ١٤٤
(٤) فصلت : ٥٣
(٥) النحل : ١٨
(٦) نظم الدرر : ٢٢٥/١٧
(٧) المصدر نفسه
(٨) تفسير أبي السعود : ١٩/٨

ومن الألفاظ البارزة التي وردت بهذه الصيغة لفظة (سماوات) ، كقوله تعالى : ((وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ * أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى))(١)، وقد وردت هذه اللفظة بما يصحبها من قرائن خارجية وداخلية للدلالة على معنى القلّة في مواضع كثيرة في القرآن الكريم ، وأبرزها الاقتران بالعدد (سبع) ، كقوله تعالى : ((تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ))(٢) . أمّا في الآية الكريمة السابقة، فعلى الرغم من إضافتها إلى لفظة على زنة من أوزان القلّة (أسباب) ، لا تدفع قرائن الحال إلى القول بذلك ، ففرعون على جبروته لم يدّع أنّه على معرفة بالسماوات وطرقها، بل ساق طلبه على وجه التعظيم لأمرها ، فـ" أورده على نمط مشوق عليه ليعطيه السامع حقه من الاهتمام تفخيماً لشأنها ، ليتشوف السامع إلى بيانها ، بقوله : أسباب السماوات ، أي الأمور الموصلة إليها ، وكلّ ما أدّاك إلى شيء فهو سبب إليه"(٣) ، ممّا يدلّ على عظمها في نفسه ، لجهله بها وبطرقها ، ومن ثم لا يمكن الجزم بدلالة لفظها على القليل ، بل إنّ ذلك يدفع الى القول بدلالتها على الكثير . ومنها قوله تعالى : ((لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ * تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ))(٤)، إذ سيقت اللفظة (السماوات) في الآية الكريمة دليلاً من أدلة قدرته وعظمته (سبحانه) . ولا ريب في أنّ سياق التعظيم يتسق مع ما تحمله هذه اللفظة من دلالة ذاتية على التعظيم ، ترتبط بمعناها وببنيتها الصوتية ، إذ تدلّ على معنى العلو ، لأنّ " سماء كلّ شيء أعلاه "(٥) ، فسميت السماء لأنّها ارتفعت عن الأرض(٦). أمّا بنيتها الصوتية فيغلب عليها الفخامة والوضوح والامتداد الصوتي ، فصوت السين صفيري احتكاكي ، ينماز بوضوحه ، فهو أشد أصوات الصفير صفيراً ، يردفه صوت الميم المجهور الممتد بالألف ، الذي يحكي المدّ الى الأعلى(٧)، زيادة

---

(١) غافر : ٣٦_٣٧
(٢) الإسراء : من الآية ٤٤
(٣) نظم الدرر : ٦٩/١٧
(٤) الشورى : ٤-٥
(٥) مفردات ألفاظ القرآن : (سما) : ٤٢٦
(٦) ينظر : المصدر السابق : ٤٢٧ ، ودلالة البنية الصرفية في السور القرآنية القصار : ١٤١-١٤٢
(٧) ينظر : الموسيقى الكبير : ١٠٧٣

على امتداد صوت الواو ، وهي صفات تومئ الى علو شأنها ، ومن ثمّ تكون صالحة لتساق دليلاً من أدلة قدرة الله وتعظيمه (سبحانه) .

جمع التكسير :

جمع التكسير هو الاسم الدال على أكثر من اثنين أو اثنتين بتغير صور مفرده ، " وإنّما قيل له مكسّر لتغيير بنيته عما كان عليها واحده ، فكأنّك فككت بناء واحده وبنيته للجمع بناءً ثانياً "[١] ، أي إنّ هناك تغييرات تطرأ على المفرد وهي على قسمين :

أولاً : التغيير الظاهري أو اللفظي : وهو تغيير ظاهر يمسّ شكل اللفظة ، وقد قسمه اللغويون على ستة أقسام ، تتمحور حول التغييرات التي تطرأ على المفرد ، بزيادة عدد حروفه أو نقصها ، نحو : صِنْو وصنوان ، وتخمة وتُخَم ، أو بتغيير حركات بنيته نحو : أسَد وأُسْد، أو بهما جميعاً نحو : جَمَل وجِمَال ، ورُسُل جمع رَسُول[٢] .

ثانياً : التغيير المقدّر :

المقصود به اشتراك بعض الألفاظ بصيغة واحدة في المفرد والجمع[٣] ، قال سيبويه ممثلاً لهذه الصيغ : " وذلك قولك للجميع : حَلْفاءُ وحَلْفاءُ واحدةٌ ، وَطرْفاء للجميع وطرفاءُ واحدة ، وبُهْمى للجميع وبُهْمى واحدة "[٤].

وقد ورد من نحو هذا الجمع في سور الحواميم في قوله نعالى : ((وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ))[٥]، وقوله تعالى : ((وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ))[٦] ، فالفُلْك " السفينة ، وجمعه

---

(١) شرح المفصل : ٥/ ٣٦٨

(٢) ينظر: المصدر السابق : ٥/ ٦ ، وأوضح المسالك : ٣/ ٢٥٤ ، وشرح الأشموني : ٤/ ١٩ـ ٢٠

(٣) ينظر: أبنية الصرف في كتاب سيبويه : ٢٩٣

(٤) الكتاب : ٣/ ٥٩٦ ، وينظر: شرح المفصل : ٥/ ٣٨٨

(٥) غافر : ٨٠

(٦) الزخرف : ١٢

فُلْك ، فالواحد بوزن قُفل والجمع بوزن أُسْد "[1]. وقد حصر بعض اللغويين هذه الألفاظ فيها، فقالوا: " ليس في كلام العرب : جَمْع وواحدٌ بلفظ واحد ، وحركة أوله في الجمع مثل حركته في الواحد إلا الفُلْك يكون واحداً وجمعاً ومذكراً ومونثاً بمعنى واحد ، وكذلك المنون والطاغوت"[2]. وسيقت دليلاً مـن أدلة التوحيد ، ليتساوق مـع محدودية تعامل المتلقي مـع هذا الصنف مـن نعم الله ، فلا شكّ في أنّ متلقي الخطاب القرآني فـي زمن التنزيل ومكانه (البيئة الصحراوية) لم يألف هذا النوع من وسائل النقل ، لذا يكون انبهاره بها كبيراً ، يصلح أن يكون حافزاً محرّكاً لذهنه باتجاه تلقي الخطاب . " ولمّا كان الفُلْك يصح أن يقال فيه : حمل في الفُلْك ، كقوله : احمل فيها ، ويصح أن يقال فيه : حمل على الفلك ، اعتبر لفظ على لمناسبة قوله : وعليها ، وإن كان معنى في صحيحاً "[3] .

وأوزان جموع التكسير كثيرة ومتنوعة ، أحصاها النحاة والصرفيون ، وقسّموها على جموع قلّـة ، وهـي التي تصـدق على ثلاثة إلى عشرة ، وأوزانها أربعة ، هي : (أَفْعَل) و(أَفْعَال) و(أَفْعِلَة) و(فِعْلَة)[4]. وجموع كثرة ، وهي الجموع التي تدل على عدد لا يقل عن عشرة إلى مالا نهاية ، وهناك من يذهب إلى أنّها تدل على ثلاثة إلى مالا نهاية[5].

وقد ورد كثير من هذه الجموع في سور الحواميم ، في سياقات الوصف القرآني ، أو الخطاب الجمعي ، وهذه السياقات تحدد ـ من خلال القرائن المتوافرة ـ الدلالة المحتملة لهذه الصيغ الجمعية ، فالجمع بصيغه المتعددة يصلح للدلالة على القليل والكثير ، فلا يمكن الجزم بتحديدها على وفق الأوزان والأبنية ، وإنّما تتكشف هذه الدلالات من خلال السياق والقرائن المتعددة[6] . وممّا ورد منه قوله تعالى : ((الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ * إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ))[7] ، ففي الآية الكريمة

---

(١) تفسير النسفي : ١٩٢/٣ ، وإملاء ما منّ به الرحمن : ١٠٧/١
(٢) ليس في كلام العرب : ٢٦٨ ، وينظر: الفيصل في ألوان الجموع ٢٧٠ – ٢٧١
(٣) البحر المحيط : ٤٥٧/٧
(٤) ينظر : أبنية الصرف في كتاب سيبويه : ٢٩٣
(٥) ينظر: شذا العرف في فن الصرف : ١٥٣ ، وأبنية الصرف في كتاب سيبويه : ٢٩٤
(٦) ينظر : جموع التصحيح والتكسير في اللغة العربية : ٢٩-٣٠ ، ودلالة البنية الصرفية في السور القرآنية القصار : ١٤٩-١٥٠
(٧) غافر : ٧٠-٧١

ألفاظ مجموعة بأوزان مختلفة ، طابق بعضها ما قيل في تخصص دلالته على معنى معين من حيث القلة والكثرة ، وخالف بعضها هذا الاتجاه ، وبحسب السياق ، فلفظة (رُسُل) من أوزان الكثرة ، على زنة (فُعُل) ، جاءت مطابقة لما حُدِّد لها من معنى التكثير ، إذ إنّ السياق يدفع الى ذلك ، فالآية الكريمة تتوعّد المكّذبين بالرسل بالعذاب الأليم . ولا ريب في أنّ تعظيم أمر الرسل بالإشارة إليهم بالكثرة يتسق مع هذا السياق ، فكثرة الدعاة المرسلين لهداية الموصوف ، مع إصراره على التكذيب ، تستوجب العقاب الموصوف في الآية الكريمة . أمّا ألفاظ (الأغلال والأعناق) وهي من جموع القلّة فجاءت مغايرة لتصنيفها ، فالقرآن الكريم وصف أهل النار بالكثرة في أكثر من موضع ، وهذه الكثرة توجب تكثير الأعناق التي تشير إليهم ، وكذا الحال في أدوات البلاء (الأغلال) ، " فالغُلُّ مختصّ بما يقيّد به ، فيجعل الأعضاء وسطه، وجمعه أغلال "(١). ومنه قوله تعالى : ((كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ))(٢) ، إذ وردت جموع التكسير في الآية الكريمة مطابقة لدلالتها على التكثير ، فالسياق يحكي هول الخسران الذي أصاب المعذّبين بالإغراق في البحر ، فهم كذّبوا نبيّهم وآذوه جرياً وراء النعم التي يرونها عظيمة وكثيرة ، فحكى الوصف القرآني تكثيرها في نظرهم ، " أي بساتين هي في غاية ما يكون من طيب الأرض وكثرة الأشجار وزكاء الثمار والنبات وحسنها الذي يسر المهموم ويستر الهموم ، ودلّ على كرم الأرض بقوله : (وعيون وزروع) ، أي مما هو دون الأشجار "(٣) ، ليصف مدى خسرانهم، إذ تركوها وراء ظهورهم ، ولم تنفعهم في شيء ، بل كانت مع عظمها وكثرتها وبالاً عليهم.

وممّا جاء من أوزان الكثرة لفظ (ذنوب) ، ومنه قوله تعالى : ((فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ))(٤) ، فلا شكّ في أنّ الله (سبحانه) حليم غفور ، لا يوقع عذابه في أحد إلّا بعد أن يتجاوز الحدّ في كثرة الذنوب وتنوعها وامتدادها ، فمن صفاته (جلّ

(١) مفردات ألفاظ القرآن (غل) : ٦١٠
(٢) الدخان : ٢٥ـ٢٦
(٣) نظم الدرر : ٢٧/١٨
(٤) غافر : من الآية : ٢١

وعلا) الإمهال لا التعجيل ، لذا اعترفوا بذنوبهم في قوله تعالى : ((قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ))[١] ، فـ " قد أنكروا البعث فكفروا ، وتبع ذلك من الذنوب ما لا يحصى ؛ لأنّ من لم يخش العاقبة تخرّق في المعاصي ... فاعترفوا بذنوبهم التي اقترفوها من إنكار البعث وما تبعه من معاصيهم "[٢] . وجاء الامتداد الصوتي الذي يمثّله صوت النون الغنّي الشبيه بأصوات المدّ " لأنّ الغنّة فضل صوت ، كما أنّ اللين فضل صوت في حروف العلّة "[٣] ، وقد امتدّ بصوت الواو الثقيل ، لتحكي هذه البنية الصوتية استطالة الذنوب وكثرتها وثقلها . .

---

(١) غافر : ١١
(٢) الكشاف : ١٥٩/٤
(٣) الممتع في التصريف : ٦٨٩/٢

الباب الثاني

في دلالة البنية التركيبية

- الفصل الأوّل : في الجملة وأساليبها
- الفصل الثاني : في العدول التركيبي

توطِئة :

تمثل عملية ترابط الأصوات والأبنية والكلمات التي تشكل عناصر البناء اللغوي في نظام من الدوال والمدلولات ذروة البناء اللغوي في تأليف الكلام . وليس القصد من هذا الترابط تراكم القواعد ، إنّما الهدف منه جعل القواعد في خدمة المعنى الذي يمثل الغاية التي تتوخى من النصوص . إذ يمكن الوصول إلى فهم حقيقي للنص من خلال عناصره المفردة ، سواء أكانت أصواتاً أو مفردات ، بل يكون الفهم ناتجاً من تراكم العناصر المفردة وتلاحمها في علاقات خاصة[1] .

وقد نبّه علماء العربية إلى هذا المعنى ، فعبد القاهر الجرجاني ـ على سبيل التمثيل ـ حينما وصف الإعجاز القرآني وحدده انطلق من مفهوم أنّ هذا الإعجاز من نتاج النظام التركيبي ، فالنحو هو المعيار الداخلي الذي أقره ، وهو يهدف إلى تفكيك العبارة التي هي وحدة الكلام ، كشفاً عن بنيتها النحوية[2] . وهذا المعنى واضح في قوله : " ..أنّ الألفاظ المفردة التي هي أوضاع اللغة ، لم توضع لتعرف معانيها في أنفسها ، ولكن يُضَمّ بعضها إلى بعض ، فيعرف فيما بينها فوائد ، وهذا علم شريف ، وأصل عظيم ، والدليل على ذلك أنّا إن زعمنا أنّ الألفاظ هي أوضاع اللغة ، إنّما وضعت ليعرف بها معانيها في أنفسها ، لأدّى ذلك إلى ما لا يشك عاقل في استحالته ، وهو أن يكونوا قد وضعوا للأجناس الأسماء التي وضعوها لها لتعرف بها "[3] . وقال في موضع آخر : " ليس الغرض بنظم الكلم أن توالت ألفاظها في النطق ، بل أن تناسقت دلالتها ، وتلاقت معانيها على الوجه الذي اقتضاه العقل "[4].

إنّ هذه العلاقات الخاصة أساسية ومبكرة منذ بداية تأليف الكلام ، ويمثلها النحو ، إذ ينظم العلاقات اللغوية ضمن معايير متفق عليها ، يتم من خلالها الفهم والإفهام ، وهي تمثل

---

(1) ينظر : أسلوبية البناء الشعري , دراسة في شعر أبي تمام : 131
(2) ينظر : شكل القصيدة العربية في النقد الأدبي : 87
(3) دلائل الإعجاز : 391
(4) المصدر السابق : 56

" الطريقة التركيبية التي على أساسها يوزع المتكلم مفرداته "[1] ، على أساس من التواشج والتماسك بين هذه المفردات ، مما يخلق نصاً أدبياً له دلالاته الخاصة التي يحتفظ بها ، فتحوله من مجرد أداة توصيل للمعنى إلى وسيلة تأثير وإثارة تصدر عن ملكة وتخاطب الوجدان ، وتسعى إلى التأثير بالسامع أو القارئ .

لذلك يحتل التركيب مكانة مهمة وحيزاً واسعاً من ميدان الدراسات اللغوية ، فهو يكشف لنا كثيراً من المعاني المبتكرة التي تترشح من خلال التراكيب اللغوية ، ويفتح لنا أفقاً واسعاً في معرفة الدلالات التي يزخر بها النص ، فالعلاقات الدلالية علاقات تركيبية لا يمكن أن تنشأ " إلا بطريق التركيب ، ومن هنا يفترض أنّ التركيب النحويّ هو الوسيلة المباشرة التي أعدتها اللغة لنشوء المعنى الدلالي "[2] ، الذي يرتبط بالسياق بشكل واضح ، لذا تتأثر العلاقات التركيبية بين المفردات بالسياق وتؤثر فيه ، ولا سيما في النصوص الإبداعية ، التي يستعمل فيها المنشئ إمكانات اللغة على مستوى العلاقات التركيبية في التعبير تبعاً لمقتضيات العملية الإنشائية ، مع الحفاظ على الهيكل الأساس للغة[3] .

إنّ دراسة البنية التركيبية في سور الحواميم القرآنية تكشف لنا الترابط الوثيق بين أشكال التراكيب النحوية المستعملة والسياق من جهة ، وبينهما وبين المتلقي من جهة أخرى ، إذ نجد أنماطاً تركيبية خاصة مرتبطة بسياقات معينة ، وبمتلقي معيّن . كما أنّ حركة المفردات في الأشكال التركيبية تتسق مع الموضوعات الرئيسة التي تشكّل بنية هذه السور المباركة .

لذا وقف البحث عند الأنماط التركية التي تمثل ملمحاً بارزاً في سور الحواميم كالجملة القرآنية ، والتركيب الاستفهامي ، والتركيب الندائي ، والتركيب الأمري ، والتركيب النهيي ، وبعض مظاهر العدول التركيبي ، كالتقديم والتأخير والحذف والالتفات .

---

(1) كائن اللغة : 129
(2) نظام الارتباط والربط في تركيب الجملة العربية : 131
(3) ينظر : الأسلوبية ، مدخل نظري ودراسة تطبيقية على شعر البارودي : 25 ، ونظرية البنائية في النقد الأدبي : 178

الفصل الأوّل

في الجملة وأساليبها

تركيب الجملة القرآنية بين الثبوت والتّجدد

تعد دراسة الجملة عنصراً مهماً في الدراسات اللغوية ، لأنّها " من أهم المكونات الأساسية للغة ، فهي وحدة تركيبية قابلة للتحليل ... وهي من دون شك أبرز الوحدات في التركيب اللغوي وأتمها تكويناً "[1] . ومن خلالها نقف على مقاصد المتكلم أو الكاتب ، عبر سلسلة الجمل التي ينتجها ، ومن ثم الوصول إلى معرفة الأنماط التعبيرية وسبب بنائها على نحوٍ معين . كما أنّها تشكل الأساس الذي من خلاله يتم الولوج إلى العناصر الدلالية التي يعكسها التركيب النحويّ ، فالدلالة تبدأ في الجملة من حيث تنتهي القواعد (القواعد هنا مرادف النحو)[2] .

وقد ذهب النحويون إلى أنّ هناك تركيبين أساسيين يمثلان الجملة في اللغة العربية ، أحدهما تركيب فعلي هو الجملة الفعلية ، والآخر اسمي هو الجملة الاسمية ، وحددوا مفهوم هذين التركيبين على أساسين ، ارتبط الأول بالمبنى ، فاعتمد على أركان الإسناد ، وهو اتجاه اتسمت به الدراسات اللغوية العربية ، إذ اتجهت إلى " المبنى أساساً ولم يكن قصدها إلى المعنى إلا تبعاً لذلك "[3] . فالجملة الفعلية هي التي تبدأ بفعل ، وأمّا الاسمية فهي التي تبدأ باسم . أمّا الأساس الآخر فقد فرّق بين الفعلية والاسمية على أساس الوظيفة التي تؤديها أجزاء الجملة تقدمت أو تأخرت ، فالفعلية هي " التي يدل فيها المسند على التجدد ، أو التي يتصف فيها المسند إليه بالمسند اتصافاً متجدداً ، وبعبارة أوضح : هي التي يكون فيها المسند فعلاً ، لأن الدلالة على التجدد إنّما تستمد من الأفعال وحدها ... أمّا الجملة الاسمية فهي التي يدل فيها المسند على الدوام والثبوت ، أو التي يتصف فيها المسند إليه بالمسند اتصافاً غير متجدد ، أو بعبارة أوضح : هي التي يكون فيها المسند اسماً "[4] .

---

(1) مفهوم الجملة في اللسانيات والنحو العربي ، الدكتور محمد خير الحلواني ، مجلة المناهل ، ع26 ، السنة 10، 1403هـ -1983م : 194
(2) ينظر : علم الدلالة : بالمر : 93
(3) اللغة العربية معناها ومبناها : 12
(4) في النحو العربي نقد وتوجيه : 45-46

وكلا المفهومين اللذين حددا الجملتين اتفقا ـ من خلال دلالة الفعل على التجدد ودلالة الاسم على الثبوت ـ على أنّ الجملة الفعلية تدل عل التجدد والحدوث ، سواء أتقدم المسند فيها أم تأخر ، فإذا قيل زيد ينطلق فقد زعم أنّ " الانطلاق يقع منه جزءاً فجزءاً ، وجعلته يزاوله ويزجّيه "[1]. هذا مع فرقٍ واضح تنبّه له النحويون فيما إذا كان المسند فعلاً ماضياً ، فإنّ دلالة التجدد والحدوث فيه تنطلق من زمن حدوث الفعل مع قصد ثبات وقوع الحدث وتحققه ، " كأنّه وقع ومضى ، ثم هو يخبر عنه "[2] .

أمّا الجملة الاسمية فتدل على الثبوت في أصل وضعها ، لـ" أنّ موضوع الاسم على أن يثبت به المعنى للشيء من غير أن يقتضي تجدده شيئاً بعد شيء ،... فإذا قلت : زيد منطلق فقد أثبت الانطلاق فعلاً له ، من غير أن تجعله يتجدد ويحدث منه شيئاً فشيئاً "[3] .

وبناء الجملة على وفق أي تركيب إنّما يكون تبعاً لمقاصد المتكلم في إيراد معنى ما يروم إيصاله إلى المتلقي ، الذي يراعي أحواله وتفاعله مع الخبر ، ومدى تصديقه إياه ، فضلاً عن السياق وما يتطلبه من حيث علاقة الجملة المولّدة بما يسبقها ويلحقها من جمل ، فالسياق يصاحب الأداء اللغوي في وظيفته التواصلية والإبلاغية ، فهو ركن أساس في فهم الرسالة اللغوية[4] .

وقد وردت الجملتان الفعلية والاسمية في سور الحواميم بأشكال مختلفة ، في سياقات منحت النص القرآني دلالات اتسقت مع المعنى الذي أراد الله (جلّ وعزّ) إيصاله إلى العباد مع اختلاف درجات إيمانهم وتنوع عقائدهم . والمتتبع لآيات هذه السور الكريمة يجد أنّ هذين القسيمين ، أي الفعلية والاسمية ، قد جاءا في سياقات شكّلت خصوصية لافتة لكل منهما . ففي موضوعة التوحيد التي تمثل الأساس العقدي الذي ينطلق منه سائر أصول الدين وفروعه ، وهو العقيدة الأساس في كلّ الأديان الإلهية ، وعلى رأسها الدين الإسلامي،

(1) دلائل الإعجاز : 141 ، وينظر : معاني النحو : 15/1
(2) شرح الرضي على الكافية : 12/4 ، وينظر : معاني النحو : 15/1
(3) دلائل الإعجاز : 141 ، وينظر : في النحو العربي ، نقد وتوجيه : 45- 46
(4) ينظر : الخطاب القرآني ، دراسة في العلاقة بين النص والسياق : 6

إذ نجده الأصل الأول عند الفرق الإسلامية كلّها[1] ، نجد أنّ هاتين الجملتين قد تبادلا التعبير عن هذه الحقيقة المقدسة انطلاقاً من خصوصيات دلالتهما آنفة الذكر ، في آيات سور الحواميم المباركة ، فعلى صعيد توحيد الذات المقدسة وتوحيد الصفات ، تكون الجملة الاسمية هي المحور الرئيس في التعبير عن هذه الحقائق التي أنكرها المشركون الذين ترسّخ في نفوسهم الشرك على صعيد تعدد الآلهة الذي كان شائعاً في معتقداتهم الوثنية، وشكّل العامل الرئيس الذي انطلق منه أعداء الدين في محاربتهم وإيذائهم رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ، فكان لابد لهذا الرسوخ ما يقابله من تأكيد لوحدانية الله (سبحانه) وإثباتها ، ونفي الشريك ، وإعطاء التصور القرآني للذات المقدسة ، فكان التعبير عن ذلك بالجمل الاسمية قطعية الدلالة والثبوت ، وشكّل هذا المعنى سياقاً ثابتاً على الأغلب في هذه السور الكريمة ، ومنه على سبيل المثال لا الحصر قوله تعالى : ((غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ))[2] فـ " ذكر كلمة التوحيد للإشارة إلى وجوب عبادته وحده "[3] ، إذ كان كفار قريش لا يوحدونه ، فوحّد نفسه ـ بعد الترغيب والترهيب بقبول التوبة وشدة العقاب ـ على سبيل القطع واليقين ، ليكون المصير إليه وحده[4] ، فوحدة المعبود ووحدة المصير إليه ثابتتان في أصل وضع هاتين الجملتين ، ثم أكدتا بالقصر والتقديم والتأخير على التوالي ، لتدفع كلّ شكٍّ أو تكذيب استمكن من قلوب المشركين .

ومنه قوله تعالى : ((هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ))[5]، ففي الآية الكريمة أمر بدعائه سبحانه لا بمطلق الدعاء ، بل دعاؤه بالتوحيد وإخلاص الدين ، لأنه هو الحيُّ بذاته ، والمعبود بالاستحقاق الذاتي ، المنفرد بالألوهية[6] .

(1) ينظر : التوحيد : مرتضى مطهري : 13 وما بعدها
(2) سورة غافر : 3
(3) الميزان : 132/17
(4) ينظر : فتح القدير : 480/4 ، وروح المعاني : 24/ 404
(5) سورة غافر : 65
(6) ينظر : فتح القدير : 499/4

ففي " جملة هو الحيّ إطلاق ، لا مقيد لا عقلاً ولا نقلاً ، مضافاً إلى إفادة الحصر ، فمفادها أنّ له تعالى وحده حياة لا يداخلها موتٌ ، ولا يزيلها فناء ، فهو تعالى حيّ بذاته وغيره كائناً ما كان بإحياء غيره ، وإذا فرض هناك حي بذاته وحي بغيره لم يستحق العبادة بذاته إلا من كان حيّاً بذاته ، ولذلك عقب (هو الحي) بقوله : لا إله إلا هو "[1] .

ومنه قوله تعالى : ((قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ))[2] ، فالآية الكريمة تؤكد حقيقة أنكرتها العقول القاصرة والنفوس المريضة ، وهي حقيقة التوحيد ، إذ جاءت جواباً عن قولهم : ((قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ)) ، أي " ولا أدعوكم إلى ما تنبو عنه العقول ، وإنّما أدعوكم إلى التوحيد الذي دلت عليه دلائل العقل وشهدت له شواهد السمع "[3] ، وقد كان للتوكيد بالقصر في بداية الجملة القرآنية نقلاً للدلالة من مستوى التأكيد الذاتي في الجملة الاسمية إلى مستوى أعمق في تأكيد المعنى ، إذ تحقق هذه الزيادة في معجم البنية التلاؤم بين المستويات الدلالية للنص وحالة المتلقي ، وبذلك يتوثق الارتباط بين أطراف عملية الإبداع الثلاثة : المنشئ والنص والمتلقي[4] .

وعليه قوله تعالى : ((وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاء إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ))[5]، إذ في الآية الكريمة نفيٌ لتعدد الآلهة التي رسخت في العقول ، وترسبت في النفوس ، سواء أكانت هذه الآلهة المفترضة في السماء أم في الأرض ، ملائكة أم أصناماً ، وإثبات مؤكد لإلوهيته المتفردة التي تحقق له العبادة وحده من سكنة الأرض وأهل السماء ، وقد تكرر لفظ (إله) لتأكيد المعنى في النفس وإبعاد أي تصور بوجود متصرف غيره (سبحانه) في السماء أو في الأرض[6]. ولا يغيب عن ممعن النظر في الآية الكريمة ما فيها من ارتباط وثيق بين الشكل والمضمون التوكيديين ـ إن صح القول ـ القائمين على الارتكاز على الجملة الاسمية بدلالتها الثابتة ، وعلاقة الربط التوكيدي ـ كما يسميه الدكتور

---

(1) الميزان : 149/18
(2) فصلت : من الآية 6
(3) روح المعاني : 279/24
(4) ينظر : في البنية والدلالة : 91 - 92
(5) الزخرف : 84
(6) ينظر : مجمع البيان 72/9 ، وروح المعاني : 146/25

تمام حسان[1] ـ بتكرار لفظ (إله) المرتبطين بالمبدع ، وهو الله سبحانه ونصه الكريم ، وبين الشكل والمضمون الإنكاريين المرتبطين بالمتلقي ، وهم من ترسبت ثم ترسّخت الأفكار الوثنية في عقولهم ونفوسهم من المشركين .

ومنه قوله تعالى : ((إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ))[2] ، والآية الكريمة متعددة الأغراض، ففيها بشارة للمؤمنين ، وتخويف للعصاة ، وتسلية للرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) ، لما يعانيه من تكذيبهم وإنكارهم لحقيقة الذات المقدسة وتوحده في صفاته ، وعدم إشراك غيره فيها ، فهو وحده المثيب ، ووحده المعاقب[3] ، فتعدد أغراض هذه الجملة القرآنية المكثفة القصيرة ، التي ترد رسوخاً في الوثنية تمكّن من النفوس ، استجلب أداتين للتوكيد (إنّ واللام) ، أضيفا لدلالة الثبوت في أصل الجملة الاسمية ، ليدفع التوكيد المتعدد كلّ شكٍّ وتكذيب ، ويهوّل الوعيد ويرسّخ الإيمان ، ويزف البشرى ، فتشكّل في هذه الجملة القرآنية متوازية اسمية تتمثل بمبتدئ واحد (ربّك) وخبرين ، ربّك (لذو مغفرةٍ ـ ذو عقاب) شكّلا تضاداً داخلياً من معنيين متضادين (ذو مغفرةٍ وذو عقاب) ، ومن اتصال أداة توكيد بأحدهما وانفصالها عن الأخرى ضخّم المعنى وأحدث منبهاً أسلوبيا[4] .

وعلى النسق نفسه قوله تعالى : ((فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ))[5] . ففي الآية الكريمة متوازية اسمية ، فيها المبتدأ واحدٌ وهو الله (جلّ وعزّ) والخبر واحد في شكله ، (جملة اسمية) صدرها ضميرٌ يعود على المبتدأ الأول (الله) ، وخبرها متعدد ، والأساس التركيبي لها :

ف + اسم مرفوع + ضمير + اسم مرفوع أو فعل أو جار ومجرور لتعطي صورة واضحة للمعنى على أساس من وحدانية هذه الصفات ورجوعها إلى ذات واحدة هي الذات

---

(1) ينظر : البيان في روائع القرآن : 1/ 128
(2) فصلت : 43
(3) ينظر : مجمع البيان : 20/9 ، والكشاف : 116/4
(4) ينظر : أسلوبية البناء الشعري ، دراسة أسلوبية لشعر سامي مهدي : 88
(5) الشورى : 9

المقدسة[1] . مع التأكيد المتحقق بضمير الفعل . فتعدد المؤكدات يتناسب مع الجحود الذي تمكن من القلوب ، فانعكس سلوكاً مؤذياً باتجاه صاحب الرسالة (صلى الله عليه وآله وسلم) ومن آمن معه . وفي الآية الكريمة لطيفة قرآنية تنقلنا إلى القسيم الثاني من الجملة ، أي الجملة الفعلية ، وهي مجيء الخبر في المتوالية الثانية (وهو يُحيي) فعلاً مضارعاً ، على حين أنّ الخبر في الأولى اسم ، وفي الثاني جار ومجرور ، مما شكّل (عدولاً) تركيبياً يُمثل إجراءً أسلوبياً لمخالفته السياق من التأليف القواعدي الذي يسبقه والذي يأتي بعده[2] ، حقق هذا الإجراء معنى ثابتاً يتعلق بثبوت الولاية والقدرة لله ، وتحرّك عملية الإحياء وثبوتها واستمرارها . فالجملة الاسمية إذا كان خبرها اسماً تفيد الثبوت ، أمّا إذا كان خبرها فعلاً فقد يفيد استمراراً تجددياً[3] .

وإذا انتقلنا في البحث عن المرتبة الأخرى في التوحيد وهي ما يصطلح عليه التوحيد الأفعالي أو توحيد الربوبية ، " وهو يعني معرفة أنّ العالم بكل أنظمته وسننه وعلله ومعلولاته وأسبابه ومسبباته ، وكلّ الأفعال والأعمال ناشئة من أرادته جلّ وعلا "[4] ، نجد أنّ الجملة الفعلية هي المحور التعبيري الرئيس عن هذه الحقيقة ، فـ " الفعل هدف فلسفي يحكم الوجود كلّه ، وليس الذخيرة اللغوية حسب ، انطلاقاً من أنّ الوجود أساساً قائم على الفعل وردّ الفعل في شكله الخارجي وتفصيلاته "[5] . والمتأمّل في سور الحواميم فيما يخص حقيقة التوحيد الربوبي يجد أنّ الفعل الماضي هو المحور التعبيري الرئيس ، فقد ارتفع ارتفاعاً واضحاً على الرغم من أنّ قسيمه الآخر - أي المضارع - يساويه ، وقد يرتفع عليه إجمالاً في هذه السور ، ولعل الأمر يرجع إلى ثبوت أمرين في الفعل الماضي ، الأمر الأول النسبة التحققية ، أي كون العرض (الحدث) متحققا في الخارج على وجه اليقين ، والأمر الثاني انتسابه إلى فاعله بنسبة تامة خبرية مع لزوم سبق التحقق على الأخبار[6] .

---

(1) ينظر : البحر المحيط : 487/7 ، وروح المعاني : 24/25
(2) ينظر : أسلوبية البناء الشعري ، دراسة أسلوبية لشعر سامي مهدي : 89
(3) ينظر : معاني الأبنية : 10
(4) الكون والتوحيد في المنظار الإلهي : 47
(5) تقنيات المنهج الأسلوبي في سورة يوسف : 19
(6) ينظر : قواعد الأصول : 100/1

ولعل هاتين الصفتين اللتين تفيدان الثبوت واليقين أعطتنا القيمة التعبيرية للفعل الماضي على مستوى توحيد الربوبية ، ودفع الشبهات والشكوك بوجود مدبر وخالقٍ ورازق غيره (سبحانه) . وسور الحواميم تحفل بكثير من الآيات الكريمة المثبتة لهذه الحقيقة الأساسية في التوحيد ، ومنه قوله تعالى في سورة المؤمن : ((اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ۞ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ۞ كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ۞ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَاراً وَالسَّمَاء بِنَاء وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۞ هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخاً وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ۞ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ))(1) ، فالآيات القرآنية جامعة لبعض أوصاف الربوبية ، من خلق كلّ شيء وإنشائه من دون أن يمتنع عليه شيء ، والخلق لا ينفك عن التدبير ، ولازمته أن لا يكون في الوجود ربٌّ غيره ، ومن ثم لا معبود غيره(2). والممعن النظر في الآيات السابقة يجد أنّ الأفعال التي أشارت إلى القدرة الإلهية والتدبير الربوبي (جعل لكم ، صوّركم ، أحسن صوركم ، رزقكم ، خلقكم) ، جاءت على صيغة الفعل الماضي المتعدي ، لتعطي دلالة فلسفية ثلاثية الأبعاد ، مركبة ، حيث وجود الفعل مثبتاً أحداث القدرة الإلهية ، مرتبطاً بفاعله القادر المتفاعل مع الفعل ، ووجود المفعول المتلقي الذي يقابل نتيجة الفعل والفاعل ، فتكتمل الصورة ، ثبوت الربوبية القادرة معناها حتمية العبادة له وحده سبحانه ، فالنعم الإلهية المعبّر عنها بهذه الأفعال تقتضي شكراً لمنعمها من عبده المُنعَم عليه ، لذلك نجد أنّ المتلقي (المفعول به) كانت الإشارة إليه بالضمير المرتبط بالفعل ، ويبدو أنّ هذه الصيغة تشير إلى الارتباط الوثيق بين الأفعال ومفعولها (الإنسان) ، لأنّ الخطاب موجّه إليه ،

---

(1) غافر : 61-68

(2) ينظر : الميزان : 149/17

والأفعال منجزة له ، فكان واجباً أن يبادل المنعِم عليه بها بالشكر الذي رأسه الإيمان بتوحيده لا الإشراك به (سبحانه) ، لذا جاء بعد هذه الأفعال قوله تعالى : ((إِنَّ اللّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ)) ، وقوله سبحانه ((قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ)) . ولا يخفى ما في الفعلين (نهيت وأمرت) من ثبوتهما استناداً إلى ما تقدم من ثبوت دلالة الفعل الماضي ويقين تحققه ، زيادة على انتسابهما إلى فاعلهما على وجه التلبس به .

أمّا الأفعال المضارعة الواردة في الآيات الكريمة السابقة ، فمرتبطة كما يبدو بأصل دلالتها على التجدد والحدوث ، وتنفس زمنها بين الحال والمستقبل[1] . ففي قوله تعالى : (يخرجكم طفلاً)، وقوله : (هو الذي يحي ويميت) ، وقوله : (فإنّما يقول له كن فيكون) أفعال مضارعة دالة على التوحيد الأفعالي (الربوبي) ، تتصف بالتجدد والحدوث المستمر ، فإخراج الإنسان طفلاً من بطن أمّه وإحياؤه وإماتته أحداث مستمرة الحدوث دائمة الصيرورة دوام السماوات والأرض ، فكان لزاماً أن يعبّر عنها بالفعل الدال على التجدد. وكذا الحال في الفعلين (يقول ، ويكون) فهما مرتبطان بالأفعال السابقة ، كقدرته على الإحياء والإماتة ، وسائر ما ذكر من أفعاله الدالّة على أنّ مقدوراً لا يمتنع عليه، وهو هيّنٌ سريع الوقوع ، متجدد مستمر الحدوث من غير توقف[2] .

ومنه قوله تعالى : ((قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۞ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاء لِّلسَّائِلِينَ ۞ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ اِئْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ۞ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاء أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ))[3] . فقد جاءت الآيات الكريمة على اتساق مع آيات سورة غافر التي تقدم الحديث فيها ، فأفعال القدرة الربوبية جاءت بصيغة الفعل الماضي، فيقال فيها ما قيل في آيات سورة غافر ، من الوقوع التحقيقي

(1) ينظر : معاني النحو : 280/3
(2) ينظر : الكشاف : 96/4 ، وفتح القدير : 501/4
(3) فصلت : 9 - 12

على وجه اليقين ، وتمام نسبتها إلى فاعلها المقتدر الذي منحها ـ مع تحقق الوقوع-، أي حدوث الشيء وانتهائه ، تجاوز أفقها الزمني المفهم من صيغها الماضية ، فالدلالات الزمنية للأفعال يمكن تجاوزها ، إذ تخضع هذه الدلالات في أحيان كثيرة للسياقات وتشكيل أنساقها[1]. زيادة على ما تقدم ، يجد الباحث في النص القرآني أنّ في هذه الآيات الكريمة ظاهرة أسلوبية تلفت النظر ، تتعلق بالفاعل الذي جاء ضميراً مستتراً ، والمفعول اسماً ظاهراً ، ويبدو أنّ الأمر يرتبط بالمتلقي (المفعول به) ، فآيات التوحيد المذكورة جاءت في سياق التعجّب من كفرهم بالله ، بمعنى شركهم مع وجود آيات توحيده[2] ، فكان الاهتمام بإظهار هذه الآيات ، فجاءت مفعولات ظاهرة لأفعال التوحيد (خلق الأرض ، جعل فيها رواسي ، قدّر فيها أقواتها ، فقضاهنّ سبع سماوات ، وأوحى في كلّ سماء أمرها ، وزيّنا السماء) ، وفي هذا الإظهار ردّ توكيديّ على شركهم ، مع تعظيم لخالقها ومدبّرها . كما لا يخفى ما في أحداث القدرة الإلهية من حركة ، وتجدد ، وصيرورة مرتبطة بآيات القدرة الإلهية نفسها ، لا بالقادر (سبحانه) ، فهو لا يحتاج إلى حركة وانتقال ، فأمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ، فخلق الأرض كان متحرّكاً ممتدّاً في يومين ، وتثبيتها بالرواسي ، وتقدير الأرزاق والأقوات فيها ، متصف كذلك بالامتداد الزمني ، والأمر منطبق على السماوات التي قضاهنّ (سبحانه) في يومين ، فحركة هذه الأفعال وحيويّتها يعطي بعداً تدبيرياً يحتم على العقل أن يقف أمامه ، وينجذب إليه ، ويستحضر تجدده وحركته ، " والمراد بالتجدد في الماضي حصوله ، وفي المضارع تكراره "[3] .

وفي السياق نفسه وبالمحددات الأسلوبية نفسها نتأمل قوله تعالى : ((وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ۞ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۞ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتاً كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ۞ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ))[4] . ففي

(1) ينظر : في البنية والدلالة : 101
(2) ينظر : الميزان : 157/17
(3) المعاني في ضوء أساليب القرآن : 219
(4) الزخرف : 9 - 12

الآيات الكريمة إخبارٌ عن غاية جهلهم ، إذ اعترفوا بأن الله خلق السموات والأرض ، بعد أن استحال عليهم حسّاً وعقلاً أن يحيلوا ذلك على الأصنام ، ولكنّهم مع ذلك عبدوا غيره (سبحانه) وأنكروا قدرته على البعث[1] . وعلى اتساق مع الآيات الكريمة السابقة يتكرر استعمال الفعل الماضي الذي يفيد الانقطاع ، أي حصول الأمر على وجه اليقين قبل الإخبار، ولكنّ هذه الصيغة من الفعل الماضي قد تفيد التكرار بحسب السياق الذي ترد فيه[2]، فخلق السموات والأرض ، وجعل الأرض مهدا ، وجعل السبُل فيها ، أفعال قدرة ربوبية حدثت على وجه الانقطاع ، أمّا إنزال الماء من السماء ، وإحياء البلدة الميتة به ، فأفعال مستمرّة الحدوث ، لذا جاءت بصيغة المضارع في مواضع أخر ، كقوله تعالى: ((هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقاً وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ))[3] ، " وصيغة المضارع في الفعلين ، للدلالة على تجدد الإرادة والتنزيل واستمرارها "[4] . والذي يؤكد هذه الحقيقة ختام الآية الكريمة بالفاصلة (كذلك تخرجون) ، أي مثل ذلك الإنشاء ـ وهو إخراج النبات ـ ستخرجون من قبوركم ، بدلالته على المستقبل ، فإخراج النبات وإحياء الأرض المتكرران حسّياً ، اللذان تراهما العين في كلّ وقت ، كما هما دليل على قدرة الله وحكمته ، هما دليل على قدرته على البعث ، " وفي التعبير عن إخراج النبات بالإنشاء الذي هو إحياء الموتى ، وعن إحيائهم بالإخراج ، تفخيم لشأن الإنبات وتهوينٌ لأمر البعث ، وفي ذلك من الردّ على منكريه ما فيه "[5] . وهذا مما يؤكّد المساحة التي شغلها الفعل الماضي في هذه السور للإشارة إلى حقيقة التوحيد ، فقد أُخرج الفعل من ضيق نسبته إلى الزمن ، فتنفس الزمن الواسع . كما أنّ الفعل الماضي المتعدي كان هو المحور التعبيري في هذا السياق ، لإبراز انعكاساته الحسّية التي كان العقل الوثني مرتبطاً بها ، فهو عقل بدائيّ ، يرفض الغيب وينكره ، فكانت شواهد القدرة الإلهية المحسوسة

---

(1) ينظر : مجمع البيان : 50/9
(2) ينظر : معاني النحو : 268/3
(3) غافر : 13
(4) روح المعاني : 420/24
(5) المصدر نفسه

جـواباً على إنكارهم ، فيشعـر المتلقي مـن خـلال هـذا الشـكل التعبيري بنسـق وثيق الصـلـة بالواقع .

نقول إنّ ما ذكرناه لا يعني اقتصار هذه الصيغ الاسمية والفعلية على السياقات المذكورة ، بل المقصود من إيرادها أنّها تشكّل بعداً مرتفعاً عن غيرها من الصيغ ، إذ تشكّل نسقاً أسلوبياً مهيمناً على هذه السور الكريمة .

التركيب الاستفهامي

يشكّل أسلوب الاستفهام مظهراً لغويّاً متميزاً ، يستحوذ على عنصري الاختيار والتوزيع ، لما يتمتع به من قيم أسلوبية تأثيرية تنبع من الدلالات المشعة التي تنبعث من وراء استعمال أدواته المتعددة بصورة مباشرة ، أو من خلال الصور المضمونية التي تدل عليها القرائن السياقية والحالية التي تكشف عن وجود دلالة استفهامية من دون ظهور هذه الأدوات ، وهو نمط تركيبي من الجمل الإنشائية ، يعني طلب الفهم بأدوات مخصوصة[1] ، أو هو طلب الجواب مع سبق جهل المستفهم ، أو هو تنبيه السامع إلى نفسه فيخجل ويرتدع ويعي الجواب[2] .

وللاستفهام وقع خاص في النص الإبداعي ، إذ إنّ من الممكن أن يشكّل جسراً إبلاغياً بين المرسل والمتلقي ، لتحركّه بين معانٍ مختلفة تكشفها بعض السياقات ، فالأدوات المستعملة في هذا الأسلوب إنّما تكتسب دلالتها من خلال تفاعلها مع السياق ، إذ إنّ دلالتها مرهونة بوجودها فيه ، فإذا فصلت عنه فقدت دلالتها ، ولا فرق حينئذ بينها وبين حروف المعجم ، وهذا يعني أنّ دلالة هذه الأدوات تركيبية ، وليست إفرادية[3] .

وهذا التحرّك يعد تحوّلاً أو عدولاً عن النمط المألوف يضفي على النص إيحاءات دلالية وقيماً جمالية ، فالاستفهام هو " عبارة عن حيّز يتواجد فيه أكثر من احتمال ، غير أنّ الاستعمال المتعارف عليه ، أي طريقة توظيف الكلمة في سياقات معتادة هو الذي يجعل دلالة ما تطغى على كل الاحتمالات ، وعندما يعيد المتكلم تركيب الكلام يكون قد أدخل الكلمة في شبكة من العلاقات تجبر ذلك الحشد الدلالي على البروز "[4] . وهو ممّا يبعد النص الإبداعي عن النمطية والرتابة التي تفقده رونقه الأدبي ، ويزيد في عملية التأثير في

(1) ينظر : الإتقان في علوم القرآن : 211/2
(2) ينظر : دلائل الإعجاز : 105
(3) ينظر : ظواهر أسلوبية في الشعر الحديث في اليمن : 233
(4) في بنية الشعر العربي المعاصر : 27

المتلقي ، فهو يسمع كلاماً ، فيتبادر إلى ذهنه معنى آخر لم يعهده ، فيُثير في نفسه حركة ويدفعه إلى أن يشارك السائل فيما يحسّ ويشعر[1] .

لقد حقق أسلوب الاستفهام في سور الحواميم دلالات متعددة ، خرجت في الأعم الأغلب عن المعنى النمطي للاستفهام ، ولا سيّما أنّ القرآن الكريم قد عرض الاستفهام في الكثير من الموضوعات التي كانت تشكّل المعضلة الرئيسة التي واجهها الأنبياء ، وبالأخص في الجانب الغيبي ، الذي يمثل بوابة الدخول إلى تفاصيل الدين أو فروعه ، وهو من أبرز الموضوعات التي واجهت الإنكار والتكذيب ، فتصدّى القرآن الكريم لها بأسلوب الإثبات بوسائل لغويّة مختلفة ، من أهمها الاستفهام الذي خرج عن نمطية كونه طلباً لمعلوم يجهله السامع إلى تحقيق معانٍ عديدة بأسلوب أكثر تأثيراً في المتلقي . ومن أبرز المعاني التي تحققت بالاستفهام هو الإنكار ، " وتأويله بالنفي ، ومثاله في الكلام : ما شأنك أنت ؟ أي : لا شأن لك "[2] ، وفي العدول إلى الاستفهام لتحقيق النفي أغراض ودلالات لا تتحقق بالنفي الخبري ، فالنفي بالاستفهام ليس نفياً محضاً ، بل هو مزيج من عدة معانٍ (نفي ، تعجّب ، تهكم ، تحقير ...) ، ولكن قد لا تحضر جميعها في آن واحد ، لذا هو أكثر تأثيراً في النفس . كما أنّه يكون لمطلق النفي ، ويكون المتلقي هو المقرر للحقيقة التي سئِل عنها ، فلا يقوى عندئذٍ للتراجع أو التنصل أو نسيان ما قرره بنفسه . زيادة على أنّ النفي بالاستفهام يلفت الانتباه ، ويشحذ الذهن ، ويدفعه إلى التمعن والتفكير ، ومن ثم يحث المتلقي على العمل[3] .

ومنه قوله تعالى : ((أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحاً أَن كُنتُمْ قَوْماً مُّسْرِفِينَ))[4] ، فالآية في سياق الحديث عن القرآن الكريم الذي ينكرونه ، على الرغم مما جاء به من الآيات البينات في الكون والنفس والقرآن ، ولو أحسنوا تدبرها لدفعتهم عن الإسراف في الإنكار والكفر ، لذا جاء النفي الإنكاري بأسلوب الاستفهام ليكون أكثر وقعاً وتأثيراً على المتلقي،

(1) ينظر : أساليب الاستفهام في القرآن الكريم : 296
(2) البيان في روائع القرآن : 345
(3) ينظر : أساليب النفي في القرآن الكريم : 298 - 304
(4) الزخرف : 5

فهو " لتنبيه السامع حتى يرجع إلى نفسه ، فيخجل ويرتدع ، ويعيا بالجواب ، إمّا لأنّه قد ادّعى القدرة على فعلٍ لا يقدر عليه ، فإذا ثبت على دعواه قيل : فافعل ، فيفضحه ذلك، وإمّا لأنّه هَمّ بأن يفعل ما لا يستصوب فعله ، فإذا روجع فيه تنبّه وعرف الخطأ ، وإمّا لأنّه جوّز وجود أمر لا يوجد مثله ، فإذا ثبت على تجويزه وبّخ على تعنّته"[1]. زيادة على معنى التقرير الملازم لهمزة الاستفهام[2]،فيكون المعنى إنكاراً تقريرياً اتسق مع إنكارهم المسرف.

وفي السياق نفسه ، أي سياق إنكار آيات الله ونعمه , يطالعنا قوله تعالى : ((وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنكِرُونَ ۞ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَاراً فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ))[3] ، إذ تتضح في الآية الكريمة سمة تراكمية ، بتكرار أداتين للاستفهام ، في جمل متتابعة يشكّلان إشباعاً للسياق النصي ، ولكن مع مغايرة باختلاف الأداتين تستجلب مغايرة في الدلالة ، إلا أنّها على سبيل التكامل ، فالاستفهام الإنكاري في (فأيّ آيات الله) ، يمهد لتوبيخهم باستفهام الهمزة (أفلم يسيروا) ، فظهور آيات الله ودلائل قدرته لا يبقى حجة للمنكرين ، لذا هم يستحقون التوبيخ[4] . وقد أوثرت (أيّ) في مقام الإنكار لدلالة العموم ، فجميع آيات الله صالحة للدلالة على توحده وقدرته ، فإن كلاً منها من الظهور بحيث لا يكاد يجترئ على إنكارها من له عقل ، لذا جاء أسلوب الاستفهام في الآيتين ، وقد عُدِل به عن مستوى دلالته القياسية ، ليتناسب مع حال المتلقين وانفعالاتهم ، إنكاراً وتوبيخاً ، ويستهدف تجذير الخطاب بين المرسل والمستقبل ، وهذا العدول هو الذي يحرّك أداة الاستفهام عن مستواها " المعجمي الميكانيكي الدلالة ، إلى المستوى الانزياحي الذي يتيح له أن يسخّر لغته لمعانٍ جديدة ، تحيي مواتها ، وتوسع دلالاتها ، وذلك بالاضطراب بها في مضطربات بعيدة لا عهد للغة المعجمية بها "[5] .

---

(1) دلائل الإعجاز : 105
(2) المصدر السابق : 101
(3) غافر : 81
(4) ينظر : الميزان : 152/17
(5) في نظرية الرواية ، بحث في تقنيات السرد : 123

ومن الاستفهام الإنكاري قوله تعالى : ((أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَن كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ))(1) ، إذ تغدوا الصيغة الاستفهامية في الآية الكريمة مالكة نتوءاً محسوساً في النص ، بوجود المنبّه الأسلوبي المخالف للسياق الإخباري المباشر ، بصيغة استفهامية لا مباشرة ، وهو " نموذج لساني مقطوع بواسطة* عنصر غير متوقع "(2) ، وهي مخالفة ذات وجهين ، الأول تنزيل الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) منزلة من يظن أنّه قادر على تمكين التذكير من قلوبهم ، لذا وجّه له الخطاب باستفهام الإنكار ، وهو بلا شكّ ليس منكراً، إذ إنّه يعلم أنّ الهداية مرتبطة بإرادة الله وحده . والثاني العدول بالاستفهام من استعماله النمطي إلى معنى الإنكار الذي هو أكثر إبلاغاً وتأثيراً في المتلقي من النفي الصريح ، لأنّ الاستفهام يتجاوز مقصدية التكذيب أو التوبيخ إلى طلب الجواب الذي ينبّه المتلقي ، فيراجع نفسه(3) .

ومن دلالات الاستفهام في سور الحواميم التعجّب ، ولا سيما أنّ هذه السور الكريمة ركّزت كثيراً على الجوانب الغيبية ، وبخاصة التوحيد والمعاد ، ووحدة العبودية لله ، لذلك كانت عندما تطرح الأدلة الحسّية والغيبية ، وتجابه بالإصرار على الكفر ، كانت تبدي التعجّب بأساليب مؤثرة في المتلقي ، وبخاصة الاستفهام الذي يُعدل به عن نمطيته المعهودة إلى الدلالة على التعجب ، من خلال تفاعل الصيغة مع السياق .

ومنه قوله تعالى : ((ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ)) (4) ، ففي الآية خطاب منبّه للمتلقي من وجهين ، أحدهما دلائل القدرة التي تستلزم بعد سوقها على سبيل الاحتجاج إيماناً وتصديقاً ، والثاني الاستفهام الذي لا يحتاج إلى جواب ، وهو ديدن أغلب استفهامات القرآن الكريم(5) ، وإنّما سيق للتعجب من إصرارهم على الانحراف، على الرغم من دلائل القدرة التي سيقت إثباتاً لتوحده سبحانه . والعدول بدلالة

---

(1) الزخرف : 40
*كذا وردت
(2) معايير تحليل الأسلوب : 56
(3) ينظر : دلائل الإعجاز : 105
(4) غافر : 62
(5) ينظر : البحر المحيط : 435/2 ، والبحث الدلالي عند السيد محمد محمد صادق الصدر : 361

الاستفهام عن دلالته النمطية أوقع تأثيراً في المتلقي ، إذ تلفت انتباهه إلى المستفهم عنه ، وعندها يقف متدبّراً محاولاً سبر غور العبارة . وبذلك يكون الخطاب متسقاً مع حال المتلقي الذي ينكر الدلائل الواضحة ولا يقرّ بها ، وهو يدرك ذلك .

وفي هذا السياق يندرج قوله تعالى : ((وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ))[1] ، إذ في الآية الكريمة مراعاة على درجة من الدقة العالية لحال المرسل الثانوي الذي جرى الخطاب على لسانه (مؤمن آل فرعون) . زيادة على مراعاة المتلقي لجذب انتباهه ، فاستعمال المرسل للاستفهام الذي لا يريد منه جواباً ؛ لأنَّهُ أعرف بنفسه ، إنّما يتسق مع حال الإيمان المستقر فيه الذي أضاء قلبه ، فعرف يقيناً أنّ دعوته دعوة النجاة ، ودعوتهم دعوة الهلاك ، لأنها تؤدي إلى النار ، " كأنه لما دعاهم إلى التوحيد قابلوه بدعوته إلى عبادة آلهتهم ، أو قدرها لهم لما شاهد جدالهم بالباطل ، وإصرارهم على الشرك ، فنسب إليهم الدعوة بشهادة حالهم ، فأظهر العجب من مقابلتهم دعوته الحقة بدعوتهم الباطلة "[2] .

ومنه قوله تعالى : ((وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ))[3] ، فالسياق سياق تعجّب من إنكارهم عبادة الله وانصرافهم إلى غيره ، على الرغم من اعترافهم بأنه خالقهم ، فهذا التناقض بين الاعتراف والإنكار يثير تعجّباً ، إذ إنّ العقل يحكم بعكسه ، فكان التعجب بـ(أنّى) الاستفهامية التي تنماز بسعة أدائها المعنى ، " والقوة في الاستفهام ، وبناؤها اللغويّ يوحي بذلك ، فالتشديد الذي فيها ، والمدّة الطويلة في آخرها يرجحان ذلك"[4] ، وهذا النوع من الاستفهام الصادر من غير شاكٍّ بإمكان الإعلام لا يمكن أن يحمل على دلالته النمطية ، " فكلّ ما جاء على لفظ الاستفهام في القرآن ، فإنّما يقع في خطاب الله تعالى ، على معنى أنّ المخاطب عنده علم ذلك الإثبات أو النفي حاصل ،

---

(1) غافر : 41
(2) الميزان : 144/17
(3) الزخرف : 87
(4) معاني النحو : 219/4

فيستفهم منه نفسه تخبره به ، إذ قد وضعه الله عندها "[1] . وهذا الفهم لمقصود هذا النوع من الاستفهام يدخل النص في دائرة الانزياحات التي تجعله أكثر إثارة للمتلقي ، فتدفعه إلى الارتباط بالنص والتفاعل معه ، وتبتعد به عن النمطية المعيارية التي تلزم ألفاظه حدودها المعجمية البعيدة عن الانزياحات ، فيأتي النص خالياً من أي إثارة .

ومن المعاني التي أفادها أسلوب الاستفهام في سور الحواميم التقرير ، " والتقرير حملك المخاطب على الإقرار والاعتراف بأمر قد استقرّ عنده "[2]. ومنه قوله تعالى : ((قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ))[3] ، فالاستفهام في هذا السياق موجّه من نبيّ إلى قومه الذي عرفهم وعرف إصرارهم على الكفر ، وأيقن ببطلان ما يدّعون ، فلم يعد هناك مجال لحمل الاستفهام على حقيقته ، إنّما أراد المرسل الثانوي - أي النبي (ع) - لفت انتباههم إلى صدقية ما جاء به من عند ربّه بأسلوب الاستفهام التقريري ، بمعنى تقريرهم على أنّ ما جاء به أهدى مما عندهم من آبائهم ، لجذبهم إلى التفكّر على سبيل المقارنة ، ولا سيما أنّ الخطاب جاء بأسلوب التفضيل ، وكأنّ فيما عندهم شيء من الهدى . فالعدول بأسلوب الاستفهام عن دلالته النمطية إلى التقرير يوحي إلى أنّ الخطاب على مستوى (وجادلهم بالتي هي أحسن) ، إذ لم يقل : ما جئتكم به أهدى مما وجدتم عليه آبائكم ، وهو أسلوب يلزم المتلقي أدبياً بالتفكّر فيما يُطرح عليه ، ويشدّ انتباهه ، ويفاجئه ، فيصغي مشدوداً . وفيه مراعاة بالغة من حيث اختيار التراكيب ومستوياتها التي تتوافق وطبيعة مقام المتلقي ، فلكلّ خطاب سياق له أثره في بنية الدلالة ، فأسلوب المفاجأة والتوتر يفضي إلى مزيدٍ من التأمل للإشارات التركيبية الواردة في النص.

ومنه قوله تعالى : ((سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ))[4] ، فالاستفهام بدليل القرائن لا يمكن أن يحمل على دلالته المعتادة معيارياً ، لأن الخطاب من مرسل (الله) هو أعلم برسوله ، إلى متلقٍ قد

---

(1) البرهان في علوم القرآن : 327/2
(2) المصدر السابق : 331/2 ، وينظر : البيان في روائع القرآن : 346
(3) الزخرف : 24
(4) فصلت : 53

أيقن قدرة من وجّه إليه الخطاب ، فآمن بها على وجـه اليقين والتسليم ، وآمن بشاهدته على كلّ شيء وهو النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ، لذا فـي الاستفهام انزياح إلى معنى التقـرير ، أي : إن ربّك يا محمد شاهد على كلّ شيء ، لتمكين المعـنى فـي نفس المتلقي الثانوي ـ ما وراء النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ـ من خلال شحـذ فهمه وجعـله في حالة توتر تشدّه إلى التركيز ، عبـر جماليات الأسلوب وآلياته ، لتعميق الانتباه ومـن ثم لإفهامه ، والمعنى " أولم يكـف فـي تبيين الحقّ كـون ربّك مشهـوداً على كلّ شـيء ، إذ ما مـن شيء إلا وهـو فـقير مـن جميع جهـاته إليه ، متعلق به ، وهـو تعالى قائم به قاهـر فوقه، فهـو تعالى معلـوم لكلّ شيء وإن لم يعـرفه بعض الأشياء "[1]. وفـي هذا العدول الدلالي على مستوى الاستفهام تثبيت للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ـ المتلقي الأول ـ وتشجيع له على المضي في الثبات على رسالته والإصرار على تبليغها ، وتيئيس لمناوئيه .

ومنه قوله تعالى : ((وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ))[2] ، إذ عـمد المرسل الثانوي ـ فرعون ـ إلى تذكير قومه بما له من ملك على سبيل الاستفهام ، عـدولاً به إلى معنى التقـرير ، افتخاراً وغروراً واعتداداً بنفسه ، لخداع قـومـه ، لعلمه أنّ المظاهر المادية تزيغ أبصارهم عن رؤية الحق ، ولتأكيد هذا التقرير وتمكينه من نفوسهم ختم الخطاب بتقرير آخر بأسلوب الاستفهام ، وتكتسب ركامية الجمل الاستفهامية بعداً دلالياً أعمق ، ولا سيما عندما تغدو في نهاية النص ، فتصبح الاستفهامات المتتابعة يقينا مؤثراً ، يعمل على فتح فضاء تأثير على المتلقي يمنع انغلاق النص[3] أمام متلقٍ بعينه ، إذ يمتد هذا التأثير إلى المتلقي الآخر الخارج عن زمن حوارية النص ، كاشفاً مدى استكبار فرعون وغروره .

ومن المعاني التي أزيح الاستفهام باتجاهها دلالياً ، التوبيخ الذي يمتزج في الأعم الأغلب بمعانٍ أخرى كالتقرير والإنكار وغيرهما ، ومنه قوله تعالى : ((أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً فَإِن يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ

---

(1) الميزان : 175/17
(2) الزخرف : 51
(3) ينظر : أسلوبية البناء الشعري ، دراسة أسلوبية لشعر سامي مهدي : 98

بِذَاتِ الصُّدُورِ))[1] ، فـهمزة الاستفهام المدلول عنها بـ (أم) قد يكون الاستفهام فيها منزاحاً عن معناه النمطي إلى دلالات أخرى كالتوبيخ[2] ، ومنها الآية الكريمة ، إذ إنّ الموبّخين بالخطاب قد استحقوا التوبيخ ، لأنهم افتروا على نبيّهم بأن نسبوا إليه الافتراء على الله ، فإنه لا يجترئ على افتراء الكذب على الله إلا من كان في مثل حالهم ، فأريد بهذا الأسلوب استبعاد أن يخون مثله ، والتنبيه على أنّ تخوينه أمر عظيم يستجلب توبيخاً وتقريعاً[3] .

إنّ الاستفهام في الآية الكريمة لم يكن لمجرّد الدلالة العدولية التي أفادها ، بل إنّه حقق عملية ربط النص الوارد في الآية الكريمة بسابقه ، أي قوله تعالى : ((قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْناً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ)) ، وبذلك نصعت حدود المجال الخطابي الواحد بين العنوان الرئيس (المودة) والنص الاستفهامي ، مما جعل عنوان الخطاب يقوم بوظيفة الموضوع العام ، وتكون كلّ الأفكار الواردة في الخطاب مسندات له ، إنه الكلّ الذي تكون هذه الأفكار أجزاءه[4] .

ومنه قوله تعالى : ((وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْماً مُّجْرِمِينَ))[5]، إذ إنّ السياق في الآية الكريمة سياق وقوفٍ للحساب بين يدي عالم بخفايا الأمور وظواهرها ، غير محتاج ولا مفتقر لعلم يجهله فيسأل عنه ، لذا فالاستفهام عدل به عن نمطيته ، والمعنى " يقال لهم تعنيفاً وتوبيخاً وتذكيراً لما به استحقوا ما ابتلوا به من العذاب : ألم تكن آياتي تتلى عليكم في الدنيا "[6] .

وقد يستعمل الاستفهام لمعنى التمني ، ومنه قوله تعالى : ((قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ))[7] ، فالمستفهمون في الآية القرآنية في موقف مهول من العذاب والتنكيل ، لذا كان الاستفهام حاملاً سمة أسلوبية

---

(1) الشورى : 24
(2) ينظر : معاني النحو : 217/4
(3) ينظر : الكشاف : 226/4 ، وتفسير النسفي : 102/44
(4) ينظر : معايير تحليل الأسلوب : 56
(5) الجاثية : 31
(6) تفسير أبي السعود : 151/6
(7) غافر : 11

تعبيرية ، عملت على تكثيف المعنى ، فظهر مليئاً بالإيماء ، فهم ملهوفون للخلاص من العذاب ، فدفعتهم هذه اللهفة إلى تمني الخروج ، فطلبوه على سبيل الاستفهام الذي يتناسق مع السياق الذي ورد فيه ، ومع مقتضى حال المستفهم المنفعل ، ولا سيّما " أنّ الاستفهام أوفر أساليب الكلام معاني ، وأوسعها تصرفاً ، وأكثرها في مواقف الإنفعال وروداً ، ولذا نرى أساليبه تتوالى في مواطن التأثر ، وعندما يراد التأثر وهيج الشعور ، للاستمالة والإقناع ، وإذا صح القول إنّ الكلام قمّة عليا في البلاغة ، فإنّ أسلوب الاستفهام محتل أعلى مكان في تلك القمة "[1] .

ومنه قوله تعالى : ((وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن وَلِيٍّ مِّن بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ))[2] ، ففي الاستفهام " إشارة إلى تمنيهم الرجوع إلى الدنيا بعد اليأس عن السعادة ومشاهدة العذاب "[3] ، وقد تواشج مع استفهام التمني في إبراز تمنيهم الخلاص بالرجوع إلى الدنيا التنكير في (مردٍ ، من سبيل) ، إذ يشير إلى أنّهم يبحثون عن أي طريق وأي ردّ مهما كان ، للخلاص مما هم فيه ، كذلك العموم في الخطاب إذ " ترى ويرى كلّ من هو راءٍ ، وفيه إشارة إلى أنّهم يتمنون ذلك على رؤوس الأشهاد[4].

ومن الدلالات التي حققها أسلوب الاستفهام التنبيه ، وهو معنى قد يكون ملازماً للمعاني المتقدّمة التي تشكّلت نتيجة العدول الاستفهامي على مستوى الدلالة ، لأن مجرّد الالتفات إلى خروج الاستفهام عن معناه النمطي يشكّل تنبيها للمتلقي ، لأنّه سيندفع للبحث عن المعنى المقصود ، ومن ثم يقع في دائرة التنبيه ، قال الجرجاني في هذا المعنى : " واعلم أنّا وإنْ كنّا نفسّر الاستفهام في مثل هذا بالإنكار ، فإنّ الذي هو محض المعنى أنّه لتنبيه السامع ، حتى يرجع إلى نفسه فيخجل ويرتدع ويعيا بالجواب "[1] .

---

(1) فن البلاغة : د. عبد القادر حسين : 137 ، وينظر : الآيات القرآنية المتعلقة بالرسول محمد (ص) ، دراسة بلاغية وأسلوبية : 112
(2) الشورى : 44
(3) الميزان : 201/18
(4) المصدر نفسه

التركيب الندائي

أسلوب حواريّ فيه قصدية بيّنة ، يجمع بين أكثر من مستوىً من مستويات التركيب على صعيد اللغة العربية ، إذ يجمع بين المستوى التركيبي والمستوى الصوتي اللذين يرميان إلى معنىً معين ، يستقر بدوره في المستوى الدلالي ، ولذلك يعدّ من أهم الصور التطبيقية لأبرز مناهج التحليل اللغويّ الحديثة ، ومنها الأسلوبية ، إذ يمثل صورة تطبيقية في مختلف مستوياتها[2]. وهو يعني " طلب إقبال المدعو على الداعي بأحد حروف مخصوصة ، ينوب كلّ حرف منها مناب الفعل أدعو "[3] .

هيمنت أداة النداء (يا) ـ وهي من أوسع أدوات النداء استعمالاً ـ على أسلوب النداء الوارد في سور الحواميم ، إذ كانت الأداة المتفرّدة . والمعروف لدى علماء العربية أنّها مخصصة لنداء البعيد ، ولكنّها في الاستعمال تجاوزت البُعد المكاني ، فاستعملت في المسافات كلّها (قريبها وأوسطها وبعيدها) . وكان هذا الاستعمال المتجاوز للمسافات مرتبطاً بدلالات متعددة ، تتأثر بتكوينها الوصفي المعياري والصوتي ، إذ إنّ فيها امتداداً صوتياً يتأتى من الانتقال من ضيق الياء وهي صوت مدّ ثقيل ، يمثل نصف صائت ، في حال الابتداء بها ، أو إذا لم تسبق بحركة من جنسها (الكسرة) ، يليه صوت الألف ، وهو صوت مدّ طويل وخفيف ، وبذلك ينتقل ثقل المدّ إلى سعة مع استطالة المدّ الخفيف ، ليكون الصدى مضاعفاً[4] .

وأغلب النداءات الواردة بهذه الأداة نداء الأنبياء والصالحين أقوامهم نصحاً وإرشاداً وتحذيراً ، والاسم المنادى هو (قوم) ، وقد وردت هذه النداءات في أثناء الحوار بين هذه النخبة وأقوامهم . ويبدو أنّ هيمنة (يا) النداء ، على الرغم من أنّها مختصة بنداء

---

(1) دلائل الإعجاز : 105
(2) ينظر : تقنيات المنهج الأسلوبي في سورة يوسف : 106
(3) علم المعاني : عبد العزيز عتيق : 114 - 115
(4) ينظر : في النحو العربي نقد وتوجيه : 325 ، وتقنيات المنهج الأسلوبي في سورة يوسف : 107

البعيد ، يرتبط بأمرين في غاية الأهمية ، الأول هو التركيز على مبدأ أساس ، هو التباعد على المستوى الفكري والعقدي بين الأنبياء والصالحين ومن ينادون ، إذ يتحقق بهذا الاستعمال التمايز ، فلا تختلط المفاهيم باستواء المؤمن والكافر . والثاني الإيماء إلى تقرير حالة القرب المكاني التي يتطلبها مقام الوعظ والإرشاد . زيادة على الدلالات الأخرى المرتبطة بالسياق ، التي لا يتفطن لها من لا يرجع إلى دربةٍ فيه ، ولا يعضّ فيه بضرس قاطع[1] .

ومنه قوله تعالى : ((يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءنَا))[2]، فيلحظ استعمال (يا) لنداء البعيد على الرغم من القرب المكاني بين المنادي والمنادى ، للإشارة إلى البعد المعنوي المبني على خلفية عقدية ، فهو يخاطب قوماً يريدون قتل نبيّهم الذي يدعوهم إلى عبادة الله الواحد ، وهم يعبدون إلههم البشري ، فالبون بينهم وبينه كبير ، ومع ذلك يُصر على نصحهم وإرشادهم وتنبيههم إلى فداحة ما يرتكبون ، فيأتي النداء بـ (يا) مراعياً مقتضى الحال ، إذ يوضح للمتلقي مقصدية الباث (سبحانه) ، عبر الأجيال التي يصلها الخطاب القرآني . ومنه قوله تعالى: ((وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ۞ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِّلْعِبَادِ ۞ وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ))[3] ، فما زال البعد العقدي حاضراً من خلال دلالة البعد لـ (يا) النداء ، إذ يضع مسافة فاصلة بين الإيمان والكفر ، بين المنادي الممثل للبعد الإيماني الناصح ، والمنادى (قومه) الذين يجسدون الكفر ، وقد أدّى تكرار النداء إلى تراكم أداة النداء والمنادى (يا قوم) ، فأضفى ثباتاً في حركة النص نحو دلالته المركزية أي : الحثّ على قبول النصحية وتأكيدها ، ولفت انتباههم إلى أنّ مصير الكفر واحد[4]، وهو الهلاك ومن ثم العذاب الأبدي . ويمكن القول في

---

(1) ينظر : من بلاغة النظم العربي : 137/2
(2) غافر : 29
(3) غافر : 30 - 32
(4) ينظر : روح المعاني : 437/24

النداءات السابقة أنّها قد حققت دلالات ترتبط بأصل وضعها ، وهو طلب الإقبال[1] ، ولكن على صعيد ورودها السياقي ، تواشج مع ما يقتضيه السياق من تنبيه وتحذير ونصح وإرشاد .

ومنه قوله تعالى : ((وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ۝ يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ))[2]، فالنداء بـ (يا) يراد منه الإبقاء على المسافة العقدية الفاصلة بينه وبين قومه ، مع الاستطالة بالنداء المتحققة من المد الصوتي في الأداة التي تتناسق مع طبيعة نفس المرسل الثانوي (مؤمن آل فرعون) الحريصة على تبليغ رسالته الصادق معها ، والحريصة على إنقاذ قومه مما هم فيه من إنكار دعوة الله (سبحانه) ، ولعلنا لا نبالغ إن قلنا إنّ المدّ في التصويت كأنّما ينادي الأجيال عبر الزمن ، وكيف لا والقرآن كتاب هداية لم يقتصر على زمن دون آخر . وقد تكرر نداء المرسل قومه " ... تلويحاً في قوله ، منادياً قومه ومستعطفاً لهم ثلاث مرات : الأولى على سبيل الإجمال في الدعوة ، والأخريان على سبيل التفصيل "[3] . فالثالثة قوله تعالى : ((وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ))[4] ، إذ أكّد هذا النداء دلالة النداءات السابقة ، فـ "كرّر ذلك زيادة في استعطافهم بكونهم أهله ، فهو غير متهم في نصحهم ، لأنه لا يريد لهم إلا ما يريد لنفسه "[5] .

ومن نداء القوم ولكن على لسان فرعون قوله تعالى : ((وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ))[6] ، فنداء قومه بـ (يا) يستبطن معاني عديدة ، تستكشف من خلال مقتضى الحال ودلالة السياق ، والحال هنا متحرّكة وليست ثابتة ، بالنسبة للمنادي (فرعون) والمتلقي (قومه) ، فحال فرعون يتقاسمها الاستكبار والخشية ، إذ " خشي فرعون أن يتبع قومه دعوة موسى ويؤمنوا

(1) ينظر : علم المعاني : 114 - 115
(2) غافر : 38 - 39
(3) نظم الدرر : 71/17
(4) غافر : 41
(5) نظم الدرر : 71/17
(6) الزخرف : 51

برسالته ، فأعلن فـي قومه تذكيرهـم بعظمة نفسه ، ليثبّتهم على طاعته "[1] . فكان النداء بـ (يا) متسقاً مع حال فرعون (المرسل الثانوي) فـي جانب شخصيته المستكبرة ، إذ ينادي قومه على وجه الاستعلاء والبعد في المنزلة ، والافتخار والتبجّح ، مراعياً اختيار الأسلوب النفسي الملائم فـي إيصال رسالته إلى قومٍ استمرأوا الاستعباد فـي عهد طغيانه ، فيخدعون بالأبّهة والبريق[2] . وفي جانب شخصيته الخائفة ، نادى قومه على وجه الاستطالة التي يفيدها الامتداد الصوتي لـ (يا) النداء ، " مستعطفاً لهم بإعلامهم بأنهم لحمة واحدة ، ومستنهضاً بوصفهم بأنهم ذوو قوة على ما يحاولونه "[3]. ونلحظ فيما سبق القيم الأسلوبية التي توافقت مـع حال المرسل والمتلقي وسياق الخطاب الـذي شحن بأدوات تعبيرية اتسقت مـع دلالات النداء ، كالاستفهام التقريري فـي أثناء الآية الكريمة وفـي آخرها ، واسم الإشارة الذي سبق لتعظيم أمر الأنهار[4] ، وكلّها لتنبيه المنادى لتلقي الرسالة .

ومن نداء القوم ولكن هذه المرّة المنادى ليس فرداً ، بل جماعة من الجن ، في قوله تعالى : ((قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ۞ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ))[5] ، فالنداء هنا نداء جماعة من الجن لقومهم ، بعد سماعهم آيات من القرآن على لسان النبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) ، لم يكونوا قـد سمعوها من قبل ، فكان سماعهم للقرآن مفاجأة لهم ، إذ وجـدوه مصدِّقاً لتوراة موسى ، وهذه المفاجأة التي " تتخلل السرد القصصي للأحداث ، فتثير الشـوق فـي نفس المتلقي ، ليتابع الأحداث ، ويتجدد نشاطه وتزيد حدة الانفعال "[6] ، دفعتهم إلى الإسراع بتبليغها ، منادين قومهم نداء يتسق مع الحالة النفسية التي يمرون بها ، فاستطالة النداء وامتداد النفس ، تعظيم لشأن الرسالة المراد تبليغها ، وتفخيم لأمرها ومقامها ، والرغبة في الإسراع في تبليغها ،

(1) التحرير والتنوير : 229/25
(2) ينظر : في ظلال القرآن : 3192/5
(3) نظم الدرر : 76/17
(4) ينظر : المصدر نفسه
(5) الأحقاف : 30 - 31
(6) أسلوب الدعوة القرآنية بلاغة ومنهاجاً : 309

وبسرعة الاستجابة وعمومها ، من خلال وصول النداء إلى أكبر عددٍ ممكن من قومهم . إذ " ... حملت نفوسهم ومشاعرهم منه ما لا تطيق السكوت عليه ، أو التلكؤ فـي إبلاغه والإنذار به ، وهـي حـالة من امتلأ حسّـه بشـيء جديد ، وحفلت مشاعره بمؤثر قاهر غلّاب ، يدفعه دفعاً إلى الحركة به والاحتفال بشأنه ، وإبلاغه للآخرين في جدٍ واهتمام "[(1)]. والنداء بـ (يا) البعد المستطيلة اللفظ فيه بصمة اعتمدت على المفاجأة التي تجعل المتلقي في حالة من التوتر وإيقاظ الذهن ، فيكون مستعداً لتلقي الرسالة .

ومن الأسماء التي نوديت بـ (يا) النداء في سور الحواميم هامان ، في قوله تعالى : ((وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحاً لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ))[(2)] ، فناسب النداء بـ (يا) مقتضى الحال ، إذ إنّ السياق مشحون بخشية انقلاب الناس على فرعون واتباعهم موسى (ع) ، فكان نداؤه الشخصية الأبرز في بلاطه ، على وجه الاستعلاء والتكبر الذي يوحي به نداء البعيد ، تذكيراً بعظمته وسلطانه وجبروته ، فهو يأمر والآخرون ينفذون ، مهما كانوا ومهما كان الأمر ، فلا مستحيل يقف أمام أمره ، إذن ففي النداء تنبيه للمتلقي الآخر (قومه) لتلقي رسالة القدرة والسطوة ، التي حاول من خلالها أن يُظهر لرعيته تكذيب موسى فيما زعمه من دعوى إله غير فرعون[(3)] . ولا سيما أنّه يخاطب قوماً تعودوا الخضوع لبهرجة السلطة وخطابها المتعالي ، فطبيعة المتلقي تحدد نمط الخطاب الذي يفضي إلى تكثيف الدلالة ، لإثارة خيالات المتلقي ، وإيقاظ انتباهه ، وإخضاع وعيه .

ومن الأسماء التي نوديت (عباد) في قوله تعالى : ((يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ))[(4)] ، والسياق الذي تكشفه الآية الكريمة مقام خوف وفزع برؤية أهوال الحساب ، فيأتي النداء بـ (يا) ، وقد بلغ من الحسن في موقعه وأدائه الكمال ، وكأن المتلقي للنص القرآني فـي أي زمان يستشعر قيمة هذا النداء الممدود ، ليبشر قوماً بالخلاص من أهوال موقف طالما توعد به الله (سبحانه) أعداءه ، ويشرّفـهم بالخطاب

---

(1) في ظلال القرآن : 3273/6
(2) غافر : 36
(3) ينظر : تفسير ابن كثير : 391/3
(4) الزخرف : 68

المباشر ويوصفهم بأنهم عباده ، " تذكيراً لهم وتسكيناً لقلوبهم ، بما علم من أنّ التقدير : قال الله ، وتشريفاً لهم بالإضافة إليه بالضمير الدال على اللطف وشدة الخصوصية "[1] .

ومن النداء الوارد في هذه السور الكريمة قوله تعالى : ((وَقَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ))[2] ، إذ نادوا موسى (ع) بأداة البعد (يا) للإشارة إلى بعده من قلوبهم[3] ، وشكّهم في أحقية دعوته ، زيادة على ما فيها من تعظيم تزلفاً إليه ، لذا وصفوه بالساحر ، وهو وصف العلماء عندهم ، إذ إنّ علومهم سحرية ، " أي ذات أسباب خفية لا يعرفها غيرهم وغير أتباعهم "[4] . وفي لفظة (أيها) قيم أسلوبية توافقت مع حالة المتلقي المتعجّب والمنبهر والمتحير من آيات قدرة ربّ موسى (سبحانه) ، ففيها تأكيد للنداء واستطالة في التصويت ، يتساوق مع الدلالات التي ذكرت سابقاً .

وقد نوديت لفظة (ربّ) في سور الحواميم ، إلا أنّ أغلب ندائها كان بأداة محذوفة ، ما خلا موضعاً واحداً ذكر فيه أداة النداء ، وهي في قوله تعالى : ((وَقِيلِهِ يَارَبِّ إِنَّ هَؤُلَاء قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ))[5]، إذ لم يجر النداء على الصورة المعتادة في دعاء المقرّبين ، التي تجري في القرآن الكريم بإسقاط أداة النداء ، وإنّما جاء النداء بـ (يا) نداء البعيد ، على الرغم من أنّ المنادى أقرب مخلوقات الله إليه ، فهو حبيبه وصفيه وخيرته من خلقه ، والسرّ في ذلك يرجع لسياق الحال الذي يتسق معه الخطاب القرآني ، والذي يكشف حالة المنادي النفسية في أثناء ندائه ، فقد أوقع في نفس الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) اشتداد تكذيب قومه ومباعدتهم وعنادهم قوة بمرور الزمن ، أسفا ورقة وشفقة عليهم وعطفاً ، وصار يشكو أمرهم إلى ربّه شكوى المضطر سرّاً وعلناً ، لذا جاء التعبير بلفظ (قيله) ، ليشير إلى أنّ شكواه صارت في ملازمتها وعدم انفكاكها حالاً من أحواله (صلى الله عليه وآله وسلم)[6]، فكان النداء متطابقاً مع مقتضى الحال المشحون بالشكوى والتضرّع ، إذ إنّ امتداد النفس

---

(1) نظم الدرر : 479/17
(2) الزخرف : 49
(3) ينظر : نظم الدرر : 444/17
(4) ينظر : التحرير والتنوير : 227/25
(5) الزخرف : 88
(6) ينظر : نظم الدرر : 499/17

وطول التصويت يتسق مع حال من امتلأت نفسه بتلك المشاعر ، زيادة على ما يظهره نداء البعيد من تأديب في الخطاب وبعدٍ في المسافة بين العبد ـ وإن كان نبيّاً مقرباً ـ وربّه.

ويمكن القول من خلال النظرة الشاملة للنص القرآني في سور الحواميم إنّ نداء نبيٍّ مقرّب ربّه بأداة نداء البعيد ، يكشف عن ظاهرة غير عادية ، تشكّل انزياحا على درجة عالية من القيم الأسلوبية ، فتوزيع بعض العناصر اللغوية توزيعاً غير متعادل[1] ، مثل نداء لفظ (رب) بأداة النداء في هذا الموضع الذي خرج عن نمطية ندائها في سائر آيات القرآن الكريم ، إذ نوديت بأداة محذوفة ، يمثل نمطاً انزياحياً يلفت الانتباه ، ويدفع إلى الوقوف عنده .

وقد ورد نداء لفظ (رب) بأداة محذوفة في سور الحواميم على لسان المؤمنين والملائكة والكافرين ، ومن غير المستغرب أن يكون نداء المقرّبين بأداة محذوفة ، بل إنّه مطابق لمقتضى حالهم المرتبطة بالله ، المتلذذة بمناجاته ، المستشعرة بقربه ، فحذف أداة النداء يشكّل قيمة أسلوبية توحي بالشعور بالقرب والإحساس بحتمية الاستجابة ، لحسن الظن بالمدعو ، وكلّ ذلك يرتبط بطبيعة المنادي (المرسل) التي تحدد على وفقها طبيعة الرسالة ومؤداها في هذا الأسلوب ، فإن كان عبداً مؤمناً أشّر حذف أداة النداء إلى ما قلنا آنفاً ، قال تعالى : ((وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ))[2] . ومنه قوله تعالى : ((وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَاناً حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْراً حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ))[3] ، فقرائن السياق اللغوي في الآية الكريمة التي سيقت لوصف الإنسان موضع الوصية ، تُأشِر إلى قربه من ربّه ، " فاجتمع أشدّه وتم حزمه وجدّه ، وزالت عنه شرة الشباب ، وطيش الصبا

---

(1) ينظر : علم الأسلوب ، مبادئه وإجراءاته : 199 ، والانزياح من منظور الدراسات الأسلوبية : 127
(2) البقرة : 186
(3) الأحقاف : 15

ورعونة الجهل "[1] وهي صفات توحي بنضج الإنسان وتغلبه على غرائزه ، لذا جاء نداؤه من دون أداة ، موحياً بقرب المنادي من سميع النداء ، وثقته به واعترافه أنّ كلّ ما لديه منه . والسياق العاطفي الذي تُبرزه الآية الكريمة بذكر معاناة الأم في حملها إياه وإرضاعها له مفيد في تبيان الانزياح المتشكّل من حذف أداة النداء[2] .

وجاء النداء على لسان الملائكة في قوله تعالى : ((الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ۞ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُم وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ))[3] ، فهؤلاء الملائكة الذين ينادون ربهم وُصِفوا بأوصاف رفعة الشأن والقرب الإلهي ، لذا كان نداؤهم لربهم بلفظ (رب) ، من دون أداة يشير إلى نكتتين ، الأولى القرب ، قرب المنادى واستجابته اللذين يستشعرهما المقرّبون ، وقرب مكانتهم من ربهم . والثانية ما فيه من استعطاف العبد لمولاه الذي هو جدير بأن لا يناديه إلا بلفظ الرب[4] . زيادة على أنّ السياق الذي جاء فيه النداء يومئ إلى أنّ نداء الملائكة المستعطِف لا يحتمل إطالة القول ، لأنّ من يستغفرون لهم واقفون للحساب الذي يعرف الملائكة محنة الوقوف فيه ، فجاء النداء سريعاً موجزاً بحذف القول وأداة النداء[5] ، متناسقاً مع مقتضى الحال ، حال الواقفين للحساب الذين يرجون المغفرة والخلاص ، وحال الملائكة الحريصين على المتشفعين لهم ، لذا تكرر نداؤهم على سبيل المبالغة والتأكيد .

ومن النداء المحذوفة أداته على لسان الكافرين قوله تعالى : ((قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ))[6] فالمشهد في الآية الكريمة مشهد العذاب الذي ذاقوه ، والموقف موقف اليقين بالبعث الذي أنكروه ، فنداؤهم وهم في

(1) نظم الدرر : 59/8
(2) ينظر : الانزياح من منظور الدراسات الأسلوبية : 137 - 138
(3) غافر : 7 - 8
(4) ينظر : البحر المحيط : 433/7
(5) ينظر : زاد المسير : 35/7
(6) غافر : 11

النار بدليل قولهم : فهل إلى خروج من سبيل[1] ، لذا يتسق مقتضى الحال مع إيجاز القول ، رغبةً في تعجيل طلب العفو ، ومن ثم الخلاص من العذاب من ناحية ، وإظهاراً لعجزهم من شدة العذاب على أطالة القول والنداء من ناحية أخرى . ومنه قوله تعالى : ((رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ))[2] .

ويلحظ فيما تقدم من شواهد أنّ هناك انزياحات في استعمال النص القرآني لأسلوب النداء ، تجسدت بذكر أداة النداء أو حذفها ، أو باستعمالها لغير ما وضعت له من نداء البعيد، في سياقات تبدو متناقضة ، من حيث مرسل النداء والسياق الذي قيل فيه ، " إذ هو يقوم على المفاجأة والتغير وعدم الثبات ، فإنه من البديهي أن يعجز معيار واحد فحسب في تعيينه دائما ، ومن ثم فلا مناص من أن تتعاور مختلف المعايير في ذلك ، وحسبما تقتضيه تركيبة النص وملابساته "[3] .

---

(1) الميزان : 136/17
(2) الدخان : 12
(3) الانزياح من منظور الدراسات الأسلوبية : 151

التركيب الأمري

يُعد أسلوب الأمر من أهم الأساليب الإنشائية التي تعنى بتحليلها الدراسات البلاغية واللغوية , وتقف على أغراضه ومراميه[1], فهو إحدى الجمل الحافزة على إيقاع حدث ما، بطلب صادر على وجه الاستعلاء والإلزام , وبصيغ مختلفة , كفعل الأمر , والفعل المضارع المقرون بلام الأمر , وباسم فعل الأمر , وبالمصدر النائب عن فعل الأمر , أو الخبر الخارج عن معناه الأصلي إلى هذا المعنى[2] . وتتفاوت هذه الصيغ في دلالتها , فهي طرائق متعددة للوصول إلى المعنى , " فالأمر بفعل الأمر غير الأمر بالمصدر , وهو غير الأمر باسم الفعل , وغير الأمر بالاستفهام , وغير الأمر بالخبر , فكلّ تعبير له دلالة خاصة " [3] .

ويأتي هذا الأسلوب بمعناه الأصلي ـ أي الطلب على وجه الاستعلاء والإلزام ـ إذا كان الطالبُ عادةً أعلى منزلة ممن يطلب منه تنفيذه , فإذا خرج عن هذا الأصل حقق معاني متعددة يكشفها السياق وقرائنه[4] .

وقد زخرت سور الحواميم القرآنية بهذا الأسلوب ، واقتصرت في الأعم الأغلب على صيغة فعل الأمر , الذي عكس طبيعة ما ركّزت عليه هذه السور من موضوعات عقائدية ينكرها المعنيون بالخطاب القرآني . فجاء الأسلوب مشكلاً خطاباً قرآنياً توزع على النحو الآتي :

- خطاب الله (سبحانه) إلى نبيّه .
- خطاب الله إلى الناس .

---

(1) ينظر : الأسلوبية : جيرو بيير : 104
(2) ينظر : الخلاصة النحوية : 139
(3) الجملة العربية والمعنى : 107
(4) ينظر : مفتاح العلوم : 318

- خطاب الأنبياء إلى قومهم .
- خطاب المؤمنين إلى قومهم .
- خطاب الكافرين إلى أنبيائهم وإلى قومهم .
- خطاب الملائكة والمؤمنين إلى ربّهم .

ولا شكّ في أنّ الخطاب الإلهي الموجّه إلى النبيّ وإلى الناس لا يخرج الأمر فيه عن أصل معناه , فهو أمر مباشر جاء على حقيقته , ومن شأن المباشرة في الخطاب (الأمر) أن تكون أكثر تأثيراً في المتلقي , زيادة على أنّها تناسب مقتضى حال المتلقي الذي تمكّن من نفسه العناد والإنكار , وبخاصة في أسس الدين العقدية ، كالتوحيد والمعاد والتصديق بالوحي وبصاحبه (النبي) . ولا ينطبق ذلك على الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ، ولكنّ المباشرة في الأمر الموجه إليه يرسّخ المفهوم السابق ـ ومن خلاله ـ إلى المتلقي الأخر , إذ يشعره بأهمية الأوامر ووجوب الامتثال لها , لأنّها وجّهت إلى حامل الرسالة المصدّق بها بالأسلوب نفسه الذي خوطب به . ولا يعني ذلك أنّ تلك الأوامر لا تتضمن معاني أخرى تضاف إلى أصل معناها , بل إنّها قد تحمل دلالات يقتضيها السياق الذي ترد فيه , مع مركزية حقيقة الأمر ومباشرته .

وقد شكّلت الأوامر الإلهية إلى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ملمحاً بارزاً في سور الحواميم , وأبرز ما ورد منها (قل) ، في سياق المحاججة بالأدلة العقلية ، لتقابل ـ من خلال قوة الخطاب المباشر وتأثيره ـ تمكّن الإنكار والإصرار على الكفر من نفس المتلقي . قال تعالى : ((قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ))[1], إذ جاء الأمر الإلهي لنبيّه بعد أن أمعنوا في العناد ، تيئيساً له (صلى الله عليه وآله وسلم) ليكفّ عن دعوتهم , إلى الحدّ الذي وصفوا فيه أنفسهم بأوصاف تمنعهم من السماع والفهم ، زيادة على الاستجابة , قال تعالى : ((وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ))[2], لذا كان الأمر المباشر من آمر مطاع إلى

(1) فصلت : من الآية : 6
(2) نفسها : 5

مأمور مطيع يتساوق مع هذا السياق , إذ سيدفع توهمهم بإمكان أن يكفّ الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) عن دعوتهم ، أو يتراجع بسبب ما يلقاه من صدَّ وإصرار على الكفر . ففي هذا الأمر توجيه بالصبر والاحتمال والإيمان والتسليم[1] ، يقابل محاولتهم الدفع باتجاه اليأس من استجابتهم , ممّا يولّد ردة فعلٍ عكسيةٍ في نفوسهم ، تدفعها إلى اليأس من تراجع الداعي ، بعد أن كانت ترجو تيئيسه من مواصلة دعوته .

ومنه قوله تعالى : ((قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ))[2] , فالأمر المراد قوله عظيم ، يبلغ أعماق القلوب ويهزّها هزّاً[3], لذا جاء أمراً مباشراً على وجه الاستعلاء والإلزام , ليقابل لزوم الكفر في نفوسهم, الكفر بصاحب الآيات الحسّية العظيمة ، وبكتابه الذي يسوق هذه الآيات الاحتجاجية , لذا إنّ الأمر بالقول المباشر يثبت أنّ دعوة رسولهم ليست من عنده لا فكرة ولا قولاً , إنّما هي من عند الله (سبحانه) ، وما عليه إلّا التبليغ . وقد تكرّر هذا الفعل في سياق الاحتجاج مرتبطاً بالحديث عن الكتاب , الذي يمثّل إحدى الموضوعات الرئيسة التي تناولتها سور الحواميم . ومجيء فعل الأمر (قل) في هذا السياق يرسّخ فكرة أنكرها متلقو الخطاب القرآني , وهي أنّ القرآن الكريم كتاب موحى من عند الله (سبحانه) على نبيّه (صلى الله عليه وآله وسلم) ، فكلّ لفظ وكلّ معنى فيه إنّما هو من عند الله ، وليس بدعاً ولا تأليفاً من عنده كما يدّعون . قال تعالى : ((قُلْ مَا كُنتُ بِدْعاً مِّنْ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ))[4] .

ومن خطاب الله (سبحانه) موجّهاً إلى نبيّه آمراً قوله تعالى : ((فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ))[5] ، إذ وردت هذه الأوامر الإلهية الإلزامية في سياق الجزم بحصول النصر الإلهي لرسله والذين آمنوا ، نصراً حسّياً دنيوياً،

(1) ينظر : في ظلال القرآن : 3109/5
(2) فصلت : 9 .
(3) ينظر : في ظلال القرآن : 3110/5
(4) الأحقاف : 9 , وينظر : غافر : 66 , فصلت : 44 , 52 , الشورى : 23 , الزخرف : 81 , الجاثية : 14-26 , الأحقاف : 4 ، 8 ، 10
(5) غافر : 55

وآخر غيبيّاً آخرياً , قال تعالى : ((إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ))[1] ، لذا سيقت أمراً حقيقياً جازماً ، ليناسب ذلك الموقف الحاسم الذي اطلعت عليه البشرية من خلال القرآن الكريم ، ورأت كيف كان مصير أعداء الله في الدنيا ، متمثّلين ـ في سياق السورة المباركة ـ بفرعون وآله , والذين آمنوا متمثّلين بموسى وقومه[2], قال تعالى : ((فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ))[3]، ومن السياق وقرائنه يستشف أنّ الأوامر ـ وإن كانت على حقيقتها الإلزامية ـ فإنّها تشع بدلالات التسلية والتأسي ، وبخاصة أنّ مقتضى حال المتلقي (الرسول) يتساوق مع إمكان أن يفيد الأمر هذه الدلالات ، فمعاني هذه الأفعال الآمرة مترسّخة في نفس المأمور ابتداء , ومن ثم فإنّ مجيأها يزيد من ترسيخها في نفسه أولاً ، ويضفي على الخطاب الدلالات الأخرى ثانيا . ويعزّز هذا المعنى ارتباط فعل الصبر بالحتمية الغيبية (المعاد) ، التي آمن بها الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ، بل وشاهدها عين اليقين , قال تعالى : ((فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ))[4] ، وقال تعالى ((فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ)) [5] .

أمّا الخطاب الموجّه من الله (سبحانه) إلى الكافرين فغلب عليه الأسلوب غير المباشر, أي إنّ الأوامر الإلهية وجّهت إليهم عن طريق الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وبالفعل (قل) الذي يكون مقول القول فيه أفعالاً أمرية موجّهة إلى الكافرين . وقد أشرنا إلى هذا الفعل فيما سبق من تحليل لبعض الآيات الكريمة التي ورد فيها . ويبدو أنّ هذه الظاهرة ترتبط بترسيخ مفهوم الوحي في نفوس المتلقين ، الذين أنكروه وادعوا أنّه من افتراءات الرسول . لذا جاءت الأوامر على لسان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) , تأكيداً لمفهوم الوساطة الرسالية بين الله (سبحانه) وخلقه . ومنه قوله تعالى : ((قُلْ إِنَّمَا أَنَا

---

(1) غافر : 51
(2) ينظر : في ظلال القرآن الكريم : 3086/5
(3) غافر : 45
(4) نفسها : 77
(5) الأحقاف : 35

بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ))[1], فالاستقامة والاستغفار أمران من الله (سبحانه) ، جاءا على لسان نبيه (صلى الله عليه وآله وسلم) , يساويان بينه وبين المأمورين ، تأكيداً على ضرورة الاستجابة ، نظراً لعظم الأوامر , والمعنى ، " إنّما أنا بشر مثلكم ، مأمور بما آمركم به , حيث أخبرنا جميعاً بالتوحيد بخطاب جامع بيني وبينكم , فإنّ الخطاب في إلهكم محكي منتظم للكلّ ، لا أنّه خطاب منه عليه الصلاة للكفرة "[2] .

وجاء الخطاب الإلهي آمراً بصورة مباشرة ، ولكنّه تركّز في سياق التهديد والوعيد ليكون أكثر تأثيراً في المتلقي الذي تمكّن الإنكار من نفسه , وبخاصة في قضايا العقيدة والغيب , فجاء الأمر مباشراً ، ليرتقي إلى مستوى غضب الله (سبحانه) على الملحدين بآياته ، بعد أن سيقت لهم أدلة توحيده فأنكروها . ومنه قوله تعالى ((إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَن يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِناً يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ))[3], إذ خرج الأمر في الآية الكريمة عن أصل معناه ، ليتمحض تهديداً ووعيداً يتساوق مع عظم الجرم , إذ " أنتج قوله مهدداً ومخوفاً ومتوعداً ، صارفاً القول عن الغيبة إلى الخطاب ، لأنه أدلّ على الغضب على المتمادي "[4] . ومرد ذلك إلى عدم إمكان أن يحمل الفعل على معنى الأمر على إباحة فعل أيّ شيء ، لفساد معناه ، " لأنّه تعالى لم يخيّرنا ويجبنا أن نفعل ما شئنا ، بل نهانا عن القبائح كلّها "[5]. فسياق الآية الكريمة يدفع إلى حمله على معنى التهديد والوعيد ، إذ سبق الفعل بذكر الإلحاد في آيات الله (سبحانه) بعد بسط أدلة أحقيتها ، لذا تمحض الأمر إلى " تهديد لهم دون أن يكون ذلك أمراً واجباً أو ندباً أو إباحة ، كما يقول القائل لصاحبه : دعني وإيّاه ، ويريد بذلك التهديد لا غير"[6].

---

(1) فصلت : 6
(2) روح المعاني : 97/24
(3) فصلت : 40
(4) نظم الدرر : 200/17
(5) التبيان في تفسير القرآن : 127/9
(6) المصدر السابق : 242/4

وقد تكرر أسلوب الأمر المباشر من الله تعالى في سياق التهديد والوعيد بوصف ما يجري على الكافرين من أهوال القيامة , ومنه قوله تعالى : ((خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاء الْجَحِيمِ ۞ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ۞ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ))[1]، فالأوامر الواردة في الآية الكريمة يجمعها معنى الإحاطة , إحاطة معانيها بمن تجري عليه , فـ " خذوه أي أخذ قهر ، فلا تدعوه يملك من أمره شيئاً ، فاعتلوه أي جرّوه بقهر وبغلظة وبعنف وبسرعة إلى العذاب والإهانة ، بحيث يكون كأنّه محمول ... ولمّا أفهم هذا وصار في موضع يحيط به العذاب فيه من جميع الجوانب , بيّن أنّ له نوعاً آخر من النكد ، رتبته في العظمة مما يستحق العطف بأداة التراخي ، فقال : ثم صبّوا , أي في جميع الجهة التي هي فوق رأسه , ليكون المصبوب محيطاً بجميع جسمه "[2] , وهذه الإحاطة تتسق مع إحاطة الآمر بالموقف , من دون أن يشاركه أحد في إصدار الأمر . وفي هذا المعنى مقابلة لمّا مروا به من إنكار لصاحب الموقف (الله) ويومه الموعود , وكأنّ المعنى أنّ ما جعلتم له شركاء ، اتخذتموهم من دونه أولياء ، هو الواحد القهّار الذي لا شريك له , كما بلّغكم رسوله وأنذركم , وهاهو يتفرّد قادراً محيطاً بكلّ شيء , يأمر بكم في سواء الجحيم , فلا عاصم لكم منه . زيادة على أنّ إسناد الأمر إلى مأمورين على سبيل الجمع يُعزز معنى الإحاطة المتقدّم , إذ إنّ جميع من وجه إليهم الخطاب (الملائكة) ينفذون الأمر على مفرد سقط عن مرتبة الخطاب إهانة وتقريعاً. أمّا الفعل (ذق) فقد خرج عن أصل معناه فتمحض إلى معنى الاهانة والاستهزاء , " وتوصيفه بالعزّة والكرامة على ما هو عليه من الذلّة واللآمة ، استهزاء به تشديداً لعذابه , وقد كان يرى في الدنيا لنفسه عزّة وكرامة لا تفارقانه "[3] . ويلحظ فيه التحوّل في الخطاب من أمر الملائكة إلى أمره المباشر بعد أن ألقي في العذاب ، إيماء إلى ما يعانيه من وحشة العذاب وغلظته وإحاطته به من غير مدافع

---

(1) الدخان : 47- 49
(2) نظم الدرر : 45/18
(3) الميزان : 238/18

ولا ممانع , وقد زاد معنى الفعل في هذا السياق من هول الموقف ، " لأنّ العرب تصنّف كلّ أمر شاقّ على النفس بالذوق "(1).

أمّا المستوى الثاني من الخطاب فهو الذي يمثل امتداداً للأوامر الإلهية المباشرة , وأعني به خطاب الأنبياء والمصلحين إلى قومهم , ويشكّل المستوى الثاني من حيث الورود ومن حيث تراتبية القداسة . وما يلفت النظر فيه أنّه ارتبط بالقصص القرآني , فلم يأت على لسان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) إلا نادراً ومقترناً بالفعل (قل) , كما مر سابقاً . ويبدو أنّ هذه الظاهرة تكشف لنا طبيعة الشخصية التي واجهها النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أولاً , وطبيعة الخطاب القرآني ثانياً , فعلى مستوى الشخصية المأمورة ، تظهر لنا هذه الظاهرة المستوى الذي بلغته في إنكار نبوة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ، إذ إنّها لا ترتضي منه أمراً مباشراً ، زيادة على ما تكشفه من مستوى الكبر والتعالي الذي تتصف به . أمّا على مستوى طبيعة الخطاب القرآني ، فيبدو أنّه كان مراعياً حال الملتقى , إذ تجنّب أن تأتي الأوامر من النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) , فالمتلقون متصفون بالكبر , منكرون أن يكون محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) نبيّاً ، من دون من يرونه عظيماً فيهم , وهو ما كشفه قوله تعالى : ((وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ))(2) , لذا كان الخطاب القرآني الآمر مرتبطاً بالقصص القرآني على لسان الأنبياء والمصلحين ، متدرّجاً في حث المتلقي على قبول الأمر ، من خلال ما في القصص من معنى الاعتبار ، فأولئك الذين استكبروا ، ولم يستجيبوا لأنبيائهم ومصلحيهم ، كان الخسران نصيبهم ، والعذاب مآلهم .

وقد غلب على هذا المستوى من الخطاب القرآني الآمر في سور الحواميم طابع التلطّف والنصح والإرشاد ، كما في قوله تعالى : ((وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ))(3)، فعلّة الأمر ليست الرغبة بالقيادة أو الوجاهة أو العلو ، وإنّما الهداية والإخراج من الغيّ الذي هم فيه ، لذا أجمل أولا ، ثم فسّر بالآيات الكريمة اللاحقة ، مبتدئاً

---

(1) التبيان في تفسير القرآن : 241/7
(2) الزخرف : 31 ، وينظر : تفسيرها في التفسير الكبير : 27 /188
(3) غافر : 38

بذم الدنيا ومنتهياً بالقطع في أنّ المردّ إلى الله والجزاء بيده[1] ، وهو سياق يحكم بخروج الأمر إلى معنى النصح والإرشاد ، الذي عُدّ واحداً من الأساليب البلاغية التي يخرج إليها أسلوب الأمر . ومنه قوله تعالى : ((ولَمَّا جَاء عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُون ۞ إِنّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ))[2]، فأوامر النبيّ بالنظر لطبيعة الدعوة وطبيعة المدعو تحكم بخروج الأمر عن أصل معناه ، فطبيعة الدعوة لا إلزام فيها ، وهي سنّة من سنن الله (سبحانه) في أديانه. إذ يرسل أنبياءه مبيّنين الحقّ من الباطل ، ويترك للإنسان حرية الاختيار ، قال تعالى : ((لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ))[3] ، " أي لم يجر الله أمر الأيمان على الإجبار والقسر ، ولكن على التمكين والاختيار "[4] . وقال تعالى : ((إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شاكراً وإمّا كفوراً))[5].

أمّا طبيعة المدعو فيغلب عليها الكبر والعناد ، اللذان يجعلانها ترفض أن تقبل أمراً من شخص تشكّك في صدق نبوّته ، بل تنكر أصلها ، وهو ارتباطها بالله الواحد ، لذا يكون خروج الأوامر الفعلية في الآية الكريمة إلى دلالة النصح والإرشاد أمراً متسقا مع السياق وقرائنه . ومنه قوله تعالى على لسان موسى (عليه السلام) : ((أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ)) [6]، وقوله تعالى : ((وَإِنْ لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ))[7] ، إذ إنّ علم موسى باستحكام غضب الله عليهم إن استمروا في غيّهم ، بالاستعلاء على الله ، وتعذيب عباده واستعبادهم ، دفعه إلى نصحهم بترك ذلك ، وإرشادهم إلى طريق الحقّ الذي يمثّله ، أو تركه وأتباعه من دون أذى ، وإن لم يفعلوا ذلك أخذهم الله بعزّته ، ودمّرهم بعظمته[8].

(1) ينظر : تفسير النسفي : 75/4
(2) الزخرف : 63- 64
(3) البقرة : 256
(4) الكشاف : 331/1
(5) الإنسان : 3 ، وينظر : تفسيرها في تفسير أبي السعود : 71/9
(6) الدخان : 18
(7) نفسها :21
(8) ينظر : نظم الدرر : 22/18

لأنّ سور الحواميم تخاطب مجتمعا منكراً ومغلقاً على ما ورثه من عقائد فاسدة ، فقد يغلب على الأمر في هذا المستوى طابع المحاججه والتعجيز ، كما يظهر في قوله تعالى : ((قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ)) [1] ، ففعلا الأمر (أروني ، ائتوني) سيقا في الآية على وجه المحاججة المبنية على الحسّ والعقل ، التي توصل إلى تعجيزهم وتبكيتهم ، ومن ثم دحض ما يدّعون ، على معنى قدموا ، " أيّ حجة على دعواكم في هذه الأصنام أنّها خلقت شيئاً ، أو أنّها تستحق أن تعبد ، (بكتاب) أيّ واحد يصح التمسّك به ، لا أكلفكم إلى الإتيان بأكثر من كتاب واحد "[2] . ولا يصح أن تحمل هذه الأفعال على حقيقتها الإلزامية ، إلّا على معنى أنّ العقل يلزم المتلقي بأن يأتي بحجّة تصحح فعله ، وإلّا فالسياق وقرائنه يمنع أن يطلب نبيّ من مخاطب ما يعرف يقيناً باستحالة حصوله ، لأنّه ينافي الإيمان أولاً ، والعقل ثانيا .

أمّا المستوى الثالث فيمثّل ردة فعل المتلقي الذي يوجّه إليه الأمر بمستويات الخطاب المتقدّمة ، التي توزّعت بين الأمر المباشر من الله (سبحانه) ، أو غير المباشر عن طريق الواسطة الرسالية ، وبدلالاته المتنوعة ، وهو مستوى يعكس حقيقة الشخصية الكافرة ، ووضعها السلوكي والعقائدي والنفسي ، من خلال طريقة استجابتها للخطاب الإلهي ودلائله وبراهينه ، فهي استجابة اتسمت بمظاهر الكبر والكفر والعناد ، وكأنّهم من خلال أفعال الأمر يوجّهون خطاباً لمن هو أدنى منهم مرتبة ، وليس نبيّاً أو مصلحا فيهم . وقد عمّت هذه الظاهرة الشخصية الكافرة ، سواء أكانت في زمن النبي محمد (صلى الله عليه وآله) ، أم من خلال ما يعرضه القصص القرآني ، الذي شكّل جزءاً مهماً من مكونات سور الحواميم المباركة ، وبخاصة ما يرتبط بموسى (عليه السلام) ، وما جرى له على يد فرعون وقومه ، ومنه قوله تعالى : ((فَلَمَّا جَاءهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاء الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ۞ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ

(1) الأحقاف :4

(2) نظم الدرر : 125/18

رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ))[1] ، فلا يخفى ما في أسلوب الأمر على لسان فرعون من استعلاء وإلزام ، يعكس طبيعة شخصيته المتكبّرة التي تمكّن الكفر منها ، فأضحت تقابل الحقّ والحجّة بالأمر بالقتل واستحياء النساء ، وكأنّ هذه الأوامر تسلّط الضوء على طبيعة الصراع بين الحقّ والعقل المتمثلين برسالة الأنبياء (عليهم السلام) ، والباطل والغريزة متمثلين بحاملي راية الكفر والضلال في كلّ زمان ومكان .

وفي سياق القصص القرآني نفسه يطالعنا قوله تعالى : ((قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ))[2]، فقولهم (فاتنا) أمر زحزحته قرائن السياق عن أصل معناه إلى دلالة الاستهزاء ، باستعجال العذاب الذي توعّدهم به ، إذ بدأوا خطابهم باستفهام توبيخي ، أردفوه باتهامه بالكذب ، " فاستعملوا الأفك في ذلك ، لمّا اعتقدوا أنّ ذلك صرف من الحق إلى الباطل ، فاستعمل ذلك في الكذب "[3] ، ثم زادوه وضوحاً معبّرين عن صدقه بأداة الشكّ ، إشارة إلى أنّ صدقه في ذلك من فرض المحال ، وقد تعزّزت هذه القرائن في تسميتهم الوعيد وعداً استهزاء به[4] .

وفي زمن نبوة محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) تتكرر صورة الشخصية الكافرة في كبرها وتغطرسها وسوء أدب خطابها ، فكلّ ما سيق لها من أدلة وآيات على صدقية دعوة نبيّها (صلى الله عليه وآله وسلم) ، واجهته بالإصرار على الكفر ، الذي انعكس خطاباً فجّاً ومتعالياً . ومنه قوله تعالى : ((إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ۞ فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ))[5]، إذ طلبوا بفعل الأمر (فاتوا) طلباً يعكس سفه عقولهم وانحراف عقيدتهم التي جاهد رسولهم ـ الذي يكذّبونه ـ في أن ينتشلهم من غياهب الظلمة ، بتخليصهم منها ، فقابلوه بطلب ينمّ عن مدى استهزائهم بأحد أهم ركائز العقيدة (المعاد) ،

---

(1) غافر : 25-26
(2) الأحقاف : 22
(3) مفردات ألفاظ القران : 79 ، وينظر : روح المعاني : 25/26
(4) ينظر : نظم الدرر : 165/18
(5) الدخان : 35-36

زيادة على إيمائه إلى تكذيب نبيّهم والذين آمنوا معه ، " أي الزاعمون أنّا نبعث بعد الموت، إيذاناً بأنّهم لا يصدقون بذلك ، وإن كثر معتقدوه من جنس بشرهم...وأكدوا تكذيبهم بقولهم : إن كنتم صادقين " [1] .

ولا شكّ في أنّ أسلوب الأمر الذي جاء على لسان هؤلاء ، يكشف عن طبيعة شخصيتهم غير المتوازنة ، ففي الوقت الذي ينكرون فيه كلّ الأدلة الحسّية التي ساقها القرآن الكريم لإثبات أحقية دعوة نبيّهم (صلى الله عليه وآله وسلم) ، يطلبون دليلا حسّياً يرونه رأي العين ، هو أصغر قدراً مما سيق لهم من عظيم الآيات والبراهين ، وهو ما يكشف أنّ أسلوب الأمر جاء على غير معناه الأصلي ، إذ يبدو أنّهم ساقوه على سبيل السخرية والاستهزاء ، ويؤكّد ذلك تهديدهم بما جرى على قوم تبّع والذين من قبلهم ، إذ إنّ فيهم من رأى رأي العين قدرة الله (سبحانه) على الإحياء ، فأصر على كفره ، " والمعنى أنّ كفّار مكّة لم يذكروا في نفي الحشر والنشر شبهة حتى يحتاج إلى الجواب عنها ، ولكنّهم أصروا على الجهل والتقليد في ذلك الإنكار، فلهذا السبب اقتصر الله تعالى على الوعيد "[2].

وفي الزمن نفسه ، وبالشخصية المتعالية المتغطرسة نفسها ، يكشف لنا قوله تعالى : ((وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ))[3] ، أنّ أسلوب الأمر على لسان كفار قريش يعكس مدى سفاهة عقولهم ، وتمكّن الكفر منهم , بحيث إنّ عقولهم تدلّهم على أحقية هذا الكتاب وقوة حججه , وتمكّنه من قلوب سامعيه , لذا أمر بعضهم بعضاً بالتشويش على قارئه وسامعه , " والمعنى لا تسمعوا له إذا قرئ , وتشاغلوا عند قراءته برفع الأصوات بالخرافات والهذيان والزمل , وما أشبه ذلك , حتى تخلطوا على القارئ ، وتشوّشوا عليه ، وتغلبوه على قراءته "[4] . وعلى الرغم من أنّ الآمر والمأمور على مستوى واحد من حيث الرتبة ، جاء الأمر على حقيقة معناه ، بالطلب على وجه

---

(1) نظم الدرر : 36/18
(2) التفسير الكبير : 213/27
(3) فصّلت : 26
(4) الكشاف : 203/4

الاستعلاء والإلزام , تدلنا على ذلك قرائن الحال والمقال , إذ إنّ كفار قريش كانوا على درجة عالية من التغطرس والتمادي ، إذ إنّهم يستعملون أساليب الترهيب مع من يخالفهم . كما أنّ السياق في الآية الكريمة يكشف عن ربطهم الغلبة بالنهي عن الاستماع والأمر باللغو , مما يدلّ على شعورهم بخطورة القرآن عليهم ، وعلى دينهم المنحرف . وكلّ ذلك يدفع إلى القول إنّ الأمر ليس على سبيل النصح والاختيار , بل هو استعلائيّ إلزاميّ على حقيقته .

إنّ ظواهر الكبر والتغطرس والإصرار على الكفر التي عكسها أسلوب الأمر في خطاب الكافرين , تتحوّل إلى تذلل وتصاغر وادعاء بالإيمان ، عندما ينزل بهم غضب الله (سبحانه) ، ويحيط بهم عذابه , فيرونه رأي العين . ومنه قوله تعالى : ((فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاء بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ۞ يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۞ رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ))[1]، إذ يعكس أسلوب الأمر ـ رادفاً نداء القريب ـ انحلال عرى عزائم الكافرين ، بعد أن كان يغلب على نفوسهم الشعور بالقوة والعلو , فوهت تلك القوى , وسفلت بعد العلو, وأضحى الإصرار على الكفر إيماناً يدفع إلى التوسل , مدّعين أنّهم في غاية الإذعان, وأنّ الإيمان عريق في أنفسهم . وهذا التحوّل ـ الذي عكسه الخطاب الأمري ـ يصلح أن يكون دليلاً واضحاً على انحراف الشخصية الكافرة وتلوّنها وكذبها , لذا أعرض الله (سبحانه) عن خطابهم ، " إيذاناً بدوام مصابهم , لئلا يُظن أنّه ما كشف عنهم العذاب إلّا لظن أنّهم صادقون "[2] , فقال تعالى : ((أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ))[3] .

ويتكرر هذا الأسلوب الخطابي بفعل الأمر عند رؤيتهم العذاب في يوم القيامة , كقوله تعالى : ((وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ)) [4] , إذ يتضح من خلال ندائهم بلفظ الربوبية أنّ طلبهم الأمري خرج

(1) الدخان : 10-12
(2) نظم الدرر : 15/18
(3) الدخان : 13
(4) فصلت : 29

إلى معنى التوسل والدعاء , ف " يسألون الله أن يريهم متبوعيهم من الجن والإنس ليجعلوهما تحت أقدامهم إذلالاً لهما , وتشديداً لعذابهم "[1] .

ومنه قوله تعالى : ((وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْماً مِّنَ الْعَذَابِ))[2], فشدة العذاب وهول الموقف دفع من في النار إلى توسل خزنتها واستعطافهم عسى أن يستجيبوا لطلبهم ، فيسألوا الله (سبحانه) ، " لمّا رأوا بعدهم من الله , وأنّهم ليسوا بأهل لدعائه سبحانه "[3]. زيادة على ما تقدّم ، يشير توجيه الخطاب بأسلوب الأمر إلى خزنة جهنّم إلى أنّ الكافرين ما زالوا ـ وهم في هذا الموقف ـ لا يضعون شيئاً في محلّه , كما كانوا في الدنيا , إذ يسألون طبقة من الملائكة شأنها داخل جهنّم[4] .

أمّا آخر مستوى من مستويات الخطاب الطلبي بأسلوب الأمر ، فكان خطاب من آمن بالله وعمل بإيمانه , فانعكس في خطابه أدباً وتضرّعاً وخشية , وجاء خارجاً عن أصل معناه ، متمحضاً إلى معنى الدعاء والتوسل . وقد جرى على لسان الملائكة والمؤمنين , إذ جاء دعاء الملائكة في قوله تعالى : ((الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ * رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُم وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ))[5], فتجانس الإيمان مدعاة لتوحد النفوس ورأفة بعضها ببعض ، وإن اختلفت الأجناس وتباعدت الأمكنة , وهو علّة لمعرفة الله (سبحانه) والاعتراف بالربوبية ، فكان قرينة للجزم بخروج الأمر عن معناه ، وتمحضه للدعاء والتوسل , فلا يعقل أن يوجّه معترف بعبوديته أمراً لمعبوده . وزاد تأكيد هذا المعنى صفات التنزيه والمدح والثناء التي يلهج بها الداعون ، على سبيل الاستمرار الذي يفيده الفعل المضارع (يسبّحون) والثبوت الذي يفيده الفعل الفعل الماضي (وسعت)

---

(1) الميزان : 168/17
(2) غافر : 49
(3) نظم الدرر : 84/17
(4) المصدر نفسه
(5) غافر : 8

" فالتسبيح عبارة عن تنزيه الله عمّا لا ينبغي , والتحميد الاعتراف بأنه هو المنعم على الاطلاق "[1], وهي صفات دفعت إلى القول بأن يكون أسلوب الأمر على معنى يتساوق معها ، متمحضاً إلى التوسل والدعاء ، والتأدّب فيهما .

وقد جرى خطاب المؤمنين بأسلوب الأمر موجّهاً إلى الله (سبحانه) على هذه الشاكلة من التواضع لله ، والتأدّب في حضرته ، والطلب منه توسّلاً ودعاءً . ومنه قوله تعالى : ((حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ))[2]، إذ ارجع الطالبُ كلّ خير إلى علّته (الله) ، فربطها بضميره ونسبها إليه , مبتدئاً بالاعتراف بالربوبية مقترباً منها , شاعراً بقربها منه بمناداتها بأداةٍ محذوفة , خاتماً سياق طلبه بتأكيد توبته وإسلامه , مما أضفى سياقاً ملؤه التوسل والدعاء والتأدّب في حضرة من سأله , وبخاصة أنّ الداعي أوقع فعل طلبه (أوزعني , أصلح لي) على نفسه , دلالة على نقصه وحاجته إلى من يملك ناصيته .

---

(1) التفسير الكبير : 29/27

(2) الأحقاف : من الآية : 15

التركيب النـهيي

هو طلب الكف عن فعل على وجه الاستعلاء والإلزام ، أي : " قول القائل لمن دونه لا تفعل "[1] ، وله صيغة واحدة ، هي المضارع المسبوق بـ (لا) الناهية[2] . وهو ضد الأمر ، ولكن يشابهه في أنّه لا يؤدى إلّا بالأفعال[3]، ولا يكتف بالدلالة الأصلية ، إذ قد يخرج إلى معانٍ متعددة تفهم من سياق الكلام وقرائن الأحوال .

وقد كان استعماله فـي سور الحواميم محـدوداً بالقياس مـع ضدّه (أسلوب الأمر)، ويبدو أنّ ذلك يرجع إلى طبيعة الشخصية المتلقية للخطاب القرآني ، التي هي في الأعم الأغلب الشخصية الكافرة المعاندة ، التي يراد هدايتها إلى سبيل الله (سبحانه) ، بانتشالها ممّا هي فيه ، من عناد وكفر وإصرار على تقليد الآباء ، بالثبات على العقائد الفاسدة والعادات البالية ، التي حوّلتها هذه الشخصية إلى مقدسات لا يمكن المسّ بها . لذا يمكن القول إنّ الخطاب القرآني - ومن باب ((ادْعُ إلى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالحِكْمَةِ وَالمَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ))[4]- قد تجنّب إثارة هذه الشخصية وتقوية عنادها ، بتقليل استعمال أسلوب النهي عن عقائدهم وعاداتهم ، ومال بدلاً عن ذلك إلى استعمال أسلوب الأمر بما يناقضها من عقيدة الحق ، وما يتساوق معها من عادات وممارسات ، من باب " أنّ الأمر بالشيء يستلزم النهي عن ضدّه "[5] ، ليتيح لهم فرصة التأمّل والمقارنة بين ما يؤمرون به من حقّ في العقيدة والعمل ، وما يؤمنون به ويصرّون عليه من عقائد فاسدة وممارسات ظالمة ، تؤدي بهم إلى الخسران المبين .

لذا لم يرد النهي المباشر الموجّه من الله (سبحانه) إلى الكافرين إلا ثلاث مرّات ، عالج فيها الخطاب القرآني مسألتين أساسيتين ، تمثلان جوهر دعوة الأنبياء وغايتها ،

---

(1) التعريفات : 316/1
(2) ينظر : مفتاح العلوم : 320 ، وبلاغة التراكيب ، دراسة في علم المعاني : 212 ، والخلاصة النحويّة : 141
(3) ينظر : الكتاب : 137/1 ، والتعريفات : 316/1
(4) النحل : من الآية 125
(5) عناية الأصول في شرح كفاية الأصول : 386 ، وينظر : أصول السرخسي : 371/1

الأولى توحيد الله في ربوبيته ، إذ جاءت في قوله : ((وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ))(1)، فبعد أن احتج الخطاب القرآني على وحدة الربّ (سبحانه) بوحدة التدبير لآياته ودلائل قدرته ، عقّب بوحدة ربوبيته ، فلا يجوز السجود ـ وهو مصداق أساس من مصاديق التوحيد ـ لغيره وإن كان عظيماً في نظر المتلقي(2) .

ويبدو أنّ استعمال هذا الأسلوب في هذا المورد ، جاء ليعالج مسألة عقائدية ترسّخت في نفوس الكثيرين ممن ادعوا الاعتراف بوجود الله (سبحانه) ، وأنّ عبادتهم متوجهة إليه، ولكنّهم يتقربون له بالسجود لغيره . قال تعالى واصفاً حالهم : ((أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى))(3)، فهي عقيدة تنماز بخطورتها وامتدادها عبر الزمن ، لذا جاء الخطاب ناهياً عنها نهياً حقيقياً ، ليؤكد بطلانها وكفر من يدّعيها ، على وجه العموم الذي يفيده الخطاب ، بإسناد الفعل إلى ضمير الجماعة، والتجدد والاستمرار الذي يفيده الفعل المضارع (لا تسجدوا) . زيادة على أنّ النهي عن السجود لغير الله تعالى ، يمثّل علاجاً لكلّ الانحرافات المرتبطة به ، ويمثل بعداً كليّاً لدعوة الأنبياء (عليهم السلام) .

أمّا المسألة الثانية فانطلقت من إثبات التوحيد أيضاً ، باتجاه أصلٍ آخر من جوهر العقيدة الإسلامية ، وهو المعاد ، قال تعالى : ((وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ))(4)، إذ جاء النهي مباشراً من الله (سبحانه) مؤكّداً بنون التوكيد ، لنفي ما اعتقده المشركون من عبودية عيسى حجة لألوهية الأصنام ، وهو اعتقاد ترسّخ في نفوسهم ، إذ " قالوا نحن أهدى من النصارى لأنّهم يعبدون آدمياً ، ونحن نعبد الملائكة ـ يريدون أرباب الأصنام ـ فآلهتنا خير من آلهتهم "(5)، فجاء النهي مباشراً من الله (سبحانه)

---

(1) فصلت : 37
(2) ينظر : الميزان : 170/17
(3) الزمر : من الآية 3
(4) الزخرف : 61
(5) ينظر : الميزان : 225/18 ، وتفسير الأمثل : 78/16

ومؤكّداً ، ليتناسب مع ترسيخ هذا الاعتقاد ، إذ انقلب الخطاب من نفي الشريك إلى النهي عن الشكّ في علم الساعة ، لكون عيسى (ع) من علاماتها وأشراطها[1]. ويبدو واضحاً من أساليب التوكيد في الخطاب القرآني أنّ حال المتلقي متّصفٍ بتمكّن عقائد الضلال من نفسه، وهي الشرك بالله وإنكار معاده ، فجاء النهي مباشراً من الله (سبحانه) . وفي صدوره من الله توكيدٌ ذاتي ، إذ فيه إلزام واستعلاء ، وزيد هذا التوكيد بالنون المؤكّدة .

وجاءت المرّة الثالثة في استعماله مرتبطة بعلاج داءٍ كان السبب الرئيس في الانحرافات التي وقعت من الأمم السابقة ، وهي تتعلق بالمسألتين السابقتين ، ولكنّها تمتد إلى الدين كلّه ، قال تعالى : ((شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ))[2] ، فالتفرّق في الدين كان سنة من سنن الأمم السابقة ، لذا جاء الخطاب القرآني محذّراً من الوقوع فيه ، بعد الشريعة الخاتمة ، التي ليس بعدها دعوة تُقوّم ما يقع فيها من اعوجاج ، فسيق النهي مباشراً على وجه الاستعلاء والإلزام ، شاملاً الدين كلّه ، موجّهاً إلى الناس جميعاً ، في الأزمان جميعها[3]. وهو عموم يتسق مع عموم ما أُمر به ، ونُهي عنه ، أي " أنّ عليهم جميعاً إقامة الدين جميعاً ، وعدم التفرّق والتشتت فيه ، بإقامة بعض وترك بعض "[4] ، ولا شكّ في أنّ خطورة المنهي عنه ، وعموم الخطاب إلى الناس المتصفين بعدم الثبات على دينهم ، وامتداد الزمن ، اقتضى خطاباً قويّاً ، تحقّق بتوجيه النهي مباشراً بفعل أثبتت تاؤه ، " أي تفرّقاً عظيماً ، بما أشار إليه إثبات التاء ، وكأنّ ذلك إشارة إلى التحذير من التفرّق في الأصل "[5].

أمّا عموم ما ورد من هذا الأسلوب فجاء موجّهاً إلى الرسل (ع) ، أو من الرسل إلى قومهم ، أو خطاباً بين الكافرين أنفسهم ، ممّا أتاح لهذا الأسلوب سعة في الدلالة ، من خلال

---

(1) ينظر : مجمع البيان : 67/9 ، والميزان : 225/18
(2) الشورى : من الآية 13
(3) ينظر : الميزان : 186/18
(4) المصدر نفسه
(5) نظم الدرر : 266/17

خروجه من دائرة معناه المقيّد بالنهي الحقيقي ، إلى آفاق المعاني التي يدفع إليها سياق الحال والمقال . وقد راعى الخطاب الموجّه إلى الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) طبيعة الشخصية المتلقية ، إذ وجّه إليها النهي بصورة غير مباشرة ، من خلال توجيهه إلى الرسول ، يدلنا على ذلك طبيعة الأمور المنهي عنها ، فهي لا تتناسب مع مقام النبوة المعصومة ، زيادة على " أنّ هذا الأسلوب من خطاب القريب من أجل تنبيه البعيد رائج في العرف ، وهذا هو المراد من المثل المعروف : إيّاك أعني واسمعي يا جارة ، وتأثير مثل هذا الكلام أكبر من الخطاب الصريح ، في كثير من الموارد "[1].

ومنه قوله تعالى : ((ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاء الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ))[2]، فلا شكّ في أنّ الأمر باتباع الشريعة المقدّسة تكليف يشمل النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ، ومنه إلى أمّته ، فلا يتعارض حمل الأمر الموجّه إلى الرسول على حقيقته مع مقام النبوة المعصومة ، أمّا النهي عن اتباع الأهواء فلا يمكن أن يفهم على أنّه نهي حقيقي موجّه إلى الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ، لأنّه لا يناسب مقامه الشريف ، وبخاصة أنّ النهي مسبوق بالأمر باتباع الشريعة ، ولا ريب في أنّ العقل يحكم باستقامة النبي على أمر ربّه، من دون الحاجة إلى نهيه عن اتباع نقيضه ، فاستجابته لأوامر ربّه ونواهيه تكوينية ، لذا يفهم على أنّه نهيٌ موجّه إلى عموم الناس من خلاله ـ أي النبي ـ وهو أدعى إلى اجتهادهم بالتزام التكليف بالنهي[3] ، وأبلغ في إفادة التحذير والتنبيه من الوقوع في المنهي عنه . وعليه قوله تعالى : ((فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ))[4].

ومن النهي الموجّه إلى الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ، دالاً من خلال السياق وقرائنه على معانٍ خارجة عن أصل معناه ، قوله تعالى : ((مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ

(1) تفسير الأمثل : 432/6
(2) الجاثية : 18
(3) ينظر : نظم الدرر : 87/18
(4) الشورى : من الآية 15

كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ))[1] ، فالغرور " كلّ ما يغرّ الإنسان من مالٍ وجاهٍ وشهوة وشيطان "[2] ، وهو معنى لا يتسق مع مقام النبوة الخاتمة ، " لأنّه معصوم من ملابسة هذه الأفعال "[3] ، لذا كان السياق دافعاً باتجاه حمله على معنى تسليته (صلى الله عليه وآله) ، وتصبيره على ما يواجهه من أذىً وعناد ، " أي لا ينبغي أن تغترّ بأنّي أمهلهم وأتركهم سالمين في أبدانهم وأموالهم ، يتقلبون في البلاد ... فإنّي وإن أمهلتهم ، فإنّي سآخذهم وأنتقم منهم ، كما فعلت بأشكالهم من الأمم الماضية "[4]. وفي هذا السياق تهديد ووعيد بذكر ما جرى على الأمم السالفة ، لردع كفار قريش ، وتوجيه النهي إلى الرسول بهذا الفعل الذي لا يتساوق ـ كما مرّ ـ مع مكانة النبي الأعظم ، يزيد من هول هذا التهديد ، إذ إنّ خروج الخطاب عمّا يتوقعه المتلقي من لين ولطف في الخطاب الموجّه إلى النبي (صلى الله عليه وآله) يثير انتباهه ويدفعه إلى التفكر ، وكأنّ المعنى : إنّ من قد يُغرّ بملك المكذّبين بالله ، وتمتعهم بالنعم ، يخاطب بهذا الأسلوب ، وإن كان نبيّاً ، فكيف بالمكذّب نفسه . أمّا على معنى : (إياك أعني واسمعي يا جارة) ، فالنهي على حقيقته من طلب الكف عن الاغترار بتقلّب الذين كفروا وتمتعهم بالنعم ، على وجه العموم في المخاطب والزمن ، لأنّ النهي محمول على العموم إذا تجرّد من القرائن المحددّة ، " لأنّ حمل النهي المطلق على حصّة معينة من الأوقات ، محدودة الأول والآخر ، من دون مرجّح غير معقول "[5] ، و " في آيات كثيرة توجّه النهي إلى النبي ، والمقصود بهذا النهيّ هم أمته (عليه السلام) "[6] .

ومنه قوله تعالى : ((فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ))[7]، إذ إنّ آفة الصبر ـ الذي هو من أعلى الفضائل ـ العجلة التي هي من أمهات الرذائل ، فلا يُقوى على الصبر إلا بترويض النفس على عدم الاستعجال ، ومن ثم وضع الشيء في غير

(1) غافر : 4
(2) مفردات ألفاظ القرآن : 604
(3) دراسات لأسلوب القرآن : 524/2
(4) التفسير الكبير : 27/27
(5) الوافية في أصول الفقه : 57/1
(6) دراسات لأسلوب القرآن : 528/2
(7) الأحقاف : 35

حينه . ولا شكّ في أنّ النبي الأعظم (صلى الله عليه وآله وسلم) المثال الكامل على هذه الفضائل . لذا يُحمل الطلب بأسلوب النهي على معنى التسلية والتصبير له ، والتهديد والوعيد للمتلقي الآخر الذي بالغ في تكذيبه وعناده اللذين انعكسا أذىً للرسول ، وبخاصة أنّ الآية الكريمة جاءت خاتمة للسورة الكريمة ، التي عرضت الأدلة والحجج فقابلها المتلقي بالإصرار على الكفر ، والخروج عن الاتعاظ بها ، فوجب حينئذ تهديده بعاقبة فعله[1].

وجاء المستوى الثاني من النهي موجّهاً من الرسل (عليهم السلام) إلى قومهم ، في سياق القصص القرآني ، الذي يمثّل إحد البنيات التي تتشكّل منها سور الحواميم ، فكان النهي في سياقه وسيلة من النهي غير المباشر للمتلقي الأول ـ كفّار قريش ـ وللمتلقي الآخر عبر الزمن ، وبخاصة أنّ القصص القرآني يمثّل وسيلة مهمة من وسائل التبليغ ، فهو يجعل من العبرة الدينية أساساً لسرد القصة[2] ، فيأخذ منها ما يحقق مبتغاه من التهذيب والوعظ ، والتهديد والوعيد . ولم يخرج هذا النهي عن جوهر دعوة الأنبياء (عليهم السلام) ، وهي توحيد الله (سبحانه) ، فقال تعالى : ((إِذْ جَاءتْهُمُ الرُّسُلُ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ))[3] ، وقال (سبحانه) : ((وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتْ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ))[4] ، إذ جاءت الآيتان الكريمتان في سياق التهديد الوعيد بما يجري على المكذّبين برسل الله ودعوتهم إلى توحيده ، فعرجتا بالمتلقي في جولة مع قصص الأنبياء ، لتكون عبرة ، لإيقاظ قلبه وتحذيره ، بأن الإملاء للمكذّبين لن يستمر إلّا فترة من الزمن . فالاستكبار على الله (سبحانه) ، وإيذاء رسله إلى حدّ استنفاد حلمهم وإغضابهم ، قد يكون وراءه الأخذ الأليم والبطش الشديد[5]. فجاء النهي في هذا السياق إرشاداً وتوجيهاً وتحذيراً لقوم محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) أولاً ، ولغيرهم من الناس الذين يصل الخطاب القرآني إليهم ثانياً ،

---

(1) ينظر : الكشاف : 317/4
(2) ينظر : التصوير الفني في القرآن : 148 ، وتقنيات المنهج الأسلوبي في سورة يوسف : 12
(3) فصلت : من الآية 14
(4) الأحقاف : 21
(5) ينظر : في ظلال القرآن : 3266/6 - 3267

وعبر الزمن ، من أنّ توجيه العبادة لغير الله (جلّ وعلا) يؤدي بهم إلى غضبه وعذابه ، كما حصل مع من سبقهم من الأقوام .

ومنه قوله تعالى : ((وَأَنْ لَّا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ))[1] ، إذ جاء النهي في سياق ذكر قصة موسى مع فرعون وقومه ، تهديداً ووعيداً لقوم النبي الخاتم (صلى الله عليه وآله) ، فسيق ما جرى عليهم من عذاب الاستئصال ، بعد إلحاح نبيّهم على دعوتهم ، بأن لا يستكبروا على الله (سبحانه) ، بالاستهانة برسوله ووصيّه[2]، ليكون عبرة تحذّر كفار قريش من الوقوع فيما وقع فيه من سبقهم .

إنّ استعمال أسلوب النهي في القصص القرآني لخطاب الكافرين في زمن رسالة النبي الخاتم (صلى الله عليه وآله وسلم) ، يمثّل وسيلة مهمة لتجنب النهي المباشر الذي قد يثير رواسب الشخصية المتلقية ، مما يدفعها إلى مزيد من العناد . زيادة على أنّ توجيه النهي بهذا الأسلوب أقوى تجديداً لنشاط السامعين ، وأشد تنبيهاً ، وأكثر إيقاظاً ، لجمال أسلوبه ، وجمال محتواه ، وقدرته على جذب انتباه الناس وتشويقهم ، وبخاصة أنّ المتلقي يميل إلى الاستماع إلى القصص ، إذ يشكّل أحد معالم شخصيته ، " فالقصص معروف عند العرب في العصر الجاهلي ، بل هو مختلف عن الحديث والذكر عندهم ، فهو نمط من الكلام يتميّز عن سواه ، لأنه أخبار متتابعة ذات تشويق خاص وإثارة معينة ، بل محبوب يطلب ، ولو لم يكن محبوباً لما طالبوا به "[3] .

وورد أسلوب النهي على لسان الملائكة ، موجّهاً إلى المؤمنين ، قال تعالى : ((إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ))[4]، " فالخوف غمّ يلحق لتوقع مكروه، والحزن غمّ يلحق لفوات نافع ، أو حضور ضارّ "[5] ، وكلاهما أمران شعوريان لا يمكن النهي عن الوقوع فيهما ، إذ إنّ

(1) الدخان : 19
(2) ينظر : الكشاف : 278/4
(3) القصة العربية في العصر الجاهلي : 82
(4) فصلت : 30
(5) تفسير ابن عجيبة : 402/5

انعدامهما إنّما يكون بتوافر عوامل السلام والاستقرار للنفس البشرية[1]، وهي قرينة مهمة تمنع حمل النهي على حقيقته ، وترجّح خروجه إلى معنى يتساوق مع سياق البشرى بالجنة، ترغيباً وتثبيتاً ، فإذا كانت السلعة الجنة ، فالثمن رخيص مهما كان باهظاً . ويلحظ في الآية الكريمة التناسب بين نزول الملائكة ودفع الخوف والحزن ، إذ استعمل الفعل (تتنزّل) الذي يدل على حدوث النزول مرّة بعد أخرى ، على سبيل الدوام والاستمرار ، ومعنى هذا أنّ الملائكة تتنزل على المؤمنين الموصوفين في الآية الكريمة كلّما واجهتهم مشكلة تضيق بها صدورهم ، ويتملّكهم منها الخوف والحزن ، فيملؤهم نزولها سكينة واطمئنان وتثبيتاً[2].

---

(1) ينظر : نظم الدرر : 183/17
(2) ينظر : المصدر نفسه

الفصل الثاني

في العدول التركيبي

التقديم والتأخير

أسلوب لغويّ ارتبط بالتحول الذي أخذ شكلاً موضعياً في حدود الدال صياغياً في حركيةٍ أفقية ، ينتقل فيها الدال من موضعه الأصلي إلى موضع طارئ ، أو يأخذ ثباتاً في موضعه الأصلي ، فهو يرتبط برتبة الألفاظ في الجمل ، ووظيفة كلّ كلمة في السياق ، فـ " ... التقديم والتأخير ـ وهو ظاهرة شكلية تتصل بالبناء العام للجملة ـ يتصف بطابع تحديد المعنى النحوي ، ويعتبر* من الصور التي تجسّد تشابك العلاقة بين المعنى والمبنى ، أو الشكل والوظيفة ، ثم إن هذه الظاهرة تسوقنا إلى إدراك دور الرتبة في تحديد مواقع الكلمات بين أقسام الكلم ، فهناك كلمات محفوظة الرتبة ، وكلمات غير محفوظة الرتبة ، فالأدوات مثلاً تنتمي إلى رتبة التقديم ، بينما تكون الظروف حرّة الرتبة ، فرتبتها غير محفوظة ، ومن طبيعة الفاعل أن يتأخّر عن الفعل ... وهكذا "(1) .

وقد ارتبط ترتيب اختيارات المبدع مفرداته بالصورة الذهنية لمعانيه ، فاختيار موقعية اللفظ قد يسهم في تفسير قيمة مجيء المفردة من المبدع في بداية التركيب ، لأن ما تحمله هذه المفردة من فاعلية أولية يتلقاها القارئ أو السامع في سياق دون آخر ، يمكن أن تمثل مرحلة من مراحل الاتصال بين المتلقي والمعنى ، فإذا ما تشكلت علاقة بين مدلول هذا اللفظ وغيره من الألفاظ التي تسبقه أو تليه يأخذ المعنى في التكامل ، ويثري الإبداع دلالة موقعية اللفظة المختارة ، ويرقى بها إلى مستوى أبعد في التأثير(2) .

وتعد هذه الظاهرة (التقديم والتأخير) ، من أفضل مصاديق مفهوم المرونة والسمة الحركية في العربية ، ولون من ألوان حريتها ، وخاصية من خصائصها(3). وقد تنبّه علماء العربية إلى هذه الميزة وعدّوها من سنن العرب في كلامها ، قال سيبويه : " وتقول : ما كان فيها أحدٌ خيرٌ منك ، وما كان أحدٌ مثلك فيها ، وليس أحد فيها خيرٌ منك ، إذا جعلته فيها

* كذا وردت

(1) أقسام الكلام العربي : 101 ، وينظر : أسلوبية البناء الشعري , دراسة في شعر أبي تمام : 144-145

(2) ينظر : في البنية والدلالة : 135 - 136 ، والبنية الأسلوبية في التراكيب النحوية : 36 - 37

(3) ينظر : الصاحبي : 412 ، وسرّ العربية : 302 و322

مستقراً ، ولم تجعله على قولك : فيها زيدٌ قائم ، أجريت الصفة على الاسم ، فإن جعلته على قولك : فيها زيدٌ قائم ، نصبت ، تقول : ما كان فيها أحدٌ خيراً منك ، وما كان أحدٌ خيراً منك فيها ، إلا أنّك إذا أردت الإلغاء فكلّما أخرت الذي تلغيه كان أحسن ، وإذا أردت أن يكون مستقراً تكتفي به ، فكلّما قدمته كان أحسن ، لأنه إذا كان عاملاً في شيء قدمته كما تقدم أظن وأحسب ، وإذا ألغيت أخرته كما تؤخرهما ، لأنهما ليس يعملان شيئاً ، والتقديم هنا والتأخير فيما يكون ظرفاً أو يكون اسماً في العناية والاهتمام مثله فيما ذكرت لك في باب الفاعل والمفعول ، وجميع ما ذكرت لك من التقديم والتأخير والإلغاء والاستقرار عربيّ جيد كثير ، فمن ذلك قوله عزّ وجلّ : ((وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ))[1] ، وأهل الجفاء من العرب يقولون : (ولم يكن كفواً أحد) كأنهم أخروها حيث كانت غير مستقرة "[2].

وقد وفق عبد القاهر في نظرته إلى التقديم والتأخير بين الشكل ، أي ترتيب المفردات ، والمضمون ، وبعبارة أخرى بين الدال والمدلول ، فكل تغيير في مسلك أسلوبي يتم على وفق دلالة وسبب استدعاء " بمعنى أنّ لكلّ بنية حالاً توجبها "[3] ، قال : "باب كثير الفوائد ، جمّ المحاسن ، واسع التصرّف ، بعيد الغاية ، لا يزال يفترّ لك عن بديعةٍ ، ويفضي بك إلى لطيفة ، ولا تزال ترى شعراً يروقك مسمعه ، ويلطف لديك موقعه ، ثم تنتظر فتجد سبب أن راقك ولطف عندك أن قدّم فيه شيء ، وحوّل اللفظ عن مكان إلى مكان "[4] .

وللعلامة الإعرابية أثر مهم في تشكيل حرية صياغة الجملة العربية ومرونتها ، إذ تكون أكثر استجابة للتعبير عن المعاني الدقيقة التي يرومها المبدع ، فيظهر لنا ذوقه في

---

(1) الإخلاص : 4
(2) الكتاب : 55/1 - 56 ، وينظر : الظواهر النحوية والصرفية في شعر المتنبي : 172
(3) عالم اللغة عبد القاهر الجرجاني ، المفتن في العربية ونحوها : 231 ، وينظر : البنية الأسلوبية في التراكيب النحوية : 38
(4) دلائل الإعجاز : 96

اختيار كلماته ، واقترانها بمعانيها ، من دون زيادة أو نقصان ، فيصل المعنى إلى النفس بأحسن صورة[1] .

وقد اهتمت الدراسات اللغوية الحديثة بالتقديم والتأخير لأنه " يمثل انزياحاً ذا تردد دال إحصائيا "[2]. فلكلّ مفردة أثر فاعل وملمح أسلوبي في بنية التركيب النحوي ، وأي تغيير في موقعها ينتج فعاليات فنية ، تستمد قيمتها الأسلوبية من المستوى الإبداعي لبنية ذلك التركيب .

وعند إنعام النظر في آيات سور الحواميم الكريمة ، نجد أنّ هذه الظاهرة سُخِّرت بأشكال عدة ، وصيغ مختلفة ، وحققت معاني دقيقة في السياقات القرآنية ، تكشف سمواً في أسلوب القرآن ، وتحقق بعداً جمالياً يجعل الكلام أكثر تأثيراً ، فتجاوز الأنماط الرتبية ، وتحريك سكون الألفاظ من مواقعها النمطية إلى مواقع أخرى ، يشكّل انزياحات عن الأداء الرتيب في تجاوز جغرافيا الألفاظ ، يضفي ملامح أسلوبية لها أثرها على المتلقي ، الذي تتصاعد ردود فعله على وفق مؤثرات الرسالة وتأثيرها .

واللافت للنظر أنّ النمط التعبيري المرتبط بهذه الظاهرة (التقديم والتأخير) ، الذي شكّل مهيمناً أسلوبياً على صعيد سور الحواميم على وجه العموم ، مرتبط بتقديم الجار والمجرور على بقية أركان الجملة القرآنية في هذه السور الكريمة ، فقد جاء مقدّماً في سورة غافر ثلاث وثلاثين مرّة من أصل تسعٍ وثلاثين حالة تقديم ، وفي سورة فصلت ثلاث وعشرين مرة ، وخمساً وأربعين مرة في سورة الشورى ، وثلاثين مرة قدم في سورة الزخرف ، وعشراً في الأحقاف ، وست عشرة في سورة الجاثية ، أمّا سورة الدخان فورد متقدماً ست مرات ، علماً أنّه لم يرد غيره من حالات التقديم في هذه السورة المباركة . مما يكشف اهتمام النص القرآني في هذه السور بالمجرور الاسمي ، سواء أكان متلقياً أم مخبَراً عنه ، إذ حقق هذا التقديم دلالات متعدّدة ، تشعها معاني حروف الجر ، ومرونة حركة الجار والمجرور ، وعلاقته بأطراف الجملة ، ومن ثم بالسياق العام وقرائنه .

(1) ينظر : الجملة العربية في ضوء الدراسات اللغوية الحديثة (مقال) : د. نعمة رحيم العزاوي : 167- 168
(2) بنية اللغة الشعرية : 18 ، وينظر : أسلوبية البناء الشعري , دراسة في شعر أبي تمام : 144

تقديم الجار والمجرور (الخبر) على المبتدأ :

تقدم الجار والمجرور ـ الذي يعلّقه النحويون بمحذوف يقع خبراً ـ في آيات سور الحواميم بشكل لافت للنظر في سياقات متعددة ، وتحققت من خلاله معانٍ دقيقة ، ارتبطت بمكية هذه السور الكريمة التي ركزت على الأسسس الإيمانية التي كان ينكرها مشركو قريش كالتوحيد والمعاد ، فتشكل هذا الانزياح التركيبي المترتب على تقديم المسند على المسند اليه ، بؤرة دلالية مثلت محوراً دلالياً إفهامياً ، اتضحت من خلاله الفكرة القرآنية بشكل راسخ لا لبس فيه ، ففي سياق وحدة المصير الانساني نجد قوله تعالى : ((غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ))[1]، فالآية الكريمة بعد أن أثبتت الصفات الذاتية والافعالية التي أشارت إلى حقيقة التوحيد ، فالله وحده المتصف بهذه الصفات ، صفات الرحمة ، وصفات الغضب ، انتقلت في فاصلتها إلى إثبات الانتهاء المطلق إليه سبحانه على صعيد الوجود الكوني ، وليس الوجود الإنساني فقط[2] . فتقديم الجار والمجرور (الضمير العائد على صاحب هذه الصفات) أفاد قصر مصير الخلائق وانتهائها إليه ، وهو يعني الاعتقاد بيوم الحساب الذي يستتبع الخوف والرجاء ، خوف العقاب ورجاء الثواب الداعيين إلى عبادة الله سبحانه[3]. ولا يخفى على أصحاب النظر ما في هذه الجملة القرآنية من مراعاة لحال المتلقي المنكر لحقائق التوحيد والمعاد ، من خلال توالي المؤكدات ، دلالة الثبوت في الجملة الاسمية ، والحصر بتقديم المسند ، وما أفاد وقوع الضمير في محل الجر ، من اتصال مبهر بين المصير ومالكه ، والسائرين نحوه، فـ " إن الضمائر تضع الأساس الصلب الذي تتم عليه قواعد الاتصال اللغوي "[4] .

ومنه قوله تعالى : ((لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ))[5]، ففي تقديم الجار والمجرور (الضمير) تخصيص للملكية والتصرف في السموات والأرض

---

(1) غافر : 3
(2) ينظر : الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل : 182
(3) ينظر : الميزان : 132/17
(4) في تحليل النص الشعري : 58
(5) الشورى : 4

وموجوداتها ، على العموم الذي أفاده تكرار (ما) ، مع ما في هذا التقديم من توكيد اتسق مع المؤكدات الأخرى ، التي أفادها ثبوت الجملة الاسمية ، والتوازي التركيبي[1]الذي يقوم على تكرار (ما في) ، وهذه الموازات ارتكزت على أساس تركيبي تكون من :

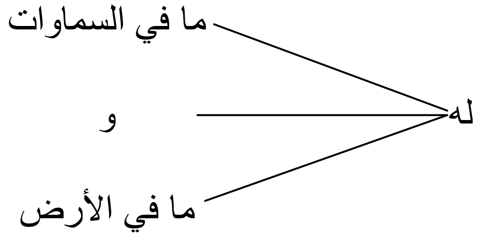

فشكّلت بنية متعددة ، إلا أنّها متماسكة ومتماثلة ، من خلال ارتكازها إلى مسند واحد (له) ، ومسندٍ إليه متكرر (ما) ، فأوحى هذا التماثل دلالة على التوكيد .

وعلى النسق ذاته نجد قوله تعالى : ((فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ))[2] ، فتقديم الجار والمجرور (لله) ، بمعنى لا يستحق الحمد سواه ، فالحمد من استحقاقه واختصاصه وحده[3]، فهذا النوع من التقديم يفيد الاختصاص[4]. ولا سيما أنّ السياق كان بصدد التكذيب والإنكار للمعاد الذي أصرّ عليه الكافرون ، ((وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنّاً وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ))[5]، وما دام السياق سياق إنكار وتكذيب ، اقتضى أسلوباً يوحي بالتوكيد ، فجاء التقديم على غير الترتيب المعهود ، محدثاً فجوة من الفضاءات ، ومساحة من التوتر ، لدى المتلقي المخاطب ، ونلحظ أنّ المتوالية القرآنية الناتجة من توالي الأوصاف المرتبطة بالمسند (ربّ السماوات وربّ الأرض ربّ العالمين) :

---

(1) ينظر : التوازي التركيبي في القرآن الكريم : 40
(2) الجاثية : 36
(3) ينظر : فتح القدير : 12/5 ، وروح المعاني : 2/26
(4) ينظر : المثل السائر : 38/2 ، والطراز : 2/ 71
(5) الجاثية : 32

ربّ السماوات

لله الحمد ——— ربّ العالمين

ربّ الأرض

قد حققت توازياً تركيباً ، فجاء التكرار (تكرار رب) ليعطي تماثلاً وتماسكاً لفظياً ، تعزز بالتماثل على صعيد الوظيفة النحوية ، صبّ في مصلحة المعنى السياقي ، فإصرار المتلقي على الإنكار (إنكار التوحيد وإنكار المعاد) ، يوازيه تأكيد على الحمد المختص بالموحَد الموصوف بالاختصاص بالربوبية لمخلوقاته ، الربوبية التي أنكرها المتلقي ، وألبسها غيره (سبحانه) ، فجاءت الأوصاف بلفظها (لفظ الربوبية) لتمكن المعنى في نفس المتلقي ، كما تمكن الإنكار منها . فربوبيته (سبحانه) للمخلوقات التي يعضّمها المتلقي ثابتة على وجه التلبس الذي تضفيه الأوصاف غير المفصولة عن موصوفها . لذا يقتضي أن يكون حمده ثابتاً مختصاً به ، لا يشاركه فيه أحد .

وإذا انتقلنا بالبحث في سياق آخر يرتبط بالموضوعة الإيمانية على الصعيد الغيبي ، نجد لافتاً للنظر سياق الترغيب والترهيب في هذه السور الكريمة ، إذ كان تقديم الجار والمجرور يمثّل منحى أسلوبياً متميزياً ، تمثل بالضمير الذي وقع في محل الجر . ومنه قوله تعالى : ((نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ))[1] فالآية الكريمة تختص بالحديث عن المؤمنين الراسخين في إيمانهم ، وأنواع البشارات والعطاءات التي تشملهم جزاءً ومثوبة ، ومن هذه العطايا ما تهفوا إليه أنفسهم من ملذات الجنّة التي عُبر عنها بـ (ما) التي تفيد العموم الذي لا تقيده[2] سوى النفس وما تشتهي ، وقدم الجار والمجرور (الضمير) لإفادة التخصيص ، وهو معنىً ملازم للتقديم ، زيادة على ما فيه من الاهتمام بالمخاطبين وتعجيل المسرّة بالبشرى[3]. وعلى النسق ذاته يطالعنا قوله تعالى : ((وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا

---

(1) فصلت : 31

(2) ينظر : البلاغة العربية في ثوبها الجديد :150 ، 170

(3) ينظر : معاني النحو : 92/3

خَالِدُونَ))[1] ، وقوله تعالى : ((لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ))[2] . وغيرها من الشواهد القرآنية .

وفي سياق التهديد والوعيد يستمر النسق الأسلوبي نفسه ، فنجد قوله تعالى : ((وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئاً اتَّخَذَهَا هُزُواً أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۞ مِن وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُوا شَيْئاً وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاء وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۞ هَذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مَّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ))[3] ، واللافت في الآيات الكريمة مع تقديم الجار والمجرور ، تكرار حرف الجر نفسه ، والضمير نفسه ، مع اختلاف صيغة العذاب (مهين ، عظيم ، أليم) ، إذ يكتسب هـذا التكرار قيمة مغايرة ، وصيغة إيحائية تتجاوز الصفة الاحصائية ، فأجناس العذاب المختلفة التي تنضوي في عمومية تنكير العذاب ، وتستفاد من اختلاف صفته (مهين ، عظيم ، أليم) ، كلّها مختصة بهم ، صائرة إليهم ، على وجه الاستحقاق والشمول اللذين أفادتهما (أولئك) ، الاستحقاق ببعد منزلتهم في الشرّ ، والشمول من دلالة الجمع المستفاد منها[4] . وقد يكون في تكرار الضمير (هم) ، دلالة على التحقير ، مرتبطة بوصف العذاب بالمهين ، " فغرس الضمير يحقق نواتج متعدّدة بالنسبة لمرجعه ، من ذلك دخول المرجع دائرة الفخامة ... وقد يتحول الناتج إلى دائرة التحقير ، وإلى غير ذلك من الدوائر الدلالية التي تحتملها العلاقات السياقية "[5].

وفي السياق نفسه قوله تعالى : ((وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ))[6] ، فالآية القرآنية الكريمة تتحدث عن صنفين متناقضين (المؤمنين والكافرين) ، أحدهما يستجيب لله ، ويقبل دعوته ، فيستجيب له ربّهُ (سبحانه) ، ويزيده من فضله ، واللافت للنظر أنّ الحديث عن المؤمنين جاء مجرّداً من أي وسيلة تأكيد ، فالمتلقي راسخ الإيمان ، والباث (سبحانه) عالم به ، وبرسوخ إيمانه .

---

(1) الزخرف : 71
(2) نفسها : 73
(3) الجاثية : 9-11
(4) ينظر : روح المعاني : 197/25
(5) في تحليل النص الشعري : 58 - 59
(6) الشورى : 26

والآخر معاند منكر مكذّب ، فاقتضى تهديده توكيداً بتخصيص العذاب به ، من خلال حركة مفردات التركيب باتجاه تقديم المسند (الجار والمجرور) على المسند إليه . وفيه سمة أسلوبية انماز بها القرآن الكريم ، فمن مقاييس الإبداع مناسبة الكلام مع مقتضى الحال ، " فإن كان إطلاق الحكم فحسن الكلام تجريده من مؤكداته ، وإن كان مقتضى الحال بخلاف ذلك ، فحسن الكلام تحليه بشيء من ذلك ، بحسب المقتضى ضغطاً وقوةً ... "[1] .

تقديم الجار والمجرور على المفعول به :

شكّل تقديم الجار والمجرور على المفعول به في سور الحواميم سمات أسلوبية ، مثّلت ظواهر بارزة في محاور عدة ، ارتبط بعضها بالبنية اللغوية للنص القرآني ، وارتبط بعضها الآخر بالسياق ، وما يثيره في ذهن المتلقي . وأول سمة أسلوبية تلفت النظر هي الإلحاح في استعمال ضمير المخاطب (الكاف) ، مشيراً إلى جمع المخاطبين ، متأثراً بحروف الجرّ . والمعروف أنّ استعمال الضمائر في النص يمثّل عنصراً أساسياً من مكوناته ، وأداة من أدوات تماسك البناء النصي ، " فالنص يحتوي علاقات داخلية ، وأخرى خارجية مرتبطة بالسياق ، وهذه وتلك تحققان التماسك النصي "[2] . وزيادة على كونه ـ أي الضمير ـ وسيلة لتماسك النص ، فإنّه ظاهرة لغويّة إنشادية ، تتشكّل من اختفاء الاسم أو بعض أجزائه ، وبقاء ما يشير إليه أو يحيل عليه ، ولكنّه تكرار إيحائي يأتي بفعل التحوّل الذي يحصل للاسم ، وينطلق من الإقرار بأهمية المحال عليه ، فتتعامل وإياه كحركة لا ينتفي بوجودها الأصل ، بل تسهم في استمراره محوراً قابلاً للتجدّد ، وإعادة الصياغة ، على وفق متطلبات جديدة ، لم يكن عليها في المرحلة الأولى . وبذلك يستمر ذكر الأصل مع حاجةٍ إلى تأمّل وتفسير ، لذا كان مظهراً من مظاهر العدول بالنقص .

---

(1) مفتاح العلوم : 73

(2) علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق : 107/1

أمّا الإلحاح على استعمال ضمير المخاطب (الكاف) فيدفع إلى دراسة الدلالات المرصودة لهذا الإلحاح ، ويتطلّب من المتلقي أن يكون واعياً بحركة المعنى المرتبطة به ، التي قد تكون سبباً للإلحاح على ضمير معين[1] .

والبحث في سور الحواميم المباركة يدفعنا إلى القول إنّ الإلحاح في استعمال هذا الضمير ، قد يرتبط بأنّ المشار إليه (المخاطب) بهذا الضمير ، غالباً ما يكون منكراً للحقائق التي جاءت موضوعة أساسية ، ركّزت عليها آيات هذه السور المباركة ، وهي حقائق غيبية في الغالب ، تنكرها العقول التي ارتبطت بالحسّيات ، فجعلتها المعيار الأساس في قبول الأفكار ورفضها ، لذا جاء الخطاب القرآني مهتماً بالمتلقي مقدّماً له ، مراعياً حاله، من خلال حسيّة الحقائق الموجهة إليه ، لإثبات الأفكار المجرّدة ، فيتحدث عنها من خلال حركة الحياة ، وظواهر الوجود ، وأسرار الطبيعة ، وبديع صنعها ، فجاء الجار والمجرور (ضمير الخطاب) مقدّماً على المفعول به ، الذي يشير إلى أمور محسوسة وليست مجرّدة ، ولكنّها تؤكد عظمة مبدعها وقدرته .

ومن ذلك قوله تعالى : ((هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقاً وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ)) [2] ، وقوله تعالى : ((اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً))[3] ، وقوله تعالى : ((الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ))[4] وقوله تعالى : ((اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَاراً وَالسَّمَاء بِنَاء))[5] ، وقوله تعالى : ((اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ))[6] . فالآيات الكريمة تشير إلى حقيقة غيبية هي التوحيد ، من خلال أفعال القدرة الإلهية المحضة المحسوسة التي يتنعم بها المخاطبون ويتلبّسون بنعيمها ، ويتحسّسون فضلها وقيمتها ، و" تقدم الجار والمجرور

(1) ينظر : في تحليل النص الشعري : 59 ، والتفسير البياني للتراكيب القرآنية ذوات الدلالات الاحتمالية :155
(2) غافر : 13
(3) نفسها : من الآية 61
(4) الزخرف : 10
(5) غافر : 64
(6) نفسها : 79

على المفعول به ، لما مرّ مراراً ، من الاهتمام بالمقدّم ، والتشويق إلى المؤخّر ، فإن ما حقّه التقديم إذا أخّر تبقى النفس مترقبة له ، فعند وروده يتمكن عندها فضل تمكّن "[1].

ويبدو لي أنّ حركة الضمير باتجاه اليمين حققت معادلة ثلاثية الأبعاد ، صاحب الفعل ـــــ المتلقي ـــــ الفعل ، كان فيها صاحب الفعل غنيّاً عن فعله غير مفتقر إليه ، فابتعد الفعل عنه سبحانه ، وكان المتلقي مفتقراً لصاحب الفعل وفعله ، فتوسّط بينهما.

ومن تقديم الجار والمجرور على المفعول به قوله تعالى : ((اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ))[2] . وفي تقديمه على المفعول ضربٌ من الاهتمام والتخصيص ، أي يخلص لنفسه أو ليدينه من يشاء من عباده . وفيه تسلية للرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)، بأنّ فيهم من يجيب[3] . وفي مرجعية الضمير (الهاء) اختلاف واسع يرجع إلى احتمالية أن لا تنحصر مرجعيته على لفظ ظاهر ، إذ إنّ " ..المضمر ما وضع لمتكلّم ، أو مخاطب ، أو غائب تقدّم ذكره لفظاً ، أو معنىً ، أو حُكماً "[4] . فمرجعية الضمير عملية تدعو المتلقي إلى أن يسلك مسار الاستدلال ، وهي عملية قد تثري النص وتعكس تفاعل العقل مع اللغة ، وتضفي طابع التحرّر داخل النص من القيود النحوية ، ومن ثم خضوعها لقيود دلالية مرتبطة بالسياق ، وبقدرة المتلقي على الوصول إلى الإحالة المناسبة . ومن هنا برزت أهمية الراسخين في العلم ، إذ يعطون حكماً مرجعياً مطابقاً للواقع ، أو قريباً منه ، لذلك نرى أنّ الآية السابقة ، أرجع فيها الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ـ بطريق الأئمة المعصومين (ع) ـ الضمير إلى الله (تعالى) ، على معنى أنّ الله يصطفي لنفسه من يشاء من عباده ، فكان اصطفاؤه لعلي وأبنائه المعصومين (عليهم السلام) ، فيكون التقديم

---

(1) تفسير أبي السعود : 9/4
(2) الشورى : 13
(3) ينظر : الدر المنثور : 340/7 ، وروح المعاني : 22/25
(4) شرح الرضي على الكافية : 401/2

على معنى أن يختص لنفسه (سبحانه) من يشاء[1] . على حين أرجع بعض المفسرين الضمير على الدين ، أي يخص بالاجتباء لدينه من يشاء على سبيل العموم[2] .

ومنه قوله تعالى : ((وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ))[3] ، فقدّم الجار والمجرور (إليك) على المفعول ، ولا يخفى ما فيه من تسلية لرسوله (صلى الله عليه وآله وسلم) وعناية واهتمام ، فهو (صلى الله عليه وآله وسلم) متلقي الوحي ، حامل أعبائه ، المكذّب من قومه ، الذي يواجه شتى بلايا الأذى منهم . ولا يخفى أيضاً ما في هذا التقديم من مراعاة للمتلقي الآخر ، المعني بالخطاب القرآني ، المكلّف باتباعه ، المنكر لحقائقه ومنها النبوة وما يرتبط بها من الوحي ، فإنكار المتلقي لنبوة محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) يستلزم خطاباً مؤكّداً يقابله ، تحقق بتقديم الجار والمجرور (إليك) . ويبدو أنّ تقديم الجار والمجرور وتأخير المفعول ، وما حقق من تجاور لفظي لدوره ، وهو الإنذار (قرآناً عربياً لتنذر) قد عبّر عن امتداد البعد الزمني لوظيفة القرآن الكريم غير المرتبطة بوجود النبي الأعظم (صلى الله عليه وآله وسلم) ، فهو ـ أي القرآن ـ إنذار للناس ، أوحي لنبيّ عربيّ بلسان قومه ، ليكون مفهوماً بيّناً يترسخ في النفوس[4]، وينطلق ممتدّاً عبر الزمن ، حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

ومن تقديم الجار والمجرور على المفعول به قوله تعالى : ((لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ))[5] . فشكّلت الآية الكريمة بتقديم الجار والمجرور (لمن) على المفعول به (إناثاً ، الذكور) ملمحاً أسلوبياً يعرف بالصورة المرآتية[6]، تشكّل من خلال التوازي التركيبي ، بوجود شكل مكرر (يهب

(1) ينظر : تفسير القمي : 105/2 ، وتفسير فرات الكوفي : 528
(2) ينظر : تفسير الواحدي : 962/2 ، وتفسير الثعلبي : 306/8
(3) الشورى : 7
(4) ينظر : تفسير أبي السعود : 22/8
(5) الشورى : 49
(6) ينظر : أسلوبية البناء الشعري ، دراسة أسلوبية لشعر سامي مهدي : 87 - 88

لمن يشاء) ، ومن خلال المخالفة المتكوّنة من تقديم الجار والمجرور (لمن) ، والتضاد بين (إناثاً ، الذكور) .

إن هذه الصورة المتشكّلة التي عمادها تقديم (لمن) على المفعول به ، توحي بالمعنى الدقيق المرتبط بالمشيئة الإلهية من جهة ، وبالافتقار الإنساني والمشيئة الإنسانية من جهة أخرى ، فالإنسان هو المفتقر لهبة الله (سبحانه) ، المستعجل لحصولها ، فكان التقديم متسقاً مع هذا المعنى . ولما كانت مشيئة الله القادر فوق مشيئة عباده ، قدم ما يشاء وأخّر ما يشاؤه عباده ، " وقدّم الإناث أولاً على الذكور ، لأنّ سياق الكلام أنّه فاعل لما يشاؤه ، لا ما يشاؤه الإنسان ، فكان ذكر الإناث اللاتي من جملة ما لا يشاؤه الإنسان أهم ... "[1] .

تقديم الجار والمجرور على خبر إنّ :

جاء تقديم الجار والمجرور على خبر (إنّ) المؤكّدة مرتفعاً في الاستعمال ارتفاعاً يمثّل ملمحاً أسلوبياً بارزاً ، وفي سياقات تستدعي إثباتاً وتوكيداً ، بأكثر من أسلوب توكيدي بحسب ما يقتضيه المقام ، لدفع أيّ شكّ أو إنكار عن الخبر ، الذي يخرجه التوكيد من سياقه الإخباري إلى سياق فعله في ذات المتلقي ، مع الأخذ بالحسبان وظيفته التأثيرية والجمالية[2]. واستعمال ظـاهرة تقديم الجار والمجـرور على خبر (إنّ) يشكّل درجة ثالثة ـ إن صح القول ـ في استعمال العناصر التوكيدية ، فـ " الجملة الاسمية المجرّدة من التوكيد تمثّل في حد ذاتها درجة أولى من الدلالة ... "[3] ، والدرجة الثانية منها استعمال (إنّ) ، التي قد تكون بمثابة تكرير الجملة الداخلة عليها مرتين[4] .

لذا نجد أنّ تقديم الجار والمجرور على خبر إنّ جاء في سياق إثبات حقيقة أورد إنكار، ومنه قوله تعالى : ((وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ))[5] ، إذ إنّ الآية القرآنية في سياق إثبات حقيقة عامّة وجوهرية ، يتوقف عليها إيمان الإنسان وعدمه ، وهي

---

(1) تفسير النسفي : 107/4
(2) ينظر : جماليات اللفظة بين السياق ونظرية النظم : 17
(3) الحجاج في القرآن الكريم : 290/1
(4) ينظر : البرهان في علوم القرآن : 406/2 ، والحجاج في القرآن : 292/1
(5) الزخرف : 62

أنّ الشيطان يشكّل ركيزة أساسية في إبعاد الإنسان عن دين الله (سبحانه) ، بوساوسه التي تؤدي إلى الهلاك بالوقوع بالمعصية ، ولا سيما إذا كانت ترتبط بالجانب العقائدي (الغيبي)، والآية في سياق الحديث عن قيام الساعة والبعث ، لقوله تعالى : ((وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ))(1) . يضاف إلى ها السياق بعد غيبيّ آخر ، وهو الشيطان غير المحسوس وغير المرئي ، ولكنّ عداوته بائنة ظاهرة ، فجاء التوكيد بدرجاته المتعدّدة محذّراً وموجّهاً ، ليكون جسراً عابراً للغيبيّات ، ليغرسها في حقل المحسوسات ، وكأن الإنسان يشاهد الشيطان ، ويتحسّس وساوسه ، فيبعدها عنه ، ويثبت بدلاً عنها الإيمان بالله وبدينه وأحقية قيام ساعته .

وفي سياق إثبات حقيقة المعاد ، تهديداً ووعيداً ، يطالعنا قوله تعالى : ((إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ))(2). إذ جاء الخبر في هذا الآية ، وبهذه الصيغة ، ليتناسب مع السياق ، فالسياق سياق إنكار وإثبات ، إنكار لحقيقة المعاد ، وإثبات له ولما يجري فيه من عذاب غليظ للمجرمين ، اقتضى أسلوب توكيد بدرجات متعدّدة ، أشرنا إليها في الآيات الكريمة السابقة . ومجيء الجار والمجرور (في عذاب جهنم) مقدّماً على خبر إنّ ، أحدث فجوة من الفضاءات ومساحة من التوتر لدى المتلقي ، فالمجرومون وعذاب جهنّم متجاوران لا ينفكان ولا ينفصلان ، وكأن الآية الكريمة تنبىء عن تحقق الخلود لهم في العذاب مرّتين ، مرّة بلفظ الخبر (خالدون) ، وقبلها مفاجأتهم بالعذاب مجاوراً في اللفظ لإجرامهم ، فلو لم يأت الخبر (خالدون) لأمكن أن يكون الجار والمجرور خبراً ، ولَحقق الخلود على وجه الإطلاق وعدم التقييد ، ولكن بدرجةٍ أقل من التوكيد والثبوت اللذين تحققا بذكر الخبر ، كما ورد في الآية الكريمة . ففعل الإجرام الذي يكون الكفر أعلى درجاته معادل سلوكيّ لسلوك استوجب الخلود في العذاب(3) .

---

(1) الزخرف : 61
(2) نفسها : 74
(3) ينظر : الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل : 98/16 ، وتفسير شبر : 463

وفي سياق إثبات الحكمة الإلهية والقدرة ، نلحظ قوله تعالى : ((وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ))[1] ، فما دام الإنسان توّاقاً للخير ، شغفاً بالأموال ، فإنّه يطلبها لاعتقاده أنّها طريق مهم لسعادة الدنيا والعيش فيها رغيداً ، وهنا يأتي البعد الغيبي المرتبط بالحكمة الإلهية ، فالله (سبحانه) هو العالم بما يصلح عباده ، لذا جاء في الحديث القدسي : " إنّ من عبادي من لا يصلحه إلا الغنى ، ولو أفقرته لأفسده ، وإنّ من عبادي من لا يصلحه إلا الفقر ، ولو أغنيته لأفسده ، وذلك أنّي أدبّر عبادي لعلمي بقلوبهم "[2] . ولأن هذه الحقيقة غيبية ، قد لا يدركها الإنسان، جاء التعبير عنها مؤكّداً بـ (إنّ) التي قدم الجار والمجرور على خبرها ، ليعطي بعداً تلازمياً بين الخالق (سبحانه) ـ المشار إليه بالضمير ـ الحكيم البصير بأحوال عباده ومصالحهم ، وبين العباد . وقد تحقق هذا التلازم من خلال التجاور اللفظي بين اسم (إنّ) (الضمير) العائد على لفظ الجلالة ، والعباد من جهة ، وإضافة العباد إلى الضمير نفسه من جهة أخرى ، فشكّل هذا التلازم إيحاءً يعزّز المعنى الأساس في الآية الكريمة ، وهو أنّ الله سبحانه " محيط بخفايا أمورهم وجلاياها ، فيقدّر لكل واحدٍ منهم في كل وقت من أوقاتهم ما يليق بشأنهم ، فيفقر ويغني ، ويمنع ويعطي ، ويقبض ويبسط ، حسبما تقتضيه الحكمة الربانية "[3] .

ومن تقديم الجار والمجرور على خبر (إنّ) قوله تعالى : ((وْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ))[4] . أي " على عذابهم قادرون قبل موتك وبعد موتك "[5] ، فالآية في صدد إثبات القدرة الإلهية على المشركين في حياة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ، وقد تحققت حسيّاً بانتصار المسلمين عليهم في بدر ، وقال بعض المفسرين[6] إن معناها يشمل إثبات القدرة على المنقلبين على أعقابهم بعد وفاة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)،

(1) الشورى : 27
(2) التفسير الآصفي : 1130/2
(3) تفسير أبي السعود : 32/8
(4) الزخرف 42
(5) تنوير المقباس من تفسير ابن عباس : 414
(6) ينظر : تفسير القرطبي : 92/16 ، والتسهيل لعلوم التنزيل : 29/4

وبذلك كان المقام لارتباطه بالغيب مقام توكيد وتخصيص ، فالتوكيد لإثبات القدرة الإلهية المطلقة ، وإن كانت في هذا المقام غيبيّة لم تجد بعد ، لنقلها إلى حيز الوقوع اليقيني تهديداً ووعيداً لهؤلاء ، وتسلية للرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله وسلم) ، لذا تعددت درجات التوكيد ، فابتدأت بـ (إنّ) المؤكّدة التي اسمها الضمير (نا) للدلالة على عظمة المقتدر ، وبالخبر الذي جاء اسم فاعل ، وما فيه من دلالة الثبوت المستمر ، ثم بتقديم الجار والمجرور على الخبر . والتخصيص من خلال حركة مفردات التركيب ، بتقديم (عليهم) على خبر (إنّ) ، فالقدرة الإلهية في هذا المقام مختصّة بعذابهم موجّهة إليهم ، لا انفلات منها ولا خلاص .

ومن سياق إثبات القدرة أيضاً قوله تعالى : ((أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ))(1) , إذ جاءت الآية الكريمة مشحونة ببصمات شحن أسلوبية متعددة تصب في مجرى التوكيد ، إثباتاً لقدرته (سبحانه وتعالى) على البعث الذي أنكره من لم يجب داعيّ الله ، وهو ـ أي البعث ـ ليس بأعجب من آيات القدرة التي ذكرتها الآية الكريمة ، وهي خلق السماوات والأرض(2) ، لذا جاء الجار والمجرور على غير الترتيب المعهود ، مقدّماً على خبر(إنّ) للتنبيه على أنّ ما ذكر من آياتٍ القدرة السابقة ، مع عظمتها ، داخلة في حكم قدرته المطلقة التي لا تقف عند شيءٍ ، ولا يعجزها أمر ، فهو (سبحانه) مستعل بقدرته على الأشياء .

واللافت للنظر في هذا التقديم التناسب بين ما فيه من دلالة التوكيد والتنبيه ودلالة الألفاظ ، فحرف الجر (على) يفيد الاستعلاء ، ومجروره النكرة يفيد العموم ، " تقريراً للقدرة على وجه عام ... ولذا قيل : إنّ هذا مشيرٌ إلى كبرى لصغرى سهلة الحصول ، فكأنّه قيل : إحياء الموتى شيء ، وكلّ شيء مقدور له ، فينتج أنّ أحياء الموتى مقدور له ، ويلزمه أنّه تعالى قادر على أن يحيي الموتى "(3). وقد جاءت العبارة القرآنية المؤكّدة بـ (إنّ وخبرها الذي قدم فيه الجار والمجرور عليه) مناسبة للسياق المتساوق مع نفسية المتلقي ، وحاجته إلى البناء الموحي بالقوة والقدرة ، من خلال مفاجأته بتقديم الألفاظ النكرة

---

(1) الأحقاف : 33
(2) ينظر : مجمع البيان : 117/9
(3) روح المعاني : 265/26

الدالة على العموم ، مما يلزمه تفكيك شفرات البصمات التي ألزمته الانتباه ، وذلك بقوة تبليغها في شحنة الخبر .

وقد وردت أشكال أخرى من تقديم الجار والمجرور ، ولكنّها لا تمثل منحى أسلوبياً يجعلنا نقف عليها ، كتقديمه على خبر النواسخ كـ (كان وليس) ، وعلى الفعل ، وعلى الفاعل .

الحـذف

يعد الحذف أهم عوارض التركيب ، إذ لا يورد المتكلم باستعمال هذا الأسلوب الألفاظ المنتظرة ، فيفجّر في ذهن المتلقي شحنة فكرية ، تجعله يحاول أن يتخيّل ما هو المقصود ، اعتماداً على معرفته الأساسية بالانحرافات التركيبية ، وإحاطته بمكونات السياق الاجتماعي المصاحب له ، ليتمكن من تقدير المحذوف تقديراً صائباً ، ومن ثم يحافظ على استمرارية فعل التلقي[1] . زيادة على إثارته إحساس المتلقي ، فينشط خياله ويشعر بالمتعة ، "والمتذوق الأدب لا يجد متاع نفسه في السياق الواضح والمكشوف ، وإنّما يجد متعة نفسه حيث يتحرك حسّه وينشط ، ليستوضح الأسرار والمعاني وراء الإيحاءات والرموز"[2] .

والحذف ظاهرة لغوية تشترك فيها اللغات الإنسانية ، ولكنّها قد تبدو أكثر وضوحاً في بعض اللغات ، ولا سيّما في اللغة العربية ، إذ تفوق غيرها من اللّغات ، لما جلبت عليه من خصائصها الأصيلة ، من حيل إلى الإيجاز[3] . لذا لقي عناية فائقة في الدراسات اللغوية والبلاغية ، بوصفه انحرافاً عن مستوى التعبير العادي ، يؤدي إلى وجود تفاعل بين المرسل والمتلقي ، بل إنه يكون أكثر بلاغة من الذكر ، قال الجرجاني " هو باب رقيق المسلك ، لطيف المأخذ ، عجيب الأمر ، شبيه بالسحر ، فإنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر ، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة ، وتجدك ألطف ما تكون إذا لم تنطق ، وأتم ما تكون بياناً إذا لم تبن ، وهذه جملة قد تنكرها حتى تخبر ، وتدفعها حتى تنظر "[4] .

ومعنى ذلك أنّ الحذف يشكّل رافداً من روافد الإبداع في السياقات التي يستحسن فيها ، لأنّه أكثر دلالة على أساليب الكلام الخاصة وأكثر تمييزاً لها ، وهو ينسحب على المبدع والمتلقي على حدٍ سواء ، فهو يؤدي إلى " خلق التجاوب بين منشئ الكلام ومتلقيه ،

---

(1) ينظر : نظرية علم النص : 88 ، والبنيات الأسلوبية في لغة الشعر العربي الحديث : 139
(2) خصائص التراكيب : 111
(3) ينظر : ظاهرة الحذف في الدرس اللغوي : 9 ، ومن بلاغة النظم العربي : 32/1
(4) دلائل الإعجاز : 121

بين الكاتب والقارئ ، بين السامع والخطيب ، يكون ذلك بإشراك المتلقي في بلوغ ما يراد إبلاغه إليه ، فيلقي إليه بعض الكلام ، ويترك له تقدير ما حجب عنه ، وما حذف دونه "[1].

وقد اشترط علماء اللغة أن لا يؤثر الحذف على المعنى ، فيخل في شرط التوصيل والإفهام ، ويكون ذلك من خلال وجود ما يدل على المحذوف من قرائن ، ووجود السياق الذي يترجح فيه الحذف على الذكر ، يقول الدكتور تمام حسن : " فالذكر قرينة لفظية والحذف إنّما يكون بقرينة لفظية أيضاً ، ولا يكون تقدير المحذوف إلا بمعونة هذه القرينة ، وأهم القرائن الدالة على المحذوف ، هي الاستلزام وسبق الذكر ، وكلاهما من القرائن اللفظية "[2]، والمقصود بالاستلزام التلازم بين عناصر البنية الأساسية ، فالعنصر المذكور يدل مع القرائن الأخرى على العنصر المحذوف ، وإمكان ذكر العنصر المحذوف في التعبير نفسه ، أو فيما يماثله تماماً ، يجعل الحذف جائزاً ، إذ لا يوجد مانع تركيبي في بناء الجملة من ذكره .

والقرآن الكريم في قمة النصوص التي راعت قضية الحذف بأشكالها المختلفة ، فـ " لا تحذف كلمة إلا حذفها أبلغ وأنسب وأكثر ترابطاً في الأسلوب ، بحيث تتداعى الألفاظ تداعياً طبيعياً حسبما تقتضيه الأفكار ، وتنحدر بسهولة ويسر حتى تتماسك في مواضعها التي هيئت لها "[3] .

وقد ورد في سور الحواميم أشكال متعددة من صور الحذف ، ابتدأت بأجزاء من الكلمة ، وامتدت لتشمل الكلمة والجملة ، وحققت دلالات متنوعة انسجمت مع تنوع موضوعات هذه السور الكريمة وسياقاتها .

حذف جزء من الكلمة : من أشكال الحذف الواردة في سور الحواميم حذف جزء من الكلمة ، إذ يحذف حرف منها ، لا لعلّة معيارية تفرضها القواعد المتعارف عليها ، بل

---

(1) نحو المعاني : 83
(2) اللغة العربية معناها ومبناها : 221
(3) الدلالة القرآنية عند الشريف المرتضي : 240

لمزية أسلوبية تضفي بعداً دلالياً ، تكون فيه العبارة القرآنية ، مراعية لمقتضى الحال ، زيادة على البعد الجمالي المتحقق نتيجة الانسجام الصوتي من ذكر الحرف أو حذفه . ومنه استعمال الفعل (تتفرقوا) ، بذكر التاء في قوله تعالى : ((شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ))[1]، على حين جاء الفعل نفسه محذوف التاء في قوله تعالى : ((وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ))[2]، لأن الآيتين في سياقين مختلفين ، فالأولى خطاب لأمم مختلفة ، من شرائع متعددة ، متطاولة على مدى التأريخ ، لذا جاء الخطاب بالفعل الأطول صيغة (تتفرقوا) ، على حين كان الخطاب في الآية الثانية موجّهاً لأمة واحدة ، هي جزء من الأمم المذكورة في الآية الأولى ، فجاء الفعل بالصيغة المنقوصة حرفاً ولم يأت به كلّه . وفيه لطيفة أسلوبية أخرى تتعلق بالنهي عن أي شيء من التفرق مهما كان قليلاً أو جزئياً ، فجاء بالفعل مقتطعاً منه حرفاً[3] .

ومنه حذف نون الفعل (يكون) في قوله تعالى : ((وَإِن يَكُ كَاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقاً يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ))[4] ، لأن الكلام على لسان مؤمن آل فرعون ، وحال الشدة والضيق والخوف والتهديد بالقتل الذي كان يمرّ فيه ، فجاء النظم القرآني بألفاظ موجزة ، تحكي لهفة مؤمن آل فرعون للإسراع في نصحهم لدفعهم عن قتل موسى (ع)[5]، لذا حذفت نون الفعل مراعاة لمقتضى الحال ، وجعل المتلقي كأنه يعيش حالته النفسية التي كان عليها من تلهف إلى الإسراع والمبادرة باختصار الزمن ، ليصل إلى مبتغاه في أوجز عبارة . وحذفها أيضاً في قوله تعالى : ((فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ))[6] ، إذ إنّ في الآية الكريمة تناسباً رائعاً بين زيادة لفظة (يك) الداخلة في سياق نفي الفعل (ينفعهم) ، مبالغة في نفيه ، " لدلالة فعل

---

(1) الشورى : 13
(2) آل عمران : 103
(3) ينظر : بلاغة الكلمة في التعبير القرآني : 15 - 16
(4) غافر : 28
(5) ينظر : نظم الدرر : 54/17
(6) غافر : 85

الكون على أنّ خبره مقرر الثبوت لاسمه ، فلمّا أريد نفي ثبوت النفع إياهم بعد فوات وقته ، اجتلب لذلك نفي فعل الكون "[1] ، وبين الاختصار بحذف نون (يكن) لكثرة الاستعمال والتخفيف ، للتعبير عن مدى سرعة اعترافهم بما كانوا يجحدون ، وعدم انتفاعهم بالإيمان الذي جاء بعد فوات الأوان ، فحذف النون والاستغناء عنها يتناسب من حيث الدلالة مع عدم الانتفاع ونفيه، أي " انتفى عن إيمانهم مبدأ الانتفاع ، وأقلّه ما انتفى أصله "[2].

ومن حذف حرف من الكلمة قوله تعالى : ((وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ))[3] ، إذ قرأت بتخفيف الدال مع حذف الياء[4] ، رعاية للفاصلة القرآنية ، وهو من المشاكلة والتناسب ، فالفاصلة تتناغم مع الأبنية الدلالية ، وتكرارها الصوتي واللفظي يزيد من إيحائها وتوكيدها ، مما يدعم الدلالة بشحن تعبيرية ذات أثر بالغ في نفس المتلقي[5] . وقرأت بتشديد الدال ، من باب تشبيه الناس بالإبل الهاربة خوفاً وفزعاً ، تهويلاً في وصف ذلك اليوم[6] ، إذ تجتمع كلّ المعاني التي تتداعى عند ذكر هذه الكلمة ، فترسم في ذهن المتلقي شتى الصور الزاخرة بالحركة والانفعال .

ومنه نداء مالك خازن النار ترخيماً[7] في قوله تعالى : ((وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ))[8]، وهو حذف معلل بكثرة الاستعمال ، يعتور الأسماء ، فترخم بحذف آخرها في النداء ، فأهل النار لمّا كثر نداؤهم لمالك عمدوا إلى الترخيم لكثرة استعمالهم اسمه . زيادة على ما فيه من دلالة على ضعفهم وعجزهم عن نطق الكلمة كاملة، فتمازج العجز مع كثرة الاستعمال في أداء الحذف ، ولم يكن الترخيم في الكلام وتصرّفاً ، بل " إنهم في حالة تشغلهم عن الالتفات إلى الترخيم ، وترك النداء على الوجه الأكثر في

---

(1) التحرير والتنوير : 222/24
(2) البرهان : 408/1 ، وينظر : معاني القرآن : 210/1
(3) غافر : 32
(4) ينظر : التفسير الكبير : 53/27 ، وتفسير النسفي : 73/4
(5) ينظر : من وحي القرآن : 135
(6) ينظر : الكشاف : 4/ 170 ، والتفسير الكبير : 27/ 53
(7) ينظر : فتح القدير : 565/4 ، وروح المعاني : 141/25
(8) الزخرف : 77

الاستعمال ، وحاصل الجواب أنّ هذا الترخيم لم يصدر عنهم لقصد التصرّف في الكلام والتفنن ... بل للعجز وضيق المجال عن الاتمام ، كما يشاهد في بعض المكروبين "[1] .

حذف الكلمة : ومن أشكال الحذف في سور الحواميم حذف الكلمة ، سواء كانت اسماً أم فعلاً . فمن حذف الاسم :

حذف المفعول به :

يحذف المفعول به لتحقيق غرض يقتضيه السياق ، وقد أشار علماء العربية إلى أهميته بسبب ما يضفيه من لطائف دلالية ، وما يظهره من حسنٍ ورونق على العبارة ، قال الجرجاني : " ...واللطائف كأنّها فيه أكثر ، ومما يظهر بسببه من الحسن والرونق أعجب وأظهر "[2] . وقد حقق حذف المفعول به دلالات عديدة ، منها الدلالة على العموم والشمول مع الاختصار ، عندما يكون المراد الاقتصار على إثبات معاني الأفعال لفاعليها ، من غير تعرّض لذكر المفعولين . والأثر الأسلوبي لحذف المفعول به عندئذٍ يكون تبعاً لمقام ذلك التركيب ، لأن " اهتمام المتلقي في هذه الحالة سوف ينصب على الفعل نفسه وتأمله وإدراك أثره ، من خلال العلاقة أو العلاقات التي يقيمها المبدع بين هذا الفعل وما ارتبط به من ألفاظ ، وما يستثيره من دلالات في نفس المتلقي في ضوء هذا السياق "[3] .

ومنه قوله تعالى: ((وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاء مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ))[4] ، فحذف مفعول (تهدي) ، للدلالة على عموم الهداية لتشمل جميع الناس ، وهي الرسالة التي كلّف بها الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله وسلم) ، لتكون شاملة لكلّ الأمم ، منفتحة على كلّ الشعوب ، فهي الرسالة الخاتمة . والأسلوب اللافت للنظر في الآية الكريمة ذكر مفعول (نهدي) عند إسناده لله عزّ وجل ، وحذفه عند إسناده للرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ، لأن الثاني هو تقرير لهدايته (سبحانه) ،

---

(1) روح المعاني : 141/25 - 142

(2) دلائل الإعجاز : 127

(3) في البنية والدلالة : 124 ، وينظر : البنية الأسلوبية في التراكيب النحوية : 181

(4) الشورى : 52

المرتبطة بمشيئته ، وبيان لكيفيّتها ، فحذف المفعول " ثقة بغاية الظهور ، أي : وإنك لتهدي بذلك النور من نشاء هدايته "[1] . زيادة على إفادة معنى التميّز بين الهدايتين ، هداية الله (سبحانه) ، التي تتصف بارتباطها بمشيئته واختياره وعلمه بخفايا النفوس واستحقاقاتها. وهداية الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ، المرتبطة بها ، والمتفرعة عنها ، التي لا ترتبط بمشيئة الرسول واختياره ، قال تعالى : ((إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ)) . ويبدو أنّ في هذا الأسلوب أيضاً دلالة على تلبّس الهداية بشخصية النبيّ الخاتم (صلى الله عليه وآله وسلم) ، وكأن المعنى : إنك يا محمّد هداية مطلقة ، بقطع النظر عن المستفيد منها ، سواء اتبعك ، أم لم يتبعك .

ومن دلالة حذفه على الشمول قوله تعالى : ((وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ))[2] ، فقد حقق حذف مفعول (تسألون) الشمولية في الخطاب القرآني ، إذ وُجّه للمؤمنين ، حثّاً لهم على زيادة العمل ، في سبيل طاعة الله (سبحانه) ورضاه ، فهم يسألون عن كلّ شيء . مع العلم أنّ مقتضى أحكام الشريعة ، تدفع إلى أنّ السؤال والحساب يكون على مقدار العمل الذي كلفوا به . إلّا أنّ في الحذف تحفيز للمتلقي بإثارة تساؤل في ذهنه ، يبعث على التفكّر والتدبّر للوصول إلى تحديد ما يُسأل عنه . وهو من إيحائية اللغة ومرونتها ، إذ استعملت في الخطاب القرآني بأعلى تجليات الجمال والإيحاء ، فيلجأ الخطاب أحيانا إلى إسقاط بعض عناصر البناء اللغويّ ليقوّي أسلوب الإيحاء ، وتزداد جمالياته من ناحية ، وينشّط خيال المتلقي من ناحية أخرى .

وقد يحذف المفعول به تهديداً وتهويلاً ، كقوله تعالى : ((فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاء بِدُخَانٍ مُّبِينٍ))[3]، إذ لا يخفى ما في حذف مفعول (ارتقب) من تهويل ، لذهاب الوهم في مفعوله كلّ مذهب ، فيحلّق ذهن المتلقي متفكّراً و مترقباً ، سائلاً نفسه ، ماذا ارتقب[4] ؟ وهذا يرتبط بالأبعاد القصدية التي يظهرها الحذف ، بما يكشف عن السياقات النفسية التي

---

(1) روح المعاني : 83/25
(2) الزخرف : 44
(3) الدخان : 10
(4) ينظر : نظم الدرر : 13/18

تقف وراء النص ، فيكون الباث كأنّه ماثل أمام المتلقي يحادثه ، من دون عائق زماني أو مكاني ، من خلال حذفه كلّ ما من شأنه أن يرسم حدوداً واضحة ، وخطوطاً فاصلة بينهما، وهو يتوافق مع الغرض العام للنص ، وهو التوصية والإرشاد تهديداً ووعيداً[1]. ومما يزيد المشهد تهويلاً إسناد إتيان الدخان إلى السماء مجازاً ، فالفاعل الحقيقي هو غير ما أسند إليه الفعل ، فقد سخّرها ربّها لتلقي الحدث ، فهي صاحبته[2].

ومنه قوله تعالى : ((أَمْ أَبْرَمُوا أَمْراً فَإِنَّا مُبْرِمُونَ))[3] ، فحذف مفعول (مبرمون) لدلالة ما قبله عليه ، فإن كانوا قد أعدوا أمراً ، فإنّ الله (سبحانه) قد أعدّ لهم أمراً ،من نقض الكيد ، وإلحاق الأذى بهم ، على وجه الثبوت الذي تفيده الصيغة الاسمية (مبرمون) ، التي حذف مفعولها تهديداً وتهويلاً ، فالمتلقي يجد في الجملة الثانية فراغاً يهتدي إلى ملئه اعتماداً على ما ورد في الجملة الأولى ، من دون أن يشكّل ذلك استنساخاً استبدالياً يسترشد به المتلقي ، لتعويض العنصر المحذوف ، فالحضور والغياب لبعض عناصر التركيب في هذا المقطع (المفعول به) يمثّل لوناً تعبيرياً بارزاً ، يعمل على جر المتلقي إلى المشاركة والتفاعل في ملأ الفراغ الناتج عن الحذف[4].

ومن حذف المفعول به قوله تعالى : ((وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ))[5] ، إذ تصف الآية الكريمة مدى الذل والهوان اللذين يعتوران أهل النار ، فهم منكسو الرؤوس ، لا يرفعون أبصارهم ذلاً وعاراً ، وهذه الصورة تعبّر عن هول ما يرونه من العذاب ، " والطرف الخفي الذي يخفى نظره ، كالمصبور ينظر إلى السيف ، لما لحقهم من الذلّ والخوف والوجل "[6] . ويأتي حذف مفعول (ينظرون) ليلمح ـ وبأسلوب أشاري ـ من خلال السرد إلى أنّ نظرهم الذليل لا ينفعهم إلّا زيادة في الحسرة والانكسار ، وكأنّهم لا ينظرون ، فهم يرون نعيم المؤمنين ، وقد حلوا دار السعادة

(1) ينظر : نظرية علم النص : 90
(2) ينظر : مجاز القرآن : 92
(3) الزخرف : 79
(4) ينظر : ظواهر أسلوبية في الشعر الحديث في اليمن : 240
(5) الشورى : 45
(6) فتح القدير : 543/4 ، وينظر : تفسير البيضاوي : 134/5

والرضوان ، فيزيدهم ندماً وانكساراً ، إذ لا نصيب لهم فيه ، وينظرون إلى هول ما يرونه من العذاب ، فيحجمون عن مشاهدته ، للروع الذي يصيبهم منه .

وقد يحذف المفعول به بعد فعل المشيئة ، لأجل البيان بعد الإبهام ، فإنه إذا سمع السامع (ولو شاء) تعلّقت نفسه بشيء أُبهم عليه ، لا يدري ما هو ، فلمّا يذكر الجواب يتضح ذلك الشيء بعد إبهامه ، ويكون وقعه في النفس أجمل وأوقع[1] . ومنه قوله تعالى : ((قَالُوا لَوْ شَاء رَبُّنَا لَأنزلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ))[2] ، أي : لو شاء إرسال الرسل ، بناء على جواب الشرط ، يكون دليلاً على مفعول المشيئة المحذوف ، أو لو شاء ربنا إنزال الملائكة بالرسالة[3]. ولا يخفى ما في تقدير المحذوف من تقييد للفكر ، وحصر قوة فعل الإنذار وتهويله على المتلقي ، ولكن يمكن أن نربط بين الغموض ـ بوصفه بعداً جمالياً للحذف ـ وبين أثره في النفس ، فللغموض الفني آثار نفسية ، ولا سيما في المعاني غير المحدودة ، ممّا يجلّلها بشيء من الرهبة والجلال . والحذف يطلق للنفس العنان ، فتذهب لترتاد آفاق المعاني التي يحتملها التعبير[4] .

ويحذف مفعول فعل المشيئة كثيراً ، إذا كان مما لا يكبره السامع ، فيبيح حذفه للمتلقي أن يتصوره بالقرائن الدالة عليه ، ولا سيما بعد لو ، وبعد حروف الجزاء ، أمّا إذا كان المفعول أمراً عظيماً ، أو بديعاً غريباً ، فالأحسن أن يذكر ولا يحذف ، ليكون أوقع في نفس المتلقي[5] . ومن حذفه قوله تعالى : ((أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً فَإِن يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ))[6] ، فقد حقق الحذف إيجازا بديعاً ، وأومأ إلى أنّ افتراءهم على الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) أمر شنيع، استحقوا عليه التوبيخ ، فهو (صلى الله عليه وآله وسلم) لا يُتصور وصفه بما ذكروه ، لذا كان في حذف المفعول به إشارة إلى الإعراض عن قولهم : (افترى على الله

---

(1) ينظر : من بلاغة النظم العربي : 1/274 - 275
(2) فصلت : 14
(3) ينظر : روح المعاني : 24/496
(4) ينظر : أثر القرآن في تطور النقد العربي : 119
(5) ينظر : معاني النحو : 2/86 ، وعلم الدلالة التطبيقي في التراث العربي : 434
(6) الشورى : 24

كذباً) ، وإيماء إلى أنّ متلقي الخطاب - وهو النبي الأعظم (صلى الله عليه وآله وسلم) - لا يكبر هذا المفعول ، لأن افتراءه على الله بمثّل ما يقولون بعيد مثل الشرك بالله ، " ومثال هذا أن يخوّن بعض الأمناء ، فيقول : لعل الله خذلني ! لعل الله أعمى قلبي ! وهو لا يريد إثبات الخذلان وعمى القلب ، وإنّما يريد استبعاد أن يخوّن مثله ، والتنبيه على أنّه رُكِبَ من تخوينه أمر عظيم "[1] .

حذف المضاف : ومن حذف الاسم في سور الحواميم حذف المضاف ، وهو من أهم أنواع الحذف التي يدل عليها المعنى ، لما يترتب عليه من تغيّر في الحكم ، يجعل المعنى بين نسبة الألفاظ خارجاً عن الحقيقة والمألوف ، وهذا الخروج يُعد الأساس في الوصول إلى فهم المضاف المحذوف ، من دون الحاجة إلى صنعة الإعراب[2] . ومنه قوله تعالى : ((وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ))[3] ، إذ حذف المضاف (أهل) ، فأوقع الإنذار على أم القرى ، وهي المضاف إليه ، فـ " عبّر بلفظ المحل عن الحال ، وفيه إيجاز واختصار ، ولأنه أخف وأبلغ "[4] ، وفيه تهويل على النفوس ، وتنشيط لخيال المتلقي ، وإثارة لانتباهه، لانتباهه، من خلال البعد النفسي لإيجاز الحذف ، يتمثّل في التوسع بالدلالة الإيحائية ، مما يفتح المجال واسعاً لذهن المتلقي في التصوّر .

ومنه قوله تعالى : ((إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۞ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ))[5] ، فحذف المضاف (خلْق) حقّق الإشارة إلى آيات الله الله في السماوات والأرض على سبيل الإجمال لا التفصيل ، فكان في هذا الإجمال شمول وعموم ، بمعنى أنّ السماوات والأرض بذواتهما ، وبما تحملان من عجائب ونعم ، وبما لها من الدلالة على صانعهما هي آيات للمؤمنين ، ويمكن القول " إنّ الحذف في الآية الكريمة

(1) الكشاف : 134/4
(2) ينظر : البنى النحوية وأثرها في المعنى : 101
(3) الشورى : 7
(4) أساليب المجاز في القرآن الكريم (أطروحة دكتوراه) : 395
(5) الجاثية : 3 ـ4

يوحي بشمولية أكبر ... أي : إنّه أعطى للنص قوة إيحائية أكبر ، وذلك بما منحه إياه من الاتساع في التعبير "[1] .

ومنه قوله تعالى : ((تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ))[2] ، إذ حذف لفظ (حديث) المضاف إلى لفظ الجلالة ، أي : " فبأي حديث بعد حديث الله والقرآن وآياته يصدّقون ، وبأي كلام ينتفعون "[3]، فحذف وأقيم المضاف إليه (لفظ الجلالة) مقامه . وفيه دلالة على هول ما يرتكبون ، من تكذيبهم حديث الله وآياته باستبدال إتيان حديث الله بإتيانه بالذات ، على معنى أنّ التكذيب بآيات الله (سبحانه) ، التي تمثّل كلامه (سبحانه) ، هو تكذيب لذاته المقدسة ، مما يعظّم الشعور لدى المتلقي بعظمة ما يفعلون وهوله . وهو من الأساليب المتعارف عليها في القرآن الكريم ، في معظم ما يستعمله من أساليب حذف المضاف وإبقاء المضاف إليه في موضعه[4].

ومنه أيضاً قوله تعالى : ((إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ))[5]، بمعنى : من عذاب الله ، فحذف المضاف لتحقيق الاتساع في المعنى ، فهم لن يغنوا عنك من الله على وجه العموم لا خصوص عذابه ، فالخطاب موجه إلى الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ، الذي يعرف الله (سبحانه) حقّ معرفته ، ويتلذذ بحبّه وبالقرب منه ، فهو (سبحانه) مصدر العذاب والرحمة ، والقرب والبعد ، والنعمة والبلاء ، فجاء الخطاب مراعياً حال المتلقي ، متفاعلاً معه ، مدركاً حقيقة نفسه ، فليس عذاب الله مدار عناية رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ، بل حبّه والمكانة لديه هو ما يليق بعبادته ، التي هي عبادة الأحرار .

---

(1) الدلالة القرآنية عند الشريف المرتضى : 248
(2) الجاثية : 6
(3) مجمع البيان : 91/9
(4) ينظر : تفسير من وحي القرآن : 135/4 ، والبحث الدلالي في تفسير من وحي القرآن (أطروحة دكتوراه) : 112
(5) الجاثية : 19

حذف المبتدأ :

ومن حذف الاسم في هذه السور الكريمة حذف المبتدأ (المسند إليه) ، الذي وسمه النحويون بالعمدة في الكلام ، لتوقف فائدة بنية التركيب النحويّ عليه ، لكونه ركناً رئيساً فيه ، يكوّن مع الخبر تركيباً اسمياً تام الطرفين ، لأن التركيب لا يمكن أن يستغني عن وجود الركنين معاً ، وهو مبدأ اللابدّية[1]. " إلّا أنّه قد توجد قرينة لفظية أو حالية تغني عن النطق بأحدهما ، فيحذف لدلالتها عليه ، لأنّ الألفاظ إنّما جيء بها للدلالة على المعنى ، فإذا فهم المعنى بدون اللفظ جاز أن لا تأتي به ... "[2] ، مما يكسب الكلام قوة وجمالاً ، ويُحترز به من العبث . ومن حذفه قوله تعالى : ((مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاء فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ))[3] ، فحذف المبتدأ ، وتقدير الكلام : فالعمل الصالح لنفسه ، وهو يحذف كثيراً بعد فاء جواب الشرط ، لدلالة ما تقدّم عليه في جملة الشرط ، [4] . ولا يخفى ما في هذا الحذف من الإيجاز الرابط للكلام ، الذي يوحي بقرب الجزاء من دون فاصل زمنيّ ، وكأن جزاء العمل ـ صالحاً كان أم طالحاً ـ سريع الوقوع ، وهو ما يتناسب مع الفلسفة الإلهية التي تتجاوز الزمان ، قال تعالى :((قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ۞قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلْ الْعَادِّينَ۞ قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلاً لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ))[5] . زيادة على ما فيه من تلازم واختصاص ، فالجزاء مختص بصاحب الفعل عائد عليه . وفيه دلالة عن غنى الله (عزّ وجل) عن عمل العباد ، وعلوه من أن يضيره سوء فعلهم .

وقد تكررت ألفاظ الآية الكريمة ، ولكن مع الاختلاف في فاصلتها في قوله تعالى: ((مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاء فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ))[6] ، والسرّ في اختلاف الفاصلتين يرجع إلى السياق الذي جاءت فيه الآيتان الكريمتان ، فعندما كان الحديث مرتبطاً بإنكار يوم البعث في سورة الجاثية ، ختمت به (ترجعون) ، فالصلاح في العمل ، أو

---

(1) ينظر : نحو القرآن : 18 ، وينظر : البنية الأسلوبية في التراكيب النحوية : 178
(2) شرح المفصل : 182/1
(3) فصلت : 46
(4) الفتوحات الإلهية : 74/4
(5) المؤمنون : 112- 114
(6) الجاثية : 15

الإساءة فيه مرتبطان بالجزاء الغيبي (يوم القيامة) ، ترغيباً وترهيباً . أمّا في سورة فصّلت فالكلام عام في ارتباط الجزاء بالفعل ، حسّياً في الحياة الدنيا ، وغيبيّاً في الآخرة ، وأن الله (سبحانه) لا يضع شيئاً من عقوبات عباده ، أو تفضّله عليهم ، في غير موضعه ، بل هو العادل المتفضّل الذي يجزي كلّ عبد بما كسبت يداه .

ومن حذف المبتدأ قوله تعالى : ((وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ۞ إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ))[1] ، إذ يحذف بعد القول كثيراً ، لدلالة ما تقدّم عليه[2] ، أي : هو ساحرٌ كذاب ، فحقق هذا الحذف بعداً دلالياً عميقاً ، يعكس الشعور النفسي الذي يملأ قلوبهم تجاه النبيّ المرسل إليهم ، ورسالته ودعوته ، فحذف المبتدأ هنا إنّما هو ترجمة لرفضهم وعدائهم له إلى حدّ الإصرار على محوه ومحو ذكره ، عداءً واستخفافاً واستصغاراً . وفي إيجاز الحذف في هذا الموضع إشارة خفيّة إلى تسرّعهم واستعجالهم في وصف نبيّهم بالسحر والكذب ، من دون تفحّص ولا تدبّر . يدفعنا إلى القول بذلك وصفه بالسحر ذمّاً ، على الرغم من أنّ السحر ممدوح لديهم ، فإذا قالوا ساحر فهم "يعنون بذلك يا أيّها العالم ، وكان الساحر عندهم عظيماً ، يعظّمونه ، ولم يكن صفة ذمّ"[3] ، وهو يدلّل على عدم تفكّرهم ، واستعجالهم بالوصف ، مع الإيماء إلى عظيم ما جاء به من فعلٍ أبهتهم ، فلا يستطيعون معه إلّا الوصف بالسحر والكذب على سبيل المبالغة . وقد تكون الدلالة السابقة متعلّقة بالكلام على ألسنتهم ، فهم أصحابه وهم ناطقوه ، أمّا فيما يتعلّق بالمتلقي على وجه العموم ، ومراعاة الخطاب القرآني له ، فقد تكون هناك إلماعة أخرى في العبارة القرآنية ، ترتبط بتنزيه النبي (عليه السلام) من أن ينطق اسمه ، أو ما يشير إليه على ألسنتهم ، تعظيماً له (عليه السلام) ، وتحقيراً لهم .

ومنه قوله تعالى : ((الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ))[4] ، فحذف المبتدأ (هو) ، وتوجّهت العناية إلى الخبر الذي يتصدّره الاسم

---

(1) غافر : 23 - 24
(2) ينظر : الوظائف الدلالية للجملة العربية : 62
(3) مجمع البيان : 9/ 63 ، وينظر : روح المعاني : 62/24
(4) الزخرف : 10

الموصول ، للتعجيل بذكره ، وجعله أول ما يطرق الأسماع ، تنبيهاً " على تفرّده تعالى بالقدرة الكاملة ، والنعمة الشاملة ، ليدلّهم على توحده سبحانه باستحقاق العبادة ، وتقرير لما سلف ، من كون جميع الموجودات الممكنة تحت قدرته وملكه ، المفصح عن اختصاص العزّة به سبحانه "[1] . ولأن المبتدأ غير منظور للاهتمام بذكره ، لاعترافهم به خالقاً في الآية الكريمة السابقة لهذه الآية ، ((وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ)) ، وإنكارهم توحيده ، فجاءت آيات التوحيد خبراً يتصدرها الاسم الموصول الذي يشير التعريف به إلى معروف لدى المخاطب ، لتخصيص انفراده (سبحانه) بالنعم ، وحثّ المتلقي من خلال هذه الآيات إلى توحيد مسدي هذه النعم .

ومن حذف المبتدأ قوله تعالى : ((فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ))[2]، أي : هذا بلاغ[3] ، فحذف المبتدأ ، وإيجاز الكلام ، وتجاور لبث النهار مع البلاغ ، ينسجم مع ما يرونه بغتة ، كأنه بعد ساعة من نهار لبثوا فيه ، مما يشكّل لدى المتلقي شعوراً بسرعة الأحداث وتلاحقها ، ينقل الصورة من شكلها التشبيهي المفترض بـ (كأن) ، الذي يتناسب مع الغيب الذي ينكره المعاندون ، إلى الواقع المؤكّد بوعد الله (سبحانه) ، الذي يقرّه المتلقي الأول للخطاب القرآني ، وهو الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) . وفيه تهديد ووعيد للمنكرين ، وتسلية للرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ، مما يشير إلى أنّ هذا الحذف كان وسيلة لتنويع الخطاب بما يناسب حال المتلقي ، فيزيد من توتّره ، بفعل عنصر المفاجأة الناتج منه ، ويدفعه إلى التركيز والتدبّر .

حذف الفعل :

ومن حذف الكلمة في هذه السور المباركة حذف الفعل ، الذي ارتفع فشكل مظهراً أسلوبياً في فعل القول ، فجاء محذوفاً بدلالة القرائن عليه ، ومنه قوله تعالى : ((إِنَّ الَّذِينَ

---

(1) تفسير أبي السعود : 162/4

(2) الأحقاف : 35

(3) ينظر : تفسير البغوي : 349/2

قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ))[1] ، أي : يقولون للمؤمنين عند الموت وعند مشاهدة الحق وفي القبر وعند قيام الساعة ألا تخافوا ...، وقد حذف فعل القول إيجازا ، للتنبيه على سرعة البشارة بالأمان والفوز ، مراعاة لحال المتلقي الذي ينتظر بلهفة وخوف وترقب من يدفع عنه أهوال الموقف . وفي هذا الحذف إلماعة إلى علاقة الملائكة بالأرواح الطيبة واستمرارها ، لأنّ "تلك العلائق ذاتية لازمة غير قابلة للزوال ، بل كأنّها تصير بعد الموت أقوى وأبقى ، وذلك لأن جوهر النفس من جنس الملائكة "[2] . ومما يدلل على ما قلناه ذكر فعل القول في خطاب الملائكة الموجّه إلى الكافرين ، كقوله تعالى : ((وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ))[3].

ومن حذفه في السياق نفسه قوله تعالى : ((الْأَخِلَّاء يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ۞ يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ))[4] ، فجملة النداء (يا عباد) مقول قولٍ محذوف بدلالة صيغة الخطاب ، أي : نقول لهم أو يقول الله لهم . والحذف فيه إيماءة إلى التشريف الذي يناله المتّقون[5]، تطييباً لقلوبهم ، وتبشيراً بالأمن والفوز العظيم . كما أنّ الموقف يتسق مع الإيجاز ، تبياناً لعلائق العباد بمعبودهم قرباً ورضىً ، ولحاجتهم في ذلك الموقف إلى تسريع وصول البشارة الإلهية . والواضح فيما سبق أنّ السياق ألزم العدول إلى حذف فعل القول ، وشحن المقام بالبشارة والنجاة والسلام ، ولفت انتباه المتلقي ـ وهو في خضم المواقف العصيبة ـ بأنه ليس من أهل هذه المواقف .

وفي سياق التهديد الوعيد جاء فعل القول محذوفاً في قوله تعالى : ((وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ))[6] ، أي يقال لهم : اليوم

---

(1) فصلت : 30
(2) التفسير الكبير : 106/27
(3) الأحقاف : 34
(4) الزخرف : 67 ـ 68
(5) ينظر : جامع البيان في تفسير القرآن : 57/25
(6) الجاثية : 28

تجزون[1]، فَعُدِل إلى نسق الحذف تنبيهاً إلى سرعة الجزاء والصيرورة إلى الله تعالى ، والترفع عن توجيه الخطاب لهم بالقول احتقاراً ، يضاعف من صورة الذلّ والهوان التي هم عليها ، فهم جالسون على ركبهم مستوفزين لا يخاطبون ، ولا ينتظرون طويلاً حتى تأتي الصيحة بهم إلى النار ، " والمستوفز هو الجالس على هيأة كأنّه يريد القيام "[2].

وعلى النسق ذاته قوله تعالى : ((وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْماً مُّجْرِمِينَ))[3]، إذ إنّ حذف القول[4]في خطابهم يومئ إلى أنّ وقت الحوار والقول قد مضى ، والموقف موقف جزاء وحساب ، لما اقترفوا من تكذيب آيات الله .

أمّا مقام الحوار والقول وجوابه ففي الآية الكريمة اللاحقة التي تحكي موقفهم في الدنيا ، فلا حذف لفعل القول ، ((وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنّاً وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ))[5] . ونلحظ جماليات العدول في السرد بين ذكر فعل القول وحذفه ، على وفق مقتضى الحال ، مع إيلاء المتلقي أهمية بالغة ، من حيث اختيار التراكيب ومستوياتها التي تتوافق وطبيعة مقام المتلقي لتمكين المعاني في ذهنه .

ومن حذفه قوله تعالى: ((يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ))[6] ، أي يقول الله : لمن الملك ، فلا أحد يجيبه ، فقد قهر الخلائق كلّهم وأماتهم ، فيقول الجبار مجيباً : لله الواحد القهّار[7] . وفي حذف القول في الموضعين إيماءة إلى أنّ الحوار ليس قائماً بين طرفين ، فالحيُّ واحد والمالك واحد ، والقائل واحد ، وبذا يكون الحذف متناسقاً مع الموقف الذي تتبين فيه حقيقة اليوم الذي ذكرته الآية الكريمة ، وهي ظهور ملكه وسلطانه تعالى على الخلق أجمعين ، ويتناسب مع الألفاظ التي سيقت في هذه الآية الكريمة ، " وفي توصيفه تعالى بالواحد القهّار تعليل لانحصار الملك فيه ،

---

(1) ينظر : المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز : 89/5 ، وتفسير ابن زمنين : 216/4
(2) تاج العروس : 168/8
(3) الجاثية : 31
(4) ينظر : معاني القرآن وإعرابه : الزجاج : 435/4 والإعراب المفصّل لكتاب الله المرتّل : 30/11
(5) الجاثية : 32
(6) غافر : 16
(7) ينظر : تفسير نور الثقلين : 502/4

لأنه إذ قهر كلّ شيء ملكه ، وتسلّط عليه ، بسلب الاستقلال عنه ، وهو واحد، فله الملك وحده "[1].

حذف الجملة :

ومن صور الحذف التي وردت في سور الحواميم حذف الجملة ، ولا سيما جملة الشرط ، التي تحذف إذا كانت معلومة بما يدل عليها من متقدم خبرٍ أو مشاهدة حال[2] . ومنه قوله تعالى : ((وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ))[3] ، فحذف جواب الشرط الشرط لدلالة جواب القسم عليه ، وهوقوله : إنّ ذلك ... [4]، وهذا الحذف يتواشج مع أساليب التعظيم الواردة في الآية الكريمة ، ومنها استعمال اسم الإشارة للبعيد تعظيماً ، وعدّه من عزائم الأمور مجازاً ، لأنّ " العزم والجد لأصحاب الأمر ، وإنّما يسندان إلى الأمر إسناداً مجازياً "[5]. زيادة على أنّ الوصف بالمصدر يكون للمبالغة في تحقّق المعنى، المعنى، وتأكيد ذلك بـ (إن) وباللام ، فجاء الحذف للمبالغة في تعظيم فعل الصبر والمغفرة ، ومن اتصف بهما ، إذ حقق إيجاز الحذف تواشجاً في ألفاظ النص القرآني ، يوطّن نفس المتلقي على بلوغ أعلى وأرفع مراتب سمو النفس الإنسانية وتسامحها ، لأن ترك الانتصار للنفس بالقول أو الفعل والصبر على الأذى ، والصفح عنه ومغفرته أشق عليها ، ولا سيما أنّ الاقتصاص لا يشكّل خروجاً عن المعايير الشرعية ، قال تعالى : ((وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُوْلَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ))[6] ، ولكنّه لا يرقى إلى أفضلية العفو التي ترتبط بأعلى مراتب البرّ والتقوى ، لذا جاء الجواب مذكوراً مع الاقتصاص ، ومحذوفاً مع العفو ، " وإنّما يحذف لقصد المبالغة ، لأنّ السامع مع أقصى تخيّله يذهب منه الذهن كلّ مذهب ، ولو

---

(1) الميزان : 138/17
(2) ينظر : كتاب سيبويه : 453/1 ، والمقتضب : 81/2 ، ومعاني القرآن : 105/4
(3) الشورى : 43
(4) ينظر: البحر المحيط : 500/7
(5) الكشاف : 4/ 327
(6) الشورى : 41

صرّح بالجواب لوقف الذهن عند المصرّح به ، فلا يكون له ذلك الوقع ، ومن ثم لا يحسن تقدير الجواب مخصوصاً إلّا بعد العلم بالسياق "[1] .

ومن حذف جواب الشرط قوله تعالى : ((قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ))[2]، أي : أفلستم ظالمين[3] ، فحذف الجواب حقق الوصول إلى نتيجة مع حبكة ، وإن تكن بسيطة ، تشكّلت من الأسلوب الحواري القائم على الجدل والمحاججة ، الذي بنى عليه الشرط ، من خلال العطف عليه ، فاستُكمل إيصال المتلقي ، بترابط الحجج المتتالية ، إلى أنّ هؤلاء قد استحكم الظلم على نفوسهم ، فمنعهم عن الاستماع لصوت الحق ، فلا حاجة عندئذٍ لإيراد الجواب الذي لا يشكّل العلة الرئيسة التي يتوق المتلقي لسماعها ، فعُدل عنها ، وجيء بالأصل الذي أثبت ـ ومن دون جدل وبأسلوب مؤكد ـ أنّهم لا يهتدون لأن الله (سبحانه) لم يوفقهم لذلك بظلمهم . ويلمح في هذه الآية الكريمة إيقاع العرض السريع المتلاحق ، في ترتيب يلائم الجوّ النفسي للمتلقي ، الذي يتسم بالعناد والإصرار على الكفر والاستكبار ، فجاء كسر النسق الأسلوبي من خلال حذف جواب الشرط ، مفضياً إلى التوتر الذي ينسجم مع فاصلتها التي ختمت الحوار بعلة كفرهم واستكبارهم .

ومنه قوله تعالى : ((فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ))[4] ، فجواب الشرط (فإلينا يرجعون) متعلق بنتوفينّك ، أمّا جواب نُرينّك فمحذوف ، تقديره : فإنّا عليهم مقتدرون[5]. وبعيداً عن التقديرات ، يبدو أنّ في إشراك المتعاطفين بجواب واحد تهويلاً في التهديد والوعيد ، فالعذاب المرتبط بالدنيا ، نتيجة الحرب ـ وإن كان شديداً ـ غير منظور له ، بالقياس مع ما ينتظرهم من عذابٍ أليمٍ أبديّ لا خلاص منه . فجاء سياق الخطاب القرآني باستعمال الحذف على وفق حال المتلقي ،

---

(1) البرهان في علوم القرآن : 183/3
(2) الأحقاف : 10
(3) ينظر : تفسير الثعالبي : 150/4 ، والبرهان في علوم القرآن : 182/3
(4) الزخرف : 41
(5) ينظر : الكشاف : 98/4 ، وتفسير الجلالين : 651/1 ، وتفسير السعدي : 766/1

فالمخاطب الأول ، وهو الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ، قد تحقق له الأمن والطمأنينة والمواساة والتسلية وتثبيت الفؤاد ، على حين كان للمتلقي الثانوي ـ وهم المشركون ـ أسلوب التهديد والوعيد ، باستعمال المفاجأة بإحالة ذهن المتلقي إلى غير المتوقع ، إذ كان ينتظر الإشارة إلى أهوال العذاب التي رآها في الحرب ، فتنقله العبارة القرآنية إلى أجواء أخرى ، مرتبطة بأصل الدعوة وهي المعاد ، وما ينتظره فيه من أهوال. وقد تعزّز أسلوب التهويل بحذف جواب الشرط بأدوات لغويّة أخرى ، هي التوكيد الذي رافق الجمل القرآنية في الآية الكريمة من بدايتها إلى الفاصلة القرآنية ، (إنّ ، ونون التوكيد ، والتقديم) . زيادة على حركية الأفعال المضارعة التي تتنفس الزمن الحاضر والمستقبل ، مما يحمل المتلقي المنكر، الذي ارتبط به الخطاب المؤكّد إلى تخيّل أنّ الأحداث قد وقعت .

الالتفات

أسلوب انمازت به النصوص العربية من المستويات العليا في أساليبها وفنونها ، وهو من سمات العبقرية العربية ومقدرتها الفنية ، وأساليبها البلاغية ، وملمح دقيق من ملامح النظرية اللغويّة الحديثة.

وقد أولاه البلاغيون اهتماماً كبيراً ، فمنهم من ضيق دائرته ، فربطه بحركة العدول في الضمائر ، بين التكلم والخطاب والغيبة وأثرها في المعنى فـ " هو انصراف المتكلّم عن المخاطبة إلى الإخبار ، وعن الإخبار إلى المخاطبة ، وما يشبه ذلك ، ومن الالتفات الانصراف عن معنى يكون فيه إلى معنى آخر "[(1)] . ومنهم من وسع دائرة الالتفات إلى أنساق عديدة شملت الضمائر ، ولكن تجاوزتها إلى أشكال أخرى ، فحقيقة الالتفات " ... مأخوذة من التفات الإنسان عن يمينه وشماله ، فهو يقبل بوجهه تارة كذا وتارة كذا ، وكذلك يكون هذا النوع من الخطاب من الكلام خاصة ؛ لأنَّهُ ينتقل فيها من صيغة إلى أخرى ، كانتقال من خطاب حاضر إلى غائب ، أو من خطاب غائب إلى حاضر ، أو من فعل ماضٍ إلى مستقبل ، أو من مستقبل إلى ماضٍ أو غير ذلك ... "[(2)] .

وبقطع النظر عن الاختلافات في مفهوم الالتفات ، وشموليته وانتمائه إلى أيّ من فنون البلاغة[(3)] ، فقد اتفقت الدراسات البلاغية والأسلوبية على أنّ هذه الظاهرة مرتبطة بالدلالة ، وبجماليات الأسلوب ، وأنها تشكّل عدولاً عن الأنماط التعبيرية المألوفة ، يلفت نظر المتلقي إلى معنى على قدر كبير من الرهافة والخفاء ، أو يدفعه إلى البحث عنه نتيجة للتغيّر الحادث في النسق اللغوي للخطاب ، " فانتقال منشئ الخطاب من صيغة إلى أخرى ، إنّما يحكمه المقصود المعنوي الذي رتّبه منشئ الخطاب في نفسه ، الذي جعل لإحدى

---

(1) علم البديع والبلاغة عند العرب : 7

(2) المثل السائر : 181/2

(3) ينظر : أسلوب الالتفات بين التراث والمعاصرة ، محمد بركات أبو علي ، المورد ، مج12 ، ع3 : 134 - 151

الصيغ في سياق ما رجحاناً على غيرها في تحقيق ذلك المقصد ، ... وعندئذٍ يصبح الانحراف عن النسق هو منتج الدلالة المقصودة وحاملها "[1] .

إنّ ربط الالتفات بالفائدة الدلالية التي يولدها التحوّل من سياق إلى سياق آخر ، ولا سيما في الضمائر، يؤدي إلى عدم ثبات التفسير في حالة واحدة ، وانفتاحه بحسب حركة المعنى النامية في النص ، مما ينعكس على تحريك ذهن المتلقي ، نحو استنباط المعنى المراد ، وحثّه على المتابعة والتفكير والربط بالعودة إلى أول التغيير ، ومحاولة الكشف عن أسراره ، فينتج عن ذلك تمكين المعنى في ذهنه وحصول الاستجابة ، لأن الكلام عندما ينطوي على عدول معين في أسلوب مخاطبته المتلقي يؤدّي إلى تحريك نشاطه وإيقاظه[2] .

وقد اشترط في تكوّن هذا الأسلوب أن يتحقّق اتحاد المعنى بين المنتقل عنه والمنتقل إليه ، أي أن يكون هناك مع كل صورة من صور الالتفات بديل في نظام اللغة ، يقبله السياق ويقرّه نظامها[3] . ومن خلال هذا الانتقال يتحقق في هذا الأسلوب عنصر المفاجأة ، فتغيير النمطية التركيبية للتشكيل النصّي ـ التي تعد منحى أسلوبياً ـ يضاعف عملية التأثير، على الرغم من أنّ النص القرآني جعل اللغة طيّعة له ، تؤدي دورها الأسلوبي سواء كانت من أبنية نمطية أم غير نمطية .

إنّ الذي يلفت النظر في هذا الأسلوب في القرآن الكريم ، أنّ أغلب الآيات الكريمة التي جاء فيها آيات مكية ، والقليل منها مدني ، التقت مع المكيّة في موضوعاتها التي عالجتها ، وهي موضوعات تتعلّق بالعقيدة ، والدعوة إلى التوحيد ونفي الشرك ، ووضع الأسس العامة التي يقوم عليها المجتمع ، وذكر قصص الأنبياء للتذكير والاعتبار ، وهي آيات غالباً ما تكون قصيرة ذات وقع نفسي تبعث الرهبة والخشية ، وتشعر بمعنى الجلال والجبروت[4] . ومنها آيات سور الحواميم المباركة ، التي شكّل أسلوب الالتفات فيها ظاهرة

---

(1) جماليات الالتفات ، قراءة جديدة لتراثنا النقدي : 907 ، وينظر : في تحليل النص الشعري : 68 , ومن أساليب التعبير القرآني : 93
(2) ينظر : الأصول المعرفية لنظرية التلقي : 69 ، والالتفات في القرآن الكريم ، (أطروحة دكتوراه) : 11
(3) ينظر : أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية : 38
(4) ينظر : أسلوب الالتفات بين التراث والمعاصرة (بحث) : 148 - 149

اعتمدت في الأساس على توظيف الضمائر في تشكيل إشارة إبلاغية وجمالية في آن واحد ، مستمدة من أهمية المرجعية الضميرية في حقول الدلالة القرآنية ، وعلاقتها بالتحول من سياق إلى آخر في إكمال حالتي التوقع وعدم التوقع ، وبذلك يصل الخطاب القرآني إلى قمة العملية الإبلاغية ، لإيصال المقاصد والتكاليف الشرعية . وأبرز أشكال التحول الضميري التي رصدناها في هذه السور الكريمة ، ترتبط بسياق الغيبة والانتقال منها وإليها ، والأكثر اتساعاً فيها التحوّل من التكلّم باتجاهها . ومنه قوله تعالى : ((فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ))[1] ، فالصورة الالتفاتية في الآية الكريمة تشكّلت من البنية السطحية المرتبطة بشكل التركيب المتحول من التكلم (بأسنا) إلى الغيبة (عباده) ، في إطار المحال إليه نفسه ، الله (سبحانه) ، وهذا التحوّل هو الأساس في التحليل الذي هو " منهج لغويّ يعتمد على رصد البناء الشكلي للصياغة ، وما فيه من إجراءات ساعدت على إنتاج الدلالة "[2] . وأول ما يلفت النظر في هذه الصورة وحدانية المحال إليه ، وهو ما يحقق تمكين المعنى الأساس في ذهن المتلقي ، وهو حتمية العذاب وشدته ، لأنه مرتبط بمرجعية واحدة ، وهو الله الذي أنكروا توحيده ، ولم يعترفوا بإلوهيته (سبحانه) . وهذا التوحّد في المشار إليه تحقّق مع اختلاف الضمائر ، مما أدّى إلى حدوث " تراكم وتكثيف بتعدد الأصوات ، وسيغدو النص حواراً يقام بين أكثر من صوت "[3] .

أمّا فيما يخص أساس الالتفات في الآية الكريمة ، وهو التحوّل من سياق التكليم (نا)، إلى سياق الغيبة (هاء الغائب) ، فقد أحدث إغناءً للبناء التركيبي ، كثّف صورة التهديد والوعيد ، بإضافة البأس إلى ضمير التكلّم الدال على العظمة ، فهو بأس مختص بالله (جلّ وعلى) ، لا يشابهه ولا يماثله بأس . وقد تناسق ذلك مع ثبوت تحقّق الوقوع الذي أفاده الفعل الماضي (رأوا) ، ومن ثم حدوث التحوّل إلى صيغة الغيبة مع إضافة العباد إلى ضمير الغائب ، للإشارة إلى تخصيص العبودية لله (سبحانه) ، على الرغم من إنكارهم

---

(1) غافر : 85
(2) أسلوبية الرواية : 62
(3) أسلوبية البناء الشعري ، دراسة أسلوبية لشعر سامي مهدي : 111

وكفرهم بها ، فالمعبود الذي أنكروه وكفروا به هو المستحق وحده للعبادة ، وهو القريب منهم ، فأنا المتكلم ـ (الله سبحانه) ـ تتحدث عن نفسها بضمير الغيبة ، فتمحوا المسافة بين ذاته الفاعلة والذات المفعولة (العباد) محواً مذهلاً ، تتكشف عن حضورها من خلال الغيبة[1] .

إنّ تلوّن الخطاب من ضمير التكلّم مع البأس ، إلى ضمير الغائب مع العبودية ، قد يكشف قصدية تغيير الخطاب تبعاً لتغيير الاتجاه النفسي للمتلقي ، ومقتضى الحال ، وهو ديدن أسلوب الالتفات ، فعندما كان الحديث عن البأس الذي لا ينفع معه الإيمان مرتبطاً بحال أولئك الذين رأوه وأيقنوا عدم الخلاص منه ، جاء بصيغة التكلّم ليتناسق مع هول الموقف الذي هم فيه ، وكأن الغضب الإلهي محيط بهم ، فلا خلاص لهم منه ، وعند الانتقال إلى صيغة الغيبة ، كان الخطاب عاماً يشملهم ويشمل غيرهم ، فينسجم الغائب مع الغائبين ـ فتتحقق شمولية سنة الله ، وبذلك يكون سياق التحوّل قد خضع لعمليات الاختيار ، من جانب مرسل الخطاب لتعديل الدلالة ، وهي عملية تتعلق بالأسلوب ، لأنه " محصلة مجموعة من الاختيارات المقصودة من بين عناصر اللغة القابلة للتبادل "[2] .

وفي هذا النسق من الالتفات يطالعنا قوله تعالى : ((إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ۝ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ۝ أَمْراً مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ۝ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ))[3] ، فقد تشكّلت الصورة الالتفاتية في النص القرآني الكريم من سياق التكلم (إنّا ، أنزلناه ، كنّا ، عندنا) ، وسياق الغيبة ، لفظ الربّ مضافاً إلى الضمير (ربّك) ، وضمير الغيبة العائد عليه سبحانه (إنه هو) ، وكان السياق النمطي يفترض أن يقول : رحمةً منا إني أنا السميع العليم ، ولكن عدل الخطاب القرآني إلى إشباع السياق بحركة التحوّل الضمائري ، لإحداث مخالفة سطحية ، أدت إلى تلوين الصورة بقصد التأثير

(1) ينظر : النص القرآني من الجملة إلى العالم : 47 - 48
(2) علم الأسلوب ، مبادئه وإجراءاته : 102
(3) الدخان : 3 - 6

في المتلقي وجذب انتباهه ، " ولو كان أسلوب القول على نهج واحد ، لم يكن له هذا الوقع وهذا التأثير "[1] .

إنّ استعمال سياق التكلّم في الصورة الأولى ينبئ عن عظيم ما أنزل ، وعظيم الليلة التي أنزل فيها ، لذا كانت الأفعال المعبّرة عن حركة الإنزال وما يرتبط بها ، من إنذار وتدبير ، مسندة إلى ضمير التكلّم الدال على العظمة ، ومن ثم يتحوّل الخطاب إلى سياق الغيبة ، ليؤشر إلى العناية بالنبي ، وأن عظيم ما أنزل يرتبط بعظمة المنزل عليه[2] . وفيه تخصيص للخطاب بالرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) تشريفاً وتكريماً ، على أنّه (سبحانه) ربّك ، وأنت مبعوث رحمة للعالمين ، مما يقتضي أن يرسل الرحمة ، فجيء بلفظ الربوبية ليؤذن بأن الربوبية تقتضي الرحمة على المربوبين[3] .

إنّ تعدد الضمائر في الآية الكريمة بمرجعية واحدة ، له أثر أسلوبي مضاعف ، يسميه ابن الأثير الالتفات مراراً[4] ، له دور وظيفي على مستوى التركيب ، يخرق رتابة العناصر التركيبية ، فيؤدي إلى بلاغة الخطاب ، بالحدّ من ظاهرة التكرار في الخطاب ، زيادة على القيمة الجمالية التي يضفيها على النص .

وقد يكون الالتفات في هذا النسق على سبيل عدّ التحول من ضمير التكلم إلى الاسم الظاهر التفاتاً إلى الغيبة ، ومنه قوله تعالى : ((وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعاً وَأَبْصَاراً وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون))[5] ، فالسياق النمطي للآية هو : يجحدون بآياتنا ، فعدل عنه إلى خطاب الغيبة باستعمال الاسم الظاهر (لفظ الجلالة)، فكان طرف الصورة الالتفاتية الأول يتمثّل بسياق التكلّم بالضمير (نا) ، في (مكنّاهم ، مكناكم ، وجعلنا) ، ونرصد في هذا الطرف من الصورة نِعَم الله في التمكين والجعل ، ليدركوا

---

(1) المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع : 433
(2) ينظر : الميزان : 232/18
(3) ينظر : الإتقان في علوم القرآن : 229/2 ، وروح المعاني : 158/25 - 159
(4) ينظر : أسلوبية البناء الشعري ، دراسة أسلوبية لشعر سامي مهدي : 106 - 107 ، وعزف على وتر النص الشعري : 201
(5) الأحقاف : 26

ويسمعوا ويستجيبوا لآيات التوحيد ، وهي نِعَم وآيات عظيمة ، استوجب تعظيمها إسنادها إلى الضمير الدال على العظمة ، ولكنّهم جحدوا بها ، فانتقل الخطاب إلى سياق الغيبة بإظهار لفظ الجلالة مضافاً إلى هذه الآيات ، ليضفي عليها عظمة وتقديساً بتخصيصها على سبيل الملك لله ، بإضافتها إليه بلفظ جلالته (سبحانه) ، " لتربية المهابة وإدخال الروعة في قلوب السامعين "[1] ، ليتبين لنا مدى جرمهم بتكذيبها والجحد بها ، فحقق هذا التحوّل حركة في سياق الضمائر المتكرر في الآية ، مع بناء متتالية ذات تحاور مع السابق عليها واللاحق، وكأنّها أداة ربط تشدّ من وحدة النص ، وتعمل على صهر المتتاليات ، على الرغم من مستوياته المتعددة والمتداخلة[2] .

وفي سياق الغيبة نفسها ، ولكن بالتحوّل هذه المرّة منها (الغيبة) باتجاه التكلّم ، تشكّلت صورة التفاتية كان لها أثر في أسلوبية الخطاب القرآني في سور الحواميم ، ومنها قوله تعالى : ((فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاء أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ))(3) ، وموضع الالتفات هو التحول إلى سياق التكلم (زيّنا) ، بعد أن كان الكلام منساباً بمتوالية ضمائرية بصورة الغيبة (فقضاهنّ ـ وأوحى) ، في هذه الآية الكريمة ، وفي الآيات السابقة لها. إن هذه المتوالية الطويلة نسبياً التي استقرت على استعمال ضمير الغائب جعلت المتلقي يتوقع استمرارها ، ولا سيما أنّها تحوّلت إلى سبيكة متلاحمة العناصر بضمائر الفاعل المستترة ، التي ارتبطت بأفعال القدرة التي تذهل ذهن المتلقي العاجز أمامها ، فهي أفعال وجود من العدم قال تعالى : ((قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۞ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاء لِّلسَّائِلِينَ ۞ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ)) [4]، فيفاجئه الخطاب القرآني بالتحوّل إلى سياق التكلم ، ولكن مع فعل هو أقل إعجازا بالمقارنة

---

(1) روح المعاني : 94/3

(2) ينظر : أسلوبية البناء الشعري ، دراسة أسلوبية لشعر سامي مهدي : 110 - 111

(3) فصلت : 12

(4) نفسها : 9 - 11

مع ما سبقه ، فلا شكّ في أنّ خلق الكلّ (السماوات والأرض وما فيهما) أعظم من خلق الجزء (نجوم السماء) ، مما أدّى إلى تفعيل عملية التلقي ، وتمكين بؤرة المعنى الرئيسة في ذهنه، وهي أنّ هذه الأفعال دالة على قدرة فاعلها ، وعلى توحده في هذه القدرة ، مما يستوجب الامتثال إلى أمر توحيده وعبادته ، لا الكفر به ، لذا بدأت هذه الآيات باستفهام التعجب ((قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ)) . وفي الصورة الالتفاتية نكتة أخرى لا تقلّ أهمية وجمالاً عما ذُكر ، وهي أنّ الخطاب عندما ارتبط بأفعال خارجة عن الزمن الذي يدركه المتلقي ـ فهي غيبيّة بالنسبة إليه ـ كان ضمير الغائب يتسق مع حال المتلقي ، فغيبة الضمير تتسق مع غيبيّتها بالنسبة إليه . وعندما يصل الكلام إلى السماء التي يتجدّد فيها ظهور النجوم في كلّ ليلة ، وكأنّها تخلق من جديد ، يكون المتلقي أكثر تفاعلاً معها ، وبخاصة أنّ العقل مرتبط بالحسّيات متفاعل معها ، لذا كان التحوّل في الصورة الالتفاتية إلى ضمير التكلّم الدال على العظمة في (زيّنا) . زيادة على أنّ هذا التزيين كان نهاية الحجج التي ساقها الخطاب لإثبات التوحيد الأفعالي ، فعدل إلى سياق التكلّم بنون العظمة للاهتمام ولمزيد من العناية بالأمر[1]، ولا سيّما أنّ طائفة اعتقدت في النجوم أنّها ليست في السماء الدنيا ، وليست حفظاً ولا رجوماً ، فكان التعظيم بإسنادها إلى نون العظمة يرتبط بتثبيت الاعتقاد وتكذيب هذه الفرقة[2] .

ومن ذلك قوله تعالى : ((وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ))[3] ، فالآية الكريمة في سياق إثبات أصل عقدي أنكره الذين كفروا وهو المعاد ، فجاء الخطاب محاججاً بأسلوب التصوير ، فالأرض " كالناسك المتعبّد الخاشع ، يسوده جلال وهيبة ، وهذا يعطي الأرض صفة التذلل لربّها . إنّ قوة التصوير عن طريق التجسيد الحسّي الذي تقوم به هذه اللفظة ، تضع الصورة مجسّمة أمام العين الباصرة . هذا الخشوع والسكون سرعان ما يتحولان إلى حركة مثيرة تهزّ النفس ، وهذا التحويل تم عن طريق (اهتزت وربت) . إنّ هاتين

(1) ينظر : تفسير أبي السعود : 7/8 ، وروح المعاني : 487/24
(2) ينظر : البرهان : 321/3
(3) فصلت : 39

اللفظتين تعرضان صورة حية عن الأرض ، بعد أن كانت هامدة ميتة ، فينبعث فيها نفس الحياة ، وتهتز المخيلة ، لتدرك دقة هذا التصوير الحركي وأبعاده "[1] .

إنّ هذه الصورة المجسّدة تواشجت مع الصورة الالتفاتية المتشكّلة من التحول إلى ضمير التكلم في (أنزلنا) ، بعد أن كان السياق في إطار الغيبة (ومن آياته) ، الذي تناسق مع غياب الحياة عن الأرض ، وكأن غياب باعث الحياة يعني انعدام الحياة ، وبحضور لطفه وقدرته المتجسّد بحضور ضميره المشير إليه ، على سبيل التعظيم ، في الطرف الآخر من الصورة الالتفاتية المُتحوّل إليها (التكلم) ، تنبعث الحياة في الأرض الميتة مشيرة إلى قدرته على إحياء الأجساد الميتة ، ومن ثم إبرازها ليوم الحساب . فالصورة الالتفاتية يكون لها الأثر الكبير في تمكين المعنى في ذهن المتلقي ، وهذا المعنى أصل من أصول الدين ، وركن أساس من أركان الإيمان ، وهو فكرة غيبية ، لذا عمد الخطاب القرآني إلى أسلوب الالتفات الضمائري للتأثير في المتلقي ، لـ " أنّ التعامل مع منطقة الضمائر ، بكلّ تشكيلاتها المتعددة ، ووظائفها المختلفة ، يدفع المتلقي إلى حركة إيجابية "[2]، ولا سيّما إذا كانت الانتقالات المتعدّدة للضمائر مرتبطة بمرجعٍ واحد ، إذ تكسب النص عمقاً وكثافة في أكثر من مستوى[3] .

وفي السياق نفسه يطالعنا قوله تعالى : ((مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ۞ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِن بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ))[4] ، إذ تشكّلت في الآية الكريمة صورة التفاتية ، طرفها الأول سياق الغيبة المتمثّل بالحديث عن آيات الله وعن رسوله ، وقد بدأت هذه الصورة بحصر المجادلة لدفع الحقّ بالباطل ـ وهي المجادلة المذمومة ـ بالذين كفروا على سبيل رسوخ الكفر في قلوبهم ، فلا يُرجى زواله ، وعزّز صورة الإصرار على الكفر بذكر الأقوام الذين سبقوا بالإصرار عليه ، والتكذيب

(1) الإعجاز الفني في القرآن : 89 ، وينظر : الالتفات في القرآن الكريم : 84
(2) قراءات أسلوبية في الشعر الحديث : 144
(3) ينظر : أسلوبية البناء الشعري ، دراسة أسلوبية لشعر سامي مهدي : 108 ـ 109
(4) غافر : 4 ـ 5

وإيذاء الأنبياء ، فحلّ بهم العقاب . ومهد هذا الذكر للتحوّل إلى الطرف الثاني من الصورة الالتفاتية (التكلم)، فتحقّق الإخلال بعنصر التوقع ، الذي خرج عن مساره المتشكّل في ذهن المتلقي ، فكانت المفاجأة التي أضافت عمقاً إلى الدلالة ، وساعدت على تكثيف المعنى وتمكينه ، " والنكتة فيه الإشارة إلى أنّ أمرهم في هذا الطغيان والاستكبار إلى الله وحده ، لا يدخل بينه وبينهم أحد بنصرة أو شفاعة ، كما قال : فصبّ عليهم ربّك سوط عذاب إن ربّك لبالمرصاد "[1] ، زيادة على أنّ الصورة الالتفاتية بطرفها الثاني قد ارتبطت بفعل الأخذ ، الذي أسند إلى ضمير التكلّم تعظيماً لأمر العقاب ، لأن من ينزل به يصير كالمأخوذ المأسور الذي لا يقدر على التخلّص[2] .

أمّا سياق الغيبة ـ ولكن باتجاه الخطاب ـ فهو متسع في لغة العرب بعامة ، وفي القرآن الكريم بخاصة[3]، ويرى ابن جني أنّ خصوصية كلام الله تعالى في تشكيل هذا النوع من الالتفات تتجاوز الاتساع والتصرّف ، بل هي لأمر أعلى وأهم من ذلك ، يتمثّل في بيان معانٍ دقيقة[4]. وهو ما يتسق مع النظرة اللغوية الحديثة لدور الصورة الالتفاتية في النصوص الإبداعية في إنتاج الدلالة ، فعملية تبادل الضمائر تؤدي إلى " تبادل الخواص الدلالية فيما بينها ، في نقط محدّدة ، يمكن أن يضيف عمقاً إلى الدلالة ، ويساعدنا على تكثيف البنية الجمالية المستترة وراءها "[5] .

ومما جاء منه في سور الحواميم قوله تعالى : ((أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ۞ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ۞ إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عَائِدُونَ))[6] ، فتشكلت الصورة الالتفاتية في الآية الكريمة من سياق الغيبة ، الذي يمثّل الطرف الأول للصورة الالتفاتية ، وقد تضمّن وصفاً لسلوكهم المنكر ، ابتدأ باستفهام إنكاريّ يرسّخ مفهوم إصرارهم على الكفر ، وقد اتسق خطاب الغيبة مع هذه الأوصاف ، وكأن الخطاب يرتفع

---

(1) الميزان : 133/17
(2) ينظر : التفسير الكبير : 162/7
(3) ينظر : الأمالي الشجرية : 117/1
(4) ينظر : المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها : 146/1
(5) جدلية الإفراد والتركيب في النقد العربي القديم : 181 ، والالتفات في القرآن الكريم : 33
(6) الدخان : 13 - 15

عن ذكرهم إلّا بصورة الغائبين ، احتقاراً وترسيخاً لبعدهم عن التذكير وعن المذكّر الحاضر بصفته الرسالية المبلّغة . ثم ينتقل الخطاب إلى الطرف الثاني من الصورة الالتفاتية ، وهو سياق الخطاب (إنّكم عائدون) المؤكّد بالجملة الاسمية المؤكّدة بـ (إنّ وباسم الفاعل الدال على الثبوت) ، ليشير إلى استحقاقهم التبليغ بعودتهم إلى العذاب ، فهو خطاب من مرسل ومتلقٍ يسمع ، وكأنّ ما كنتم تنكرونه أصبح واقعاً ، وصرت أخاطبكم فيه. وخطاب الغيبة لا يصلح ما دام الكلام في سياق إثبات الحقيقة الغيبيّة (المعاد) التي أنكروها ، لذا كان العدول إلى صورة الخطاب المباشر . وبهذا حدث جمع للغيبة والحضور ضمن نسق نصي واحد ، إذ تحرّك النصّ أولاً متحدثاً عن غائبين ، وعن علاقة هؤلاء الغائبين بمرشدهم ، ثم انتقل أخيراً إلى التحدّث عن حاضرين ، ومع هذه الانتقالة من الخفاء إلى الظهور يتعمق فهم المتلقي بالذي جهله الآخرون ، لأنّ " العدول في استعمال الضمائر برنامج أسلوبي يخطط له المرسل ، وليس مصادفة لغويّة مجانية ، لذلك ينبغي رصد كل التبدلات الطارئة على مسيرة الضمائر ، ومعرفة قدرتها على التوصيل والتعبير ، ومدى نجاحها ..في الوصول إلى الأهداف المرسومة لها "[1].

ومنه قوله تعالى : ((يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۞ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ))[2] ، إذ انتقل أسلوب الخطاب القرآني في الآية الكريمة من الغيبة (عليهم) إلى الخطاب (وانتم)، ويبدو جلياً لمن ينعم النظر في هذا التحوّل أنّه يومئ إلى تحوّل دقيق في دلالة النص القرآني، فالتحوّل في البناء الشكلي للصياغة ساعد على إنتاج الدلالة[3] ، إذ إنّ الخطاب القرآني في الطرف الأول من الصورة الالتفاتية (الغيبة) ، كان يشير إلى مفرداتٍ من نعيم الجنّة أعدها الله للمتقين ، ومع عظمتها التي أشار إليها قوله تعالى : ((وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ)) ، أي يتكامل فيها جميع المشتهيات النفسانية ، من مذوق ومشموم ومسموع

(1) تبادل الضمائر وطاقته التعبيرية (بحث) : 20 ، وينظر : أسلوبية البناء الشعري ، دراسة أسلوبية لشعر سامي مهدي : 106
(2) الزخرف : 71 - 72
(3) ينظر : قراءات أسلوبية في الشعر الحديث : 142

وملموس ، مما يتشارك فيه الإنسان وعامة الحيوان ، وما يختص به الإنسان من لذّة النظر (وتلذ الأعين) من جمال وزينة ، وفي هذين القسمين تنحصر اللذائذ النفسانية[1] ، إلّا أنّ الخشية من زوالها قد تقلق النفوس التي جرّبت زوال النعيم الدنيوي ، " فإنّ كلّ نعيم زائل موجب لكلفة الحفظ ، وخوف الزوال ، ومستعقب للتحسّر "[2] ، لذا انتقل الكلام إلى الطرف الثاني من الصورة الالتفاتية (الخطاب المباشر) ، ليمحو كلّ قلقٍ وخشية ، ويُتم اللذّة الروحية بالتبشير بالخلود ، وهنا يؤدي الالتفات الضميري وظيفته الأساس التي تتصل في أحد وجوهها بالاستجابة ، وهي تمكين المعنى في ذات المتلقي ، من خلال خلق أشكال فنية من تغييرات البنية اللسانية[3]. إنّ التبشير بالخلود الذي اختص به الخطاب القرآني في صورته الالتفاتية ، الذي جاء مؤكّداً بدلالة الجملة الاسمية على الثبوت ، يمثّل أعلى درجات اللذّة ، لأن الموت كان هادم اللذات في الحياة الدنيا ، فجاء الخطاب المباشر الذي هو " إخبار ووعد وتبشير بالخلود ، ولهم في العلم به من اللذّة الروحية ما لا يقاس بغيره ، ولا يُقدر بقدر "[4] . كما يؤشّر هذا الالتفات إلى وجه آخر من تمام اللذّة والنعيم ، وهو الأنس بالخطاب ، خطاب الله (سبحانه) ، أو خطاب ملائكته ، الذي يمثّل أعلى درجات لذة المؤمنين ، وبخاصة أنّ الخطاب القرآني هدّد به المنحرفين ، قال تعالى : ((إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)) [5]. ومن تمام اللذّة دفع الوحشة بالخطاب المباشر الذي يدخل الاطمئنان قلب المخاطب .

وفي سياق الغيبة ـ ولكن بالالتفات إليها من الخطاب ـ تطالعنا آخر صور الالتفات في سور الحواميم ، فنقف عند قوله تعالى : ((وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ۩ فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا

---

(1) ينظر : الميزان : 226/18
(2) التفسير الصافي : 407/6
(3) ينظر : الأصول المعرفية لنظرية التلقي : 61 - 63
(4) الميزان : 227/18
(5) آل عمران : 77

فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ))[1] ، إذ يبرّز لنا النص القرآني سياقين يمثلان طرفي الصورة الالتفاتية ، الأول سياق الخطاب الذي ارتبط بتبيان أصل من أصول الدين ، وهو توحيد العبادة ، الذي يشكّل مرتبة من مراتب التوحيد ، وهو ضرورة من ضرورات الدين[2]، كانوا يكفرون به ، فيشركون بالله بالسجود لموجودات ، هي آيات تدل على قدرته ووحدانيته ، فجاء الخطاب المباشر ناهياً عن هذا الفعل المنكر ، (لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ) ، آمراً بفعل عظيم يمثل أصل الأديان (اسجدوا لله) ، وكلا الأمرين عظيمان ، استوجبا خطاباً مباشراً ، كوّن إيحاءً قويّاً بالحضور ، حضور الباث القادر الغنيّ ، الذي يُوجّه أوامر لمتلقٍ منكر ضعيف ، فينقطع السياق منتقلاً إلى الطرف الثاني من الصورة الالتفاتية (الغيبة) ، لتنتقل الدلالة مع هذه الصورة انتقالاً عجيباً يعطي إشارات متعددة ، لأنّ التعدد المحتمل لدلالات الصورة الالتفاتية ، إنّما يرتبط باستعمال الضمائر في النص ، التي تمثل عنصراً أساساً من مكونات البناء النصي ، فالتركيز على ضميرٍ ثم التحول إلى ضمير مباين ، يتطلب من المتلقي الانفتاح الدائم مع النص ، وأن يكون واعياً بحركة المعنى النامية فيه ، من جرّاء الانتقال من ضمير إلى آخر ، يرتبط معه بأنساق قد تكون شبه ثابتة ، إلّا أنّه يوحي بدلالات مختلفة تشعّها حركة التحوّل[3]. ومنها أنّ غيابهم في الخطاب يؤشر إلى غيابهم على مستوى الاستجابة للأوامر الإلهية في النهي والأمر اللذين تضمنتهما الآية الكريمة . ومنها الإيماء إلى الافتقار والاستصغار والترفع عن خطاب من لا يستجيب لله (سبحانه) بعد نهيه وأمره نُصحاً وإرشاداً . ولعل أبرز إيماءات الصورة الالتفاتية وبؤرتها الرئيسة ، تتمثّل بغنى صاحب الخطاب عن استجابتهم ، " فإن استكبروا ولم يمتثلوا ما أمروا به وأبو ... فدعهم وشأنهم ، فإنّ الله عزّ سلطانه لا يعدم عابداً ولا ساجداً بالإخلاص ، وله العباد المقرّبون الذين ينزهونه بالليل والنهار عن الأنداد "[4].

(1) فصلت : 37 - 38
(2) ينظر : بحار الأنوار : 171/94
(3) ينظر : في تحليل النص الشعري : 59
(4) الكشاف : 115/4 ، وينظر : الميزان : 170/17

ومنه قوله تعالى : ((وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنّاً وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ۝ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون))[1] ، فالآية الكريمة تتحدث عن أصل آخر من أصول الدين ، يتسم بالطابع الغيبي (المعاد) ، وكان من الأسس الإيمانية التي رُكِز عليها في رسالات الأنبياء ، فضربت الأمثال لإثباتها ، وسيقت الأدلة الحسّية والغيبية لحث المتلقين على الإيمان بها ، فجاء الخطاب في الآية الكريمة في أثناء الحوار والجدل ، لإثباته مباشراً بالرفص والتشكيك ، (قلتم ما ندري ما الساعة) ، ولعل النكتة التي أبرزها الطرف الأول من الصورة الالتفاتية ، هي إثبات المسؤولية الكاملة التي يتحملها الرافضون ، من خلال إصرارهم على الإنكار ، هذه المسؤولية التي يشير إليها الخطاب المباشر الصادر عنهم أيضاً ، وكأنّه تمهيد للتحوّل إلى الجزاء المستحق نتيجة كفرهم ، الذي يُبرّزه سياق التحوّل إلى الغيبة (وبدا لهم ، وحاق بهم) ، إذ يظهر إنزالهم عن رتبة الخطاب ، مدى جرم ما عملوا ، فأحاط بهم من غير خلاص .

إنّ سياق الغيبة ، المشير إليهم ، يوحي بعدم استحقاقهم رتبة الخطاب ، التي استنفذوها في الحياة الدنيا إنكاراً وكفراً ، فالغياب على مستوى الخطاب يومئ إلى تركهم وما عملوا ، وقد أحاط بهم ، فلا خطاب ولا جدل ولا عذر ، إنّما هو الحساب ، " وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤون ، يعني نزل بهم العذاب ، ووجب عليهم العذاب ، باستهزائهم أنّه غير نازلٍ بهم "[2]. وهذا التحوّل الالتفاتي في تصوير الأحداث ، إنّما يرتبط ارتباطاً وثيقاً بحال المتلقي ، لجذب انتباهه وترك الأثر في نفسه ، ليزداد توتراً ودهشةً ، فيدفعه للبحث عن سرّ هذا التحوّل[3]، وفي الآية الكريمة ـ من خلال الصورة الالتفاتية ـ حالان للمشار إليهم بالضمير ، حال متكبّرة مجادلة منكرة ، وحال أخرى ذليلة منسية غائبة مع حضورها ، أحاط بها سوءُ فعلها ، وهذا الأسلوب في إبراز الشخصية المتحدّث عنها ، يُعد سمة من

(1) الجاثية : 32 - 33
(2) تفسير السمرقندي : 269/3
(3) ينظر : الفن القصصي في القرآن : 290

سمات الخطاب القرآني ، إذ إنّه يُظهر الشخصية التي يتحدث عنها على وفق المؤثرات الداخلية والخارجية التي تتعرض لها[1].

وفي النسق نفسه قوله تعالى : ((ذَلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُواً وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ))[2]، فبعد إلقاء الحجة بالخطاب المباشر الذي ذكرهم أنّ ما يجري عليهم بسبب تكذيبهم واستهزائهم وغرورهم ، وهم واقفون في محكمة العدل الإلهي ، التي يقتضي الوقوف فيها خطاباً ، يتبين من خلاله جرمهم الذي استحقوا العذاب بسببه ، وقد تحقّق هذا بالطرف الأول للصورة الالتفاتية . ينتقل الخطاب إلى الغيبة في الطرف الثاني للصورة الالتفاتية ، مشيراً بغيابهم على مستوى الخطاب إلى استحقارهم وذلتهم ، فبعد أن تمّت الحجّة عليهم بالخطاب سقطوا عن رتبته ، وغابوا منسيين ، " والالتفات إلى الغيبة للإيذان بإسقاطهم عن رتبة الخطاب استهانة بهم أو بنقلهم من مقام الخطابة إلى غيابة النار "[3]. والخطاب في هذه الآية الكريمة جاء على مستوى الوقوف للحساب ، على حين كان في الآية الكريمة السابقة في الدنيا ، للإشارة إلى أنّ استهزاءهم حصل في الدنيا وهم أهلها[4] .

---

(1) ينظر : سيكولوجية القصة في القرآن الكريم : 369
(2) الجاثية : 35
(3) روح المعاني : 2/26
(4) ينظر : التحرير والتنوير : 376/25

خلاصة

بأهم نتائج البحث

أهمّ نتائج البحث

ـ انمازت سور الحواميم القرآنية بخصوصيات جامعة على مستوى الشكل والمضمون ، تعكسها البنيتان الصرفية والتركيبية لها ، تدفــع إلى القول بعلاقتها مع بعضها ، وتمثيلها مرحلة من مراحل الدعوة الإسلامية ، تنماز بخطاب خاص وأســاليب لغوية معينة تتوافق مع المرحلة الفكرية التي يمر بها متلقي الخطاب ، وتؤشر إلى تطـور الصراع بين الإيمان والكفر وخصوصية أساليبه اللفظية والفكرية ، وهي المرحلة المكيّة الثالثة . إذ تعكس هـذه السور تطور المعاني التي أتت بها الدعوة الإسلامية ، وتطـور فعاليات الدعوة نفسها فـي مكّة ، وكيف حصـل تلقيها وقبولها ورفضها . وكـان الخطـاب فيها متمحوراً حـول الأسس في النزاع مـع الكافرين ، حول الجدل والاحتجاج على أسس الدين، من عقيـدة التوحيد ، والنبوة ، والكتاب والوحي ، والمعاد ، ومحاولة الإقناع ، بالترغيب والتخويف ، وبالتهديد والوعيد ، وبالإرشاد والتوجيه .

ـ شكّلت البنية الصرفية في سور الحواميم ظواهر أسلوبية متنوعة ، تتعلق بالأبنية المتعددة للمفردات ـ سواء أكانت أفعالاً أم أسماءً ـ واستعمالاتها في السياقات المختلفة ، إذ تبيّن من خلال البحث أنّ الأبنية الصرفية في هذه السور المباركة لها خصوصية مرتبطة بالمستوى الموضوعي الذي يشكّل بنية هذه السور .

ـ انطلاقاً من مفهوم أنّ الزيادة فــي المبنى تعني زيادة في المعنى ، كان للأفعال المزيدة الدور البارز في السياقات المتعددة في سور الحواميم ، من خلال تضمّنها المعاني الثابتة لمجرّدها ، زيادة على المعاني المتغيّرة والمكتسبة التي تحققها المورفيمات المقيّدة الملحقة بها ، وبخاصة إذا كانت هذه الزيادة أصواتاً لها أثر على المعنى أو توحي به .

ـ كانت صيغة (أفعل) أكثر الصيغ الفعلية وروداً في سور الحواميم ، ويبدو أنّ كثرة ورودها مرتبطة بعلة تعدد معانيها أولاً ، وبقوة صوت الهمزة المرتبطة بصفاته وطريقة نطقه ، إذ تساوقت هاتان المزيتان مع تعدد موضوعات سور الحواميم وأهميتها ، ومع طبيعة الشخصية المعنية بالخطاب القرآني .

ـ إنّ معاني التدرّج والتكثير والتوكيد والمبالغة لصيغة (فعّل) أسهمت في ورودها في سياقات متعددة شملت معظم الموضوعات التي عالجتها سور الحواميم ، كالقرآن وتنزيله ، وبيان القدرة المرتبط بالتوحيد ومراتبه ، والتهديد والوعيد ، وغيرها .

ـ إنّ زيادة حرفين في صيغة (افتعل) حققت معاني عديدة ، أبرزها القوة في أداء معنى الفعل ، والشدة والمبالغة والتكثير . فجاء الاستعمال القرآني في سور الحواميم متوافقاً مع الدلالات البارزة لهذه الصيغة ، وفي سياقات متعددة ، تتسق مضامينها مع المعاني البارزة لهذه الصيغة ، ومنها سياق التهديد والوعيد ، والجحود والكفر والتكبّر ، والإرشاد والتوجيه ، والتبشير .

ـ إنّ دلالات المبالغة والتوكيد التي حققتها زيادة ثلاثة أحرف في صيغة (استفعل) تساوقت مع السياقات التي وردت فيها ، إذ برزت في سياق الاستغفار ، والطلب دعاءً وتضرّعاً ، والإرشاد والتوجيه ، والتهديد والوعيد ، ووصف أهوال يوم القيامة ، والترغيب والتبشير .

ـ فتح الصراع الذي تعكسه سور الحواميم المباركة ، بين الحق متمثلاً بآيات الله وحملتها (أنبيائه) ، وبين الباطل متجسّداً بالكافرين وادعاءاتهم ، فتح باباً واسعة لاستعمال الفعل المبني للمجهول ، إذ إنّ الفاعل الحقيقي (الله) مُنكر من المتلقين ، فينعكس هذا الإنكار في الخطاب القرآني ، يقابله اهتمام بالمتلقي (المفعول) المنكر من صاحب الخطاب (الله سبحانه) ، يظهر في صور مختلفة ، تهديداً ووعيداً ، وإرشاداً وتوجيهاً ، وترغيباً وتبشيراً، وغير ذلك .

ـ إنّ صفات الاسمية التي يتسم بها المصدر ، وعلاقته بالفعل ، قد أكسباه مرونة كبيرة دفعت إلى استعماله في مواضع عديدة ، وفي دلالات مختلفة ، وجعلت من السهولة بمكان أن يتناغم مع السياقات المختلفة . فكان لسعة دلالته وتصرّفه وتنوع أبنيته الأثر البارز في تحقيقه دلالات متنوعة اتسقت مع تلك السياقات .

ـ لا شكّ في أنّ ما يفيده المصدر من دلالة على الثبوت والتوكيد والاستغراق الزمني كان وراء تكرر ورود المصادر المجرّدة في سياقات تقتضي إثباتاً وتوكيداً ، على الرغم من عدم الاستفادة من معاني حروف الزيادة التي تجرّدت منها . لذا وردت في سياق إثبات القدرة الإلهية دليلاً من أدلة التوحيد ، وفي سياق تثبيت الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ومن معه ، وفي سياق تعظيم الحدث ، كعبادة الملائكة من دون الله ، واتباع الهوى ، وفي سياق التهديد والوعيد بحتمية الوقوف للحساب ، والترغيب والتبشير بحتمية قبول الطاعات والتجاوز عن السيئات .

ـ أمّا المصادر المزيدة فأضيف إلى دلالتها الوضعية السابقة دلالات حروف الزيادة ، لأنّ الأصل في البناء الدال على معنى زائد على بنائه المجرّد أن تكون فيه حروف زائدة تحمل هذه الدلالة ، علاوة على دلالته المعجمية . لذا وردت هذه المصادر في سياقات تقتضي إثباتاً وتوكيداً ، زيادة على الدلالات المستفادة من زيادتها كالتكثير والمبالغة وانتهاء الغاية والعدد والتدرج والتكثير .

ـ إنّ المميزات الاسمية والفعلية لاسم الفاعل جعلته عنصراً لغوياً مهماً في الاستعمال القرآني في سور الحواميم ، وأبرز هذه الميزات الجمع بين دلالتين ، دلالة الذات الاسمية ، ودلالة الحدث الفعلية ، على وجه نسبة ذلك الحدث إلى تلك الذات ، وهو بهذا يمثل تكثيفاً دلالياً ، وإيجازاً لغويّاً يغني عن تعدد الألفاظ . زيادة على ما تضفيه هذه السمة ـ أي الفعلية والاسمية ـ من الجمع بين دلالتي التجدد والثبوت وعدم تناقضهما . لذا كان لافتاً للنظر وروده في سياقات تقتضي الجمع بين هذه المعاني ، كوصف سلوك الكافرين وأحوالهم في الدنيا والآخرة ، وفي إثبات القدرة الإلهية ، وحتمية المعاد ، وغيرها .

ـ يبدو أنّ الدلالات المضافة إلى الحدث المجرّد في أبنية المبالغة تقف وراء محدودية استعمالها في سور الحواميم بالقياس مع اسم الفاعل والصفة المشبهة ، لأنّ هذه السور المباركة تنماز بثبوت خطابها وتأكيده ، ولا سيما في الموضوعات العقدية والغيبية التي تشكّل البنية الأساسية فيها ، لذا ينخفض استعمال الألفاظ التي يشارك الحدث فيها معنى

آخر ، كأبنية المبالغة ، لأنّه يؤدي إلى ضعف دلالتها على الحدث (المعنى) نسبياً . والدليل على ذلك اختلافها في درجة قوة المبالغة في المعنى تبعاً لاختلاف أبنيتها . وكان السياق الوحيد الذي مثّل استعمال أبنية المبالغة فيه ظاهرة بارزة في سور الحواميم سياق وصف حال الإنسان المستحق خطاب التعنيف والتهديد لإنكاره وحدانية الله (سبحانه) وشرائعه وأحكامه ، وهو الذي كان له النصيب الأكبر من خطاب هذه السور المباركة ، ويبدو أنّ الإلحاح باستعمال صيغ المبالغة في هذا السياق قد حقّق معنى تمكّن هذه الصفات من موصوفها وتلبّسها به ، إذ صدرت منه على وجه التكثير والمبالغة ، لذا استحق خطاب التعنيف والتهديد .

ـ إنّ الدوام والثبوت المستفاد من الصفة المشبهة تناسب مع الموضوعات التي طرحت في سور الحواميم ، لذا كانت عنصراً لغوياً بارزاً كثر استعماله ، وبخاصة في موضوعة العقيدة والغيب ، إذ تقتضي ثباتاً وتأكيداً في الخطاب ، ولا سيما إذا كان المتلقي منكراً أو خالي الذهن ، وهو الشائع في خطاب سور الحواميم . لذا وردت في سياق إثبات صفات الله، وأكثر ما ورد منها ما جاء على زنة (فعيل) ، لأنّها تفيد ثبوت الصفة بقدر كبير من الدوام والاستمرار .

ـ إنّ دراسة البنية التركيبية في سور الحواميم القرآنية كشفت لنا الترابط الوثيق بين أشكال التراكيب النحويّة المستعملة والسياق من جهة ، وبينهما وبين المتلقي من جهة أخرى ، لذا وجد البحث أنّ أنماطاً تركيبية خاصة مرتبطة بسياقات معينة ، وبمتلقي معيّن. كما أنّ حركة المفردات في الأشكال التركيبية تتسق مع الموضوعات الأساسية التي تشكّل بنية هذه السور المباركة .

ـ وجد البحث في آيات هذه السور الكريمة أنّ الجملتين الفعلية والاسمية قد استعملا في سياقات شكّلت خصوصية لافتة لكلّ منهما ، انطلاقاً من دلالتهما على التجدد والثبوت . ففي موضوعة التوحيد ، وجد البحث أنّ هاتين الجملتين قد تبادلتا التعبير عن هذه الحقيقة المقدسة، فعلى صعيد توحيد الذات المقدسة وتوحيد الصفات ، كانت الجملة الاسمية هي

المحور الأساس في التعبير عن هذه الحقائق التي أنكرها المشركون ، الذين ترسّخ في نفوسهم الشرك على صعيد تعدد الآلهة الذي كان شائعاً في معتقداتهم الوثنية . إذ شكّل هذا المعنى سياقاً ثابتاً في الأعم الأغلب في هذه السور الكريمة . أمّا على صعيد التوحيد الأفعالي أو توحيد الربوبية ، نجد أنّ الجملة الفعلية هي المحور التعبيري الأساس عن هذه الحقيقة . وكان الفعل الماضي - من خلال دلالته على الثبوت – مهيمناً على هذا المستوى (توحيد الربوبية) ، إذ دفع التعبير به الشبهات والشكوك بوجود مدبر وخالقٍ ورازق غيره (سبحانه) .

ـ حقّق أسلوب الاستفهام في سور الحواميم دلالات متعددة ، خرجت في الأعم الأغلب عن معناه النمطي ، وبخاصة في موضوعة الغيب ، إذ تصدّى الخطاب القرآني لها بأسلوب الإثبات ، بالاستفهام الذي خرج عن نمطية كونه طلباً لمعلوم يجهله السامع إلى تحقيق معانٍ عديدة بأسلوب أكثر تأثيراً في المتلقي ، كالإنكار والتعجّب والتقرير والتوبيخ والتمني والتنبيه .

ـ هيمنت أداة النداء (يا) على أسلوب النداء الوارد في سور الحواميم ، إذ كانت الأداة المتفرّدة . وأثبت البحث أنّ هناك انزياحات في استعمال النص القرآني لأسلوب النداء ، تجسدت بذكر أداة النداء أو حذفها ، أو باستعمالها لغير ما وضعت له من نداء البعيد ، في سياقات تبدو متناقضة ، من حيث مرسل النداء والسياق الذي قيل فيه .

ـ سخّر الخطاب القرآني في سور الحواميم الكريمة التقديم والتأخير بأشكال عديدة ، وصيغ مختلفة، حققت معاني دقيقة في السياقات القرآنية ، كشفت سمواً في أسلوب القرآن ، وحققت بعداً جمالياً جعل الكلام أكثر تأثيراً . وكان النمط التعبيري المرتبط بهذه الظاهرة ، الذي شكّل مهيمناً أسلوبياً على صعيد سور الحواميم على وجه العموم ، هو تقديم الجار والمجرور على بقية أركان الجملة القرآنية في هذه السور الكريمة .

ـ جاء الحذف في سور الحواميم بأشكال متعددة ، ابتدأت بأجزاء من الكلمة ، وامتدت لتشمل الكلمة والجملة ، وحققت دلالات متنوعة ، تناغمت مع تنوع موضوعات هذه السور الكريمة وسياقاتها .

ـ من أشكال الحذف الواردة في سور الحواميم حذف جزء من الكلمة ، إذ حذف حرف منها، لا لعلّة معيارية فرضتها القواعد المتعارف عليها ، بل لمزية أسلوبية تضفي بعداً دلالياً ، كانت فيه العبارة القرآنية ، مراعية لمقتضى الحال ، زيادة على البعد الجمالي المتحقق نتيجة الانسجام الصوتي من ذكر الحرف أو حذفه .

ـ إنّ أبرز أشكال حذف الكلمة التي تكرّرت في سور الحواميم هي حذف المفعول به ، إذ حقق حذفه دلالات عديدة ، منها الدلالة على العموم والشمول مع الاختصار ، والتهديد والتهويل ، والبيان بعد الإبهام ، وبخاصة في مفعول فعل المشيئة .

ـ من أشكال حذف الكلمة في سور الحواميم حذف المضاف ، إذ تحقق بحذفه تهويل على النفوس ، وتنشيط لخيال المتلقي ، وإثارة لانتباهه ، من خلال البعد النفسي لإيجاز الحذف ، تمثّل في التوسع بالدلالة الإيحائية ، مما أتاح المجال واسعاً لذهن المتلقي في التصوّر .

ـ تكشّفت بحذف المبتدأ دلالات متعددة اختلفت باختلاف مواضع حذفه ، إذ حقق في موضع إيجازاً رابطاً للكلام ، يوحي بقرب الجزاء من دون فاصل زمنيّ . وفي موضع آخر يعكس حذفه الشعور النفسي الذي يملأ قلوب الكافرين تجاه النبيّ المرسل إليهم ورسالته ودعوته، فحذف المبتدأ هو ترجمة لرفضهم وعدائهم له إلى حدّ الإصرار على محوه ومحو ذكره . أو قد يكون الحذف بقصد توجّـه العناية إلى الخبر للتعجيل بذكره ، وجعله أول ما يطرق الأسماع . أو أن يكون تهديداً ووعيداً ، أو تسلية للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) .

ـ ارتفع حذف فعل القول فشكل مظهراً أسلوبياً بارزاً ، وحقق دلالات متنوعة تنوع السياق الذي ورد فيه ، منها التنبيه على سرعة البشارة بالأمان والفوز ، مراعاة لحال المتلقي الذي ينتظر بلهفة وخوف وترقب من يدفع عنه أهوال الموقف . أو الإيماء إلى علاقة العابد بمعبوده قرببً ورضىً ، أو التنبيه على سرعة البشارة بالفوز العظيم ، أو التنبيه إلى سرعة

الجزاء والصيرورة إلى الله تعالى ، أو الترفع عن توجيه الخطاب بالقول احتقاراً ، أو الإشارة إلى انتهاء وقت الخطاب والقول بحلول زمن الحساب .

ـ هيمن حذف جملة جواب الشرط على صور حذف الجملة في سور الحواميم ، ومثّل إيجازاً سبب تواشجاً في ألفاظ النص القرآني. وحقق دلالات متنوعة ، كالمبالغة في تعظيم الفعل ومن اتصف به ، أو التهديد والوعيد باستعمال المفاجأة بإحالة ذهن المتلقي إلى غير المتوقع .

ـ شكّل أسلوب الالتفات في سور الحواميم ظاهرة اعتمدت في الأساس على توظيف الضمائر في تشكيل إشارة إبلاغية وجمالية في آن واحد ، مستمدة من أهمية المرجعية الضميرية في حقول الدلالة القرآنية ، وعلاقتها بالتحول من سياق إلى آخر في إكمال حالتي التوقع وعدم التوقع ، وبذلك يصل الخطاب القرآني إلى قمة العملية الإبلاغية ، لإيصال المقاصد والتكاليف الشرعية أبرز أشكال التحول الضميري التي رصدناها في هذه السور الكريمة ، ترتبط بسياق الغيبة والانتقال منها وإليها ، والأكثر اتساعاً فيها التحوّل من التكلم باتجاهها .

ـ إنماز جمع المذكر السالم في سور الحواميم باقترانه بالأوصاف المشتقة ، كاسم الفاعل واسم المفعول والصفة المشبهة وصيغ المبالغة ، خارجاً في الأعم الأغلب عمّا قيل فيه من دلالة على معنى القلّة ، إذ ورد دالاً على معنى الكثرة ، مشكّلاً من هاتين الناحيتين بروزاً استعمالياً يلفت النظر . ويبدو أنّ الخطاب الجمعي على هذا النسق يراد منه الاستفادة من المعاني والدلالات التي ترتبط بالأبنية المذكورة ، زيادة على ما يفيده الجمع من تركيز على الخطاب الجمعي العام الذي تزخر به هذه السور الكريمة .

ـ لم يمثّل جمع المؤنث السالم بروزاً استعمالياً يرتبط بسياق معيّن ، بل ورد في سياقات متعددة ومختلفة . ولكن ما يلفت النظر في شواهد كثيرة من سور الحواميم المباركة دلالته على الكثرة التي لم يثبتها اللغويون صفة من صفاته .

ـ ورد كثير من جموع التكسير في سور الحواميم ، في سياقات الوصف القرآني ، أو الخطاب الجمعي ، وهذه السياقات تحدد ـ من خلال القرائن المتوافرة ـ الدلالة المحتملة لهذه الصيغ الجمعية ، فالجمع بصيغه المتعددة يصلح للدلالة على القليل والكثير ، فلا يمكن الجزم بتحديدها على وفق الأوزان والأبنية ، وإنّما تتكشف هذه الدلالات من خلال السياق والقرائن المتعددة .

المصادر والمراجع

ثبت المصادر والمراجع

الكتب المطبوعة :

- القرآن الكريم

- ابن عصفور والتصريف : الدكتور فخر الدين قباوة ، دار الفكر ، دمشق ، ط3 ، 1999م .

- الآيات القرآنية المتعلقة بالرسول محمد (ص) ، دراسة بلاغية وأسلوبية : عدنان جاسم محمد الجميلي ، مطبعة هيأة إدارة واستثمار أموال الوقف السني ، بغداد ، ط1 ، 1430هـ - 2009م .

- أبنية الصرف في كتاب سيبويه : خديجة الحديثي ، منشورات مكتبة النهضة ، بغداد ، ط1، 1385هـ -1965م .

- الإتقان في علوم القرآن : جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت911هـ) ، تحقيق : سعيد المندوب دار الفكر ، لبنان ، ط1 ، 1416هـ- 1996م .

- أثر القرآن في تطور النقد العربي إلى أواخر القرن الرابع الهجري : د. محمد زغلول سلام ، دار المعارف بمصر ، (د.ت) .

- ارتشاف الضرب من لسان العرب : أبو حيان محمد بن يوسف بن علي الأندلسي (745هـ) ، تحقيق وتعليق الدكتور مصطفى أحمد النحاس ، مطبعة المدني ، القاهرة ، ط1 ، 1409هـ - 1989م .

- إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم : أبو السعود محمد بن محمد العمادي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، (د.ت) .

- أساس البلاغة : جار الله محمود بن عمر الزمخشري ، دار الفكر ، 1399هـ - 1979م .

- أساليب الاستفهام في القرآن الكريم : عبد العليم السيد فودة ، مؤسسة دار الشعب ، القـاهرة ، (د.ت) .

- أسس علم اللغة : ماريو باي ، ترجمة الدكتور أحمد مختار عمر ، منشورات جامعة طرابلس ، كلية التربية ، 1973م .

- أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية : الدكتور حسن طبل ، ملتزم للطبع والنشر ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، 1418هـ – 1998م .

- أسلوب الدعوة القرآنية بلاغة ومنهاجاً : الدكتور عبد الغني بركة ، مكتبة وهبة للطباعة والنشر , القاهرة , (د.ت) .

- أسلوبية البناء الشعري ، دراسة أسلوبية لشعر سامي مهدي ، أرشد علي محمد ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، ط1 ، 1999م .

- أسلوبية البناء الشعري ، دراسة في شعر أبي تمّام : الدكتور سامي علي جبار ، ط1 ، دار السياب للطباعة والنشر والتوزيع ، لندن ، 2010م .

- أسلوبية الرواية ، مدخل نظري : حميد لحمداني ، مطبعة النجاح الجديدة ، الدار البيضاء، ط1، 1406هـ - 1986م .

- الأسلوبية مدخل نظري ودراسة تطبيقية على شعر البارودي : الدكتور فتح الله أحمد سليمان ، المطبعة الفنية ، مصر ، 1990م .

- أسماء الله الحسنى ، دراسة في البنية والدلالة : الدكتور أحمد مختار عمر ، عالم الكتب بالاشتراك مع الهيأة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، (د.ت) .

- الأشباه والنظائر في النحو : جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت911هـ) ، راجعه وقدّم له الدكتور فايز ترحيني ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان ، ط1، 1404هـ -1984م .

- أصوات اللغة ، عبد الرحمن أيوب ، مطبعة دار التأليف ، القاهرة ، 1963م .

- الأصــوات اللغـوية : الدكتور إبراهيم أنيس ، مكتبة الأنجـلو المصــرية ، ط4 ،(د.ت).

- الأصوات اللغوية ، رؤية عضوية ونطقية وفيزياوية : سمير شريف استيتية ، دار وائل ، عمّان ، ط1، 1423هـ - 2003م .

- أصــول السرخسي : أبو بكر السرخسي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، 1414هـ - 1993م .

- الأصول المعرفية لنظرية التلقي : ناظم عودة خضر ، دار الشروق للنشر والتوزيع ، عمان ، الأردن ، ط1 ، الإصدار الأول ، 1997م .

- أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة : الدكتور نايف خرما ، عالم المعرفة ، سلسلة كتب يصدرها المجلس الوطني للثقافة والآداب والفنون ، الكويت ، 1987م .

- الإعجاز الصرفي في القرآن الكريم ، دراسة نظرية وتطبيقية للتوظيف البلاغي لصيغة الكلمة : عبد الحميد أحمد يوسف هنداوي ، المكتبة العصرية ، بيروت ، ط1 ، 1422هـ - 2001م .

- الإعجاز الفني في القرآن : الدكتور عمر السلامـي ، مؤسسات عبد الكريم عبد الله ، تونس ، قرطاج ، 1980 م .

- الإعراب المفصّل لكتاب الله المرتّل : بهجت عبد الواحد صالح ، دار الفكر للنشر والتوزيع ، (د.ت) .

- أقسام الكلام العربي : الدكتور فاضل الساقي ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، 1397هـ - 1977م .

- الألفاظ العربية والفلسفة اللغوية : جرجي زيدان ، بيروت ، 1886م .

- الألفاظ اللغوية خصائصها وأنواعها : عبد الحميد حسن ، معهد البحوث والدراسات العربية ، 1971م .

- الأمالي الشجرية : إملاء السيد الإمام العالم الأتقى ، ضياء الدين أبي السعادات هبة الله بن علي بن حمزة العلوي الحسني المعروف بابن الشجري (ت 542هـ) ، دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان ، (د.ت) .

- الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل : آية الله العظمى ناصر مكارم الشيرازي ، الأميرة للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان ، ط2 ، 1430هـ - 2009م .

- إملاء ما منّ به الرحمن من وجوه الإعراب والقراءات في جميع القرآن : أبو البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله العكبري (ت 616 هـ) ، دار مكتبة الهلال ، بيروت ، لبنان، (د . ت) .

- الانزياح من منظور الدراسات الأسلوبية : الدكتور أحمد محمد ويس ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر ، بيروت ، ط1 ، 1426هـ - 2005م .

- أنوار التنزيل وأسرار التأويل المعروف بتفسير البيضاوي : ناصر الدين بن محمد الشيرازي البيضاوي ، دار الفكر ، بيروت ، (د.ت) .

- أوزان الفعل ومعانيها : هاشم طه شلاش ، مطبعة الآداب ، النجف الأشرف ، 1971م .

- أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك : أبو محمد عبد الله جمال الدين بن يوسف بن أحمد بن عبد الله بن هشام الأنصاري (ت 761 هـ) ، تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد ، دار الندوة الجديدة ، بيروت ، لبنان ، ط6 ، 1980 م .

- الإيضاح في شرح المفصّل : أبو عمر عثمان بن الحاجب (ت646هـ) ، تحقيق الدكتور موسى بناي العليلي ، مطبعة العاني ، بغداد ، 1402هـ - 1982م .

- بحار الأنوار : العلّامة المجلسي ، مؤسسة الوفاء ، بيروت ، لبنان ، ط2 ، 1403هـ - 1983م .

- البحث الدلالي عند السيد محمد محمد صادق الصدر : الدكتور رحيم كريم علي حمزة الشريفي ، دار الضياء للطباعة والتصميم ، النجف الأشرف ، ط1 ، 428هـ - 2007م .

- بحث في صيغة (أفعل) بين النحويين واللغويين واستعمالاتها العربية : الدكتور مصطفى أحمد النمّاس ، مطبعة السعادة ، مصر ، 1403هـ -1983م .

- البحث النحوي عند الأصوليين : الدكتور مصطفى جمال الدين ، وزارة الثقافة والإعلام ، دار الرشيد للنشر ، بغداد ، 1980م .

- البحر المحيط : محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي ، تحقيق الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض ، شارك في التحقيق الدكتور زكريا عبد المجيد النوقي والدكتور أحمد النجولي الجمل ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 1422هـ -2001م .

- بحوث لغوية : الدكتور أحمد مطلوب ، دار الفكر للنشر والتوزيع ، عمان ، ساحة جامع الحسيني ، ط1، 1987م .

- البرهان في علوم القرآن : بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي (ت 794هـ) ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار الجيل ، بيروت ، لبنان ، 1408هـ - 1988م .

- بلاغة التراكيب : دراسة في علم المعاني ، الدكتور توفيق الفيل ، مكتبة الآداب ، القاهرة ، 1991م .

- البلاغة العربية في ثوبها الجديد (علم المعاني) ، الدكتور بكري شيخ أمين ، دار العلم للملايين ، 1399هـ -1979م.

- بلاغة الكلمة في التعبير القرآني :الدكتور فاضل صالح السامرائي ، دار عمار للنشر ، عمان ، ط1 ، 1420هـ -1999م .

- البنيات الأسلوبية في لغة الشعر العربي الحديث : مصطفى السعدني ، الاسكندرية ، ط1 ، 1987م .

- بنية اللغة الشعرية : جان كوهن ، ترجمة محمد الولي ومحمد العمري ، دار توبقال للنشر ، الدار البيضاء ، المغرب ، ط1 ، 1986م .

- البيان في روائع القرآن ، دراسة لغوية وأسلوبية للنص القرآني : الدكتور تمّام حسان ، عالم الكتب ، القاهرة ، ط2 ، 1420هـ - 2002م .

- تاج العروس من جواهر القاموس : محبّ الدين أبو فيض السيد محمد مرتضى الحسيني الواسطي الزبيدي الحنفي (ت 1205هـ) ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، 1414هـ - 1994م .

- التبصرة والتذكرة : أبو محمد عبد الله بن علي بن اسحاق الصيمري ، تحقيق الدكتور فتحي أحمد مصطفى علي الدين ، دار الفكر ، دمشق ، ط1 ، 1402هـ - 1982م .

- التحرير والتنوير : الشيخ محمد الطاهر بن عاشور ، دار سحنون للنشر والتوزيع ، تونس، 1997م .

- التحقيق في كلمات القرآن الكريم : العلّامة المصطفوي ، مركز نشر آثار العلامة المصطفوي ، طهران ، ط1 ، 1385هـ .

- التحليل اللغوي في ضوء علم الدلالة ، دراسة في الدلالة الصوتية والصرفية والنحوية والمعجمية : الدكتور محمود عكاشة ، دار النشر للجامعات ، القاهرة ، ط1 ، 1426هـ - 2005م .

- التسهيل لعلوم التنزيل : محمد بن أحمد بن محمد الغرناطي الكلبي ، دار الكتاب العربي ، لبنان ، ط4 ، 1403هـ - 1983م .

- التصريف الملوكي ، أبو الفتح عثمان بن جني (ت 392هـ) ، عُني بتصحيحه : محمد سعيد بن مصطفى النعسان ، علّق عليه : أحمد الخاني ومحيي الدين الجراح ، دار المعارف للطباعة ، دمشق ، ط2 (د. ت) .

- التصوير الفني في القران : سيد قطب ، مصر دار المعارف ، ط3 ، (د.ت) .

- تفسير الآصفي : محمد حسين الفيض الكاشاني (1091هـ) ، تحقيق : محمد حسين درايتي ومحمد رضا نعمتي ، مطبعة مكتبة الإعلام الإسلامي ، قم ، ط1 ، 1420هـ .

- تفسير البغوي : البغوي ، تحقيق : خالد عبد الرحمن العك ، دار المعرفة ، بيروت ، (د.ت) .

- تفسير الجلالين : جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت 911هـ) ، دار الحديث ، القاهرة ، ط1 ، (د.ت) .

- تفسير السمرقندي المسمى بحر العلوم : نصر بن محمد بن أحمد أبو الليث السمرقندي ، تحقيق الدكتور محمود مطرجي ، دار الفكر ، بيروت ، (د.ت) .

- تفسير شبّر : السيد عبد الله شبّر ، راجعه الدكتور حامد حفني داود ، مطبوعات بالقاهرة ، ط3 ، 1385هـ - 1966م .

- التفسير الصافي : محسن الفيض الكاشاني ، مؤسسة الهادي ، قم ، ط2 ، 1416هـ .

- تفسير فرات الكوفي : الشيخ أبو القاسم فرات بن إبراهيم بن فرات الكوفي (ت 352هـ) ، مكتبة الهدى ، طهران ، ط1 ، 1410هـ - 1990م .

- تفسير القمي : أبو الحسن علي بن إبراهيم القمي ، صححه وعلّق عليه وقدّم له : السيد طيب الموسوي الجزائري ، مطبعة النجف ، 1387هـ .

- تفسير من وحي القرآن : السيد محمّد حسين فضل الله ، دار الملاك ، بيروت ، لبنان ، ط2 ، 1419هـ - 1998م .

- تفسير النسفي : أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي ، دار إحياء الكتب العربية ، عيسى البابي الحلبي وشركاؤه ، دار الفكر ، (د.ت) .
- تفسير نور الثقلين : الشيخ عبد علي جمعة العروسي الحويزي ، مؤسسة اسماعيليان ، قم ، ايران ، (د.ت) .
- تقنيات المنهج الأسلوبي في سورة يوسف ، دراسة تحليلية في التركيب والدلالة : الدكتور حسن عبد الهادي الدجيلي ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، ط1 ، 2005م.
- التكملة : أبو علي الفارسي ، تحقيق الدكتور كاظم بحر المرجان ، مطابع دار الكتب للطباعة والنشر ، الموصل ، 1981م .
- تنوير المقباس من تفسير ابن عباس : الفيروز آبادي ، دار الكتب العلمية ، لبنان ، (د.ت) .
- تهذيب اللغة : أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري ، تحقيق : محمد عوض مرعب ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ط1 ، 2001م .
- تهذيب المقدمة اللغوية للعلايلي : الدكتور أسعد علي ، دار النعمان ، لبنان ، ط1 ، 1388هـ -1968م .
- التوحيد : العلامة الشهيد مرتضى مطهّري ، دار المحجة البيضاء للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، ط1 ، 1418هـ - 1998م .
- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنّان (تفسير السعدي) : عبد الرحمن بن ناصر السعدي ، تحقيق : ابن عثيمين ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، 1421هـ -2000م.
- جامع البيان في تفسير القرآن : أبو جعفر محمد بن جرير الطبري ، دار المعرفة ، بيروت ، ط2 ، 1392هـ -1972م .

- جامع الدروس العربية : مصطفى الغلاييني ، المكتبة العصرية ، صيدا ، بيروت ، ط12، 1393 هـ – 1973 م .

- الجامع لأحكام القرآن : أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي ، دار الشعب ، القاهرة ، (د.ت) .

- جدلية الإفراد والتركيب في النقد العربي القديم : الدكتور محمد عبد المطلب ، الشركة المصرية العالمية للنشر، لو نجمان ، مطابع المكتب المصري الحديث ، القاهرة ، ط1 ، 1995م .

- جماليات الالتفات ، قراءة جديدة لتراثنا النقدي : عز الدين اسماعيل ، النادي الأدبي ، جدّة ، 1990م .

- جماليات اللفظة بين السياق ونظرية النظم : الدكتور علي نجيب إبراهيم ، دار النهضة العربية ، بيروت ، (د.ت) .

- جماليات المفردة القرآنية : الدكتور أحمد ياسوف ، إشراف وتقديم الدكتور نور الدين عتر، دار المكتبي ، دمشق ، سورية ، ط2 ، 1419هـ – 1999م .

- الجملة العربية والمعنى : الدكتور فاضل السامرائي ، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، ط1 ، 1421هـ - 2000م .

- جموع التصحيح والتكسير في اللغة العربية ، عبد المنعم سيد عبد العال ، دار الاتحاد العربي للطباعة ، القاهرة ، 1977 م .

- الجواهر الحسان في تفسير القرآن : عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي ، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، بيروت ، (د.ت) .

- حاشية الصبان على شرح الأشموني على ألفية ابن مالك ومعه شرح الشواهد للعيني : محمد بن علي الصبان (ت1206هـ) ، ملتزم الطبع والنشر دار إحياء الكتب العربية ، عيسى البابي الحلبي وشركاه ، القاهرة ، (د.ت) .

- الحجاج في القرآن الكريم من خلال أهم خصائصه الأسلوبية : عبد الله صولة ، منشورات كلية الآداب بمنوبة ، 2001م .

- الخصائص : أبو الفتح عثمان بن جني (ت 392هـ) ، تحقيق : محمد علي النجار، عالم الكتب ، بيروت ، (د.ت) .

- خصائص التراكيب ، دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني : الدكتور محمد أبو موسى ، مكتبة وهبة ، دار التضامن للطباعة ، القاهرة ، ط2 ، 1400هـ -1980م .

- خصائص الحروف العربية ومعانيها : حسن عبّاس ، اتحاد الكتّاب العرب ، 1998م .

- الخطاب القرآني ، دراسة في العلاقة بين النص والسياق : الدكتورة خلود العموش ، عالم الكتب الحديثة ، أربد ، ط1 ، 2005م .

- خطرات في اللغة القرآنية : الدكتور فاخر الياسري ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، (د.ت) .

- الخلاصة النحوية : الدكتور تمّام حسّان ، عالم الكتب، القاهرة ، ط2 ، 1425هـ - 2005م.

- الدر المنثور في التفسير المأثـور : جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت911هـ) ، دار الفكر ، بيروت ، 1993م .

- الدراسات الصوتية عند علماء التجويد : غانم قدوري الحمد ، مطبعة الخلود ، إحياء التراث الإسلامي ، ط1 ، 1406هـ -1986م .

- دراسات في ظواهر نحوية : عبد الرحمن فرهود جسّاس والدكتور أسعد خلف العوادي ، دار الحامد للنشر والتوزيع ، عمّان ، ط1 ، 2009م .

- دراسة الصرف العربي : الدكتور مصطفى النمّاس ، مكتبة الفلاح ، الكويت ، ط1 ، 1981م .

- دراسة الصوت اللغوي : أحمد مختار عمر ، عالم الكتب ، القاهرة ، ط1 ، 1396هـ - 1976م .

- دلائل الإعجاز : عبد القاهر الجرجاني (ت 471هـ) ، تحقيق الدكتور التنجي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط1 ، 1415 هـ - 1995م .

- دلالات التراكيب دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني : الدكتور محمد حسنين أبو موسى ، منشورات جامعة قاريونس ، ط1، 1399هـ -1979م .

- دلالة البنية الصرفية في السور القرآنية القصار : الدكتور جلال الدين يوسف العيداني ، دار الراية للنشر والتوزيع ، عمّان ، الأردن ، ط1 ، 1431هـ - 2010م .

- الدلالة القرآنية عند الشريف المرتضى : الدكتور حامد كاظم عباس ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، ط1 ، 2004م .

- دور الكلمة في اللغة : ستيفن أولمان ، ترجمة الدكتور كمال محمد بشر ، مكتبة الشباب ، القاهرة ، ط3 ، 1973م .

- رسالتان في اللغة : أبو الحسن علي بن عيسى الرمّاني (ت384هـ) ، تحقيق وتعليق الدكتور إبراهيم السامرائي ، دار الفكر للنشر والتوزيع ، عمّان ، (د.ت) .

- الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة : أبو محمد مكّي بن آبي طالب القيسي ، تحقيـق : أحمد حسن فرحان ، دار الكتب العربية ، (د.ت) .

- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع الثاني : العلّامة أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، (د . ت) .

- زاد المسير : أبو الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي القرشي ، حققه وكتب حواشيه : محمد بن عبد الرحمن عبد الله ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، ط1 ، 1407هـ - 1987م .

- الزوائد في الصيغ في اللغة العربية في الأفعال : تأليف الدكتور زين كامل الخويسكي ، تقديم الدكتور عبده الراجحي ، دار المعرفة الجامعية ، مصر ، 1985م .

- سرّ صناعة الإعراب : أبو الفتح عثمان بن جني ، تحقيق الدكتور حسن هنداوي ، دار القلم ، دمشق ، ط1 ، 1985م .

- سيكولوجية القصة في القرآن الكريم : الدكتور التهامي نقره ، طبعة الشركة التونسية لفنون الرسم ، تونس ، 1994م .

- شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك : بهاء الدين عبد الله بن عقيل العقيلي الهمداني المصري (ت 769ه) ، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار الفكر ، سوريا ، 1405ه - 1985م .

- شرح الأشموني على ألفية ابن مالك ، نور الدين الأشموني (ت929هـ) ، تحقيق : محمد محّي الدين عبد الحميد ، بيروت ، ط1 ، 1955م .

- شرح التصريح على التوضيح : خالد بن عبد الله الأزهري (ت 905ه) ، دار إحياء الكتب العربية ، (د . ت) .

- شرح الحدود النحوية : عبد الله بن أحمد بن علي الفاكهي (ت972ه) ، دراسة وتحقيق الدكتور زكي فهمي الآلوسي ، بيت الحكمة ، جامعة بغداد ، (د.ت) .

- شرح الرضي على الكافية : محمّد بن الحسن الرضي الاسترآبادي ، تصحيح وتعليق : يوسف حسن عمر ، مؤسسة الصادق للطباعة والنشر ، طهران ، ط2 ، 1386ه .

- شرح شافية ابن الحاجب : الشيخ رضي الدين محمّد بن الحسن الاسترابادي النحوي (ت686ه) ، حققها وضبط غريبها : محمد نور الحسن ومحمد الزفراف ومحمد محيي الدين عبد الحميد ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 1426ه - 2005م .

ـ شرح شافية ابن الحاجب المسمّى بشرح النظام : الحسن بن محمد النيسابوري ، إخراج وتعليق : علي الشملاوي ، مطبعة الأمير ، قم ، ط6 ، 1427هـ .

ـ شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب ، ابن هشام الأنصاري المصري (ت761هـ) ، تحقيق : عبد الغني الدقر ، الشركة المتحدة للتوزيع ، سوريا ، 1404هـ ـ 1984م .

ـ شرح قطر الندى وبل الصدى ، أبو محمد عبد الله جمال الدين بن هشام الأنصاري (ت761هـ) ، صححه : يوسف الشيخ محمد البقاعي ، دار الفكر للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 1418هـ ـ 1997م .

ـ شرح المفصّل : موفّق الدين ابن يعيش النحوي (ت643هـ) ، مكتبة المتنبّي ، القاهرة ، (د . ت) .

ـ شذا العرف في فن الصرف : الشيخ أحمد بن محمد الحملاوي ، دار الكيان للطباعة والنشر والتوزيع ، الرياض ، (د.ت) .

ـ شكل القصيدة العربية في النقد الأدبي حتى القرن الثامن الهجري : الدكتور جودت فخر الدين ، دار الآداب ، بيروت ، ط1 ، 1984م.

ـ الصاحبي : أحمد بن فارس (ت 395 هـ) ، تحقيق : أحمد صقر ، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه ، القاهرة ، (د . ت) .

ـ الصحاح ، تاج اللغة وصحاح العربية : اسماعيل بن حماد الجوهري (393هـ) ، تحقيق : أحمد عبد الغفور عطار ، دار الكتاب ، مصر ، (د.ت) .

ـ الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز : يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم العلوي اليمني (ت 749هـ) ، طبعة المقتطف ، مصر ، 1332هـ –1914م.

ـ ظاهرة الحذف في الدرس اللغوي : الدكتور طاهر سليمان حمودة ، الدار الجامعية للطباعة والنشر ، 1989م .

- ظواهر أسلوبية في الشعر الحديث في اليمن ، دراسة وتحليل : أحمد قاسم الزمر ، مركز عبادي للدراسات والنشر ، الجمهورية اليمنية ، ط1 ، 1417هـ - 1996م .

- الظواهر النحوية والصرفية في شعر المتنبي : عبد الجليل يوسف بدا ، المكتبة العصرية ، صيدا ، بيروت ، ط1 ، 2006م .

- عالم اللغة عبد القاهر الجرجاني (المفتن في العربية ونحوها) ، الدكتور البدراوي زهران ، دار المعارف ، القاهرة ، ط2 ، 1981م .

- العربية الفصحى نحو بناء لغوي جديد : هنري اليسوعي ، تعريب وتحقيق الدكتور عبد الصبور شاهين ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، ط1 ، 1966م .

- عزف على وتر النص الشعري ، دراسة في تحليل النصوص الأدبية الشعرية : الدكتور عمر محمد الطالب ، من منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، 2000م .

- العقيدة الإسلامية : آية الله جعفر السبحاني ، مؤسسة الإمام الصادق (ع)، قم ، (د.ت).

- العلامة الإعرابية في الجملة بين القديم والحديث : الدكتور محمد حماسة عبد اللطيف ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، (د.ت) .

- علم الأسلوب ، مبادئه وإجراءاته : الدكتور صلاح فضل ، الهيأة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ط2 ، 1985م .

- علم الأصوات : برتيل مالمبرج ، مكتبة الشباب ، مصر ، 1985م .

- علم البديع والبلاغة العربية عند العرب : إ.ج. كراتشكوفسكي ، ترجمه وقدم له : محمد الحجري ، دار الكلمة للنشر ، بيروت ، لبنان ، ط2 ، 1983م .

- علم الدلالة : الدكتور أحمد مختار عمر ، مكتبة دار العروبة للنشر والتوزيع الكويت ، ط1، 1402هـ - 1982م .

- علم الدلالة : أف . آر . بالمر ، ترجمة مجيد عبد الحليم الماشطة ، منشورات الجامعة المستنصرية ، بغداد ، 1985م .

- علم الدلالة : جون لاينز ، ترجمة : مجيد عبد الحليم الماشطة وحليم حسين فالح وكاظم حسين باقر ، مطبعة جامعة البصرة ، كلية الآداب ، 1980م .

- علم الدلالة التطبيقي في التراث العربي ، الدكتور هادي نهر ، دار الأمل للنشر والتوزيع ، الاردن ، ط1 ، 2007م .

- علم اللغة العام (الأصوات) ، الدكتور كمال محمد بشر، دار المعارف بمصر، ط5 ، 1979م .

- علم اللغة ، مقدمة للقارئ العربي : الدكتور محمود السعران ، دار المعارف ، مصر ، 1382هـ - 1962م .

- علم اللغة النصّي بين النظرية والتطبيق ، دراسة تطبيقية على السور المكية ، الدكتور صبحي إبراهيم الفقي ، القاهرة ، 1421ه -2000م .

- علم المعاني : الدكتور عبد العزيز عتيق ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت ، 1974م .

- عناية الأصول في شرح كفاية الأصول : السيد مرتضى الحسيني اليزدي ، منشورات الفيروز آبادي ، قم ، ط7 ، (د.ت) .

- العين : الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت175ه) ، تحقيق الدكتور مهدي المخزومي والدكتور إبراهيم السامرائي ، دار ومكتبة الهلال ، (د.ت) .

- الفاصلة القرآنية ، الدكتور عبد الفتاح لاشين ، دار المريخ ، الرياض ، 1402ه - 1982م.

- فتح القدير الجامع بين فنيّ الرواية والدراية من علم التفسير : محمد بن علي بن حمد الشوكاني ، دار الفكر ، بيروت ، لبنان ، (د.ت) .

- الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين : سليمان بن عمر العجيلي الشافعي الشهير بالجمل (ت 1204هـ) ، دار الفكر ، (د . ت) .

- الفروق اللغوية : أبو هلال العسكري ، علّق عليه ووضع حواشيه : محمد باسل عيون السود ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط2 ، 1424هـ - 2003م .

- فقه اللغة وسرّ العربية : أبو منصور الثعالبي (ت 429هـ) ، تحقيق : مصطفى السقا وآخرين ، القاهرة ، 1954م .

- فن البلاغة : الدكتور عبد القادر حسين ، دار نهضة مصر للطبع والنشر ، الفجالة ، القاهرة ، (د.ت) .

- الفن القصصي في القرآن الكريم : محمد أحمد خلف الله ، مطبعة لجنة التأليف والنشر ، ط2 ، 1957م .

- في البحث الصوتي عند العرب : خليل إبراهيم العطية ، دار الجاحظ ، بغداد ، 1403هـ - 1983م .

- في بنية الشعر العربي المعاصر : محمد لطفي اليوسفي ، دار سراش للنشر ، تونس ، 1985م .

- في البنية والدلالة ، رؤية لنظام العلاقات في البلاغة العربية : الدكتور سعد أبو الرضا ، منشأة المعارف ، الاسكندرية ، 1407هـ –1987م .

- في تحليل النص الشعري : عادل ضرغام ، منشورات الاختلاف ، الجزائر ، ط1 ، 1439هـ - 2009م .

- في السيرة النبوية ، تاريخية الدعوة المحمدية في مكّة : هشام جعيط ، دار الطليعة للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 2007م .

- في ظلال القرآن : سيد قطب ، دار الشروق ، القاهرة ، ط13 ، 1425هـ ـ2004م .

- في النحو العربي ، نقد وتوجيه : الدكتور مهدي المخزومي ، دار الشؤون الثقافية العامة ، ط2 ، بغداد ، 2005م .

- في نظرية الرواية ، بحث في تقنيات السرد : عبد الملك مرتاض ، عالم المعرفة ، الكويت ، (د.ت) .

- الفيصل في ألوان الجموع : عباس أبو السعود ، دار المعارف ، مصر ، 1971 م .

- القاموس المحيط : محمد بن يعقوب الفيروز آبادي ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، (د.ت).

- قراءات أسلوبية في الشعر الحديث : الدكتور محمد عبد المطلب ، الهيأة المصرية العامة للكتاب ، 1995م .

- القراءات القرآنية في ضوء علم اللغة الحديث : عبد الصبور شاهين ، مكتبة الخانجى ، القاهرة ، (د.ت) .

- كائن اللغة ، مقاربة في البعد الزمني : علي الفرج ، مؤسسة أم القرى للتحقيق والنشر ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 1421هـ .

- الكامل : أبو العباس محمد بن يزيد المبرد (ت 285هـ) ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار النهضة ، القاهرة ، 1977م .

- الكتاب (كتاب سيبويه) : أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر، (ت 180هـ) ، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط3 ، 1408هـ - 1988م .

- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل : أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري (ت 538هـ) ، تحقيق : عبد الرزاق المهدي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، (د.ت) .

- الكشف والبيان (تفسير الثعلبي) : أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي النيسابوري ، تحقيق : أبو محمد بن عاشور ، مراجعة وتدقيق الأستاذ نظير الساعدي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 1422هـ -2002م .

- الكليات ، معجم في المصطلحات والفروق اللغوية : أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي ، تحقيق الدكتور عدنان درويش ومحمد المصري ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، 1419هـ - 1998م .

- الكنز الدقائق المعروف بتفسير الكنز : الميرزا محمد المشهدي بن محمد رضا بن اسماعيل بن جمال الدين الهندي (ت1125هـ) ، تحقيق : مجتبى العراقي ، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم ، 1407هـ .

- الكون والتوحيد في المنظار الإلهي : الشهيد مرتضى مطهّري ، ترجمة : محمد عبد المنعم الخاقاني ، دار الأمير للثقافة والعلوم ، ط1 ، 1413هـ - 1993م .

- لسان العرب : أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري (ت 711هـ) ، دار صادر ، بيروت ، ط1 ، (د.ت) .

- اللسانيات وآفاق الدرس اللغوي : الدكتور أحمد محمد قدور ، دار الفكر المعاصر ، بيروت ، دار الفكر ، دمشق ط1 ، 1422هـ - 2001م .

- اللغة بين المعيارية والوصفية : الدكتور تمّام حسان ، دار الثقافة ، مطبعة النجاح الجديدة ، الدار البيضاء ، المغرب ، 1400هـ -1980م .

- اللغة العربية معناها ومبناها : الدكتور تمام حسان ، عالم الكتب ، القاهرة ، 1425هـ - 2004 .

- ليس في كلام العرب : ابن خالويه (ت370هـ) ، تحقيق : أحمد عبد الغفور عطّار ، ط2 ، 1399هـ – 1979م .

- المؤلفات الكاملة : زكي الأرسوزي ، جامعة الكويت ، كلية التجارة ، (د.ت) .

- مباحث في علوم القرآن : حسين صالح حمادة ، دار المحجة البيضاء ، للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 1429هـ - 2008م .

- مباحث في علوم القرآن : الدكتور صبحي الصالح ، دار العلم للملايين ، بيروت ، لبنان ، ط17 ، 1988م .

- المبدع في التصريف : أبو حيان الأندلسي (ت 745 هـ) ، تحقيق الدكتور عبد الحميد السيد طلب ، مكتبة دار العروبة للنشر والتوزيع ، الكويت ، ط1 ، 1982م .

- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: ضياء الدين بن الأثير (ت 637هـ) ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، شركة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي ، القاهرة ، 1358هـ -1939م .

- مجمع البيان في تفسير القرآن : أبو علي الفضل بن الحسن بن الفضل الطبرسي ، وضع حواشيه وخرج آياته وشواهده إبراهيم شمس الدين ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 1418هـ - 1997م .

- محاضرات في اللسانيات : فوزي حسن الشايب ، منشورات وزارة الثقافة ، عمّان ، 1420هـ - 1999م .

- المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها : أبو الفتح عثمان بن جني ، تحقيق الدكتور علي الجندي وعبد الحليم النجار والدكتور عبد الفتاح اسماعيل شلبي ، لجنة إحياء التراث الإسلامي ، القاهرة ، 1386هـ .

- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز : أبو محمد عبد الحق بن عطية الأندلسي ، قطر ، الدوحة ، ط1 ، 1988م .

- المحكم والمحيط الأعظم : أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي ، تحقيق : عبد الحميد هنداوي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط1 ، 2000م .

- المدارس النحوية أسطورة وواقع : الدكتور إبراهيم السامرائي ، دار الفكر ، عمّان ، 1987م .

- المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي : رمضان عبد التواب ، مطبعة المدني ، المؤسسة السعودية بمصر ، ط2 ، 1405هـ - 1985م .

- مدخل لفهم اللسانيات : روبير مارتان ، ترجمة الدكتور عبد القادر المهيري ، المنظمة العربية للترجمة ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 2007م .

- مدرسة الكوفة ومنهجها في اللغة والنحو : الكتور مهدي المخزومي ، دار الرائد العربي ، بيروت ، لبنان ، ط3 ، 1406هـ - 1986م .

- المصطلح النحوي ، نشأته وتطوره حتى أواخر القرن الثالث الهجري : عوض حمد القوزي ، عمادة شؤون المكتبات ، جامعة الرياض ، ط1 ، 1401هـ - 1981م .

- معارف القرآن : آية الله جواد آملي ، دار الصفوة للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 1429هـ - 2009م .

- معاني الأبنية في العربية : الدكتور فاضل السامرائي ، كلية الآداب ، جامعة الكويت ط1 ، 1401هـ - 1981م .

- المعاني في ضوء أساليب القرآن : الدكتور عبد الفتاح لاشين ، دار المعارف ، مصر ، ط3 ، 1978م .

- معاني القرآن : أبو زكريا يحيى بن زياد الفرّاء (ت207هـ) ، تحقيق الدكتور محمد علي النجّار وآخرون ، مطبعة دار الكتب المصرية ، 1375هـ - 1955م .

- معاني القرآن : سعيد بن مسعدة البلخي المجاشعي الأخفش ، دراسة وتحقيق الدكتور عبد الأمير محمد أمين الورد ، عالم الكتب ، بيروت ، ط1 ، 1405هـ - 1985م .

- معاني القرآن وإعرابه : أبو اسحق إبراهيم بن السَّري الزجّاج (311هـ) ، شرح وتحقيق الدكتور عبد الجليل عبدُه شلبي ، عالم الكتب ، بيروت ، ط1 ، 1408ه – 1988م .

- معاني النحو : الدكتور فاضل صالح السامرائي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ط1 ، 1428هـ - 2007م .

- معايير تحليل الأسلوب : ميكائيل ريفاتير ، ترجمة حميد لحمداني ، منشورات دراسات ، ط1 ، 1993م .

- معجم القراءات : الدكتور عبد اللطيف الخطيب ، دار سعد الدين للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق ، ط1 ، 1422هـ - 2002م .

- معجم مقاييس اللغة : أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا ، تحقيق : عبد السلام محمد هارون ، دار الجيل ، بيروت ، ط2 ، 1420هـ -1999م .

- المعجم الوسيط : إبراهيم مصطفى وأحمد الزيات وحامد عبد القادر ومحمد النجار ، تحقيق : مجمع اللغة العربية ، دار الدعوة ، (د.ت) .

- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب : جمال الدين بن هشام الأنصاري (ت761هـ) ، حققه وخرج شواهده الدكتور مازن المبارك ومحمد علي حمد الله ، راجعه سعيد الأفغاني ، دار الفكر، دمشق ، ط1 ، 1384هـ -1964م .

- مفتاح العلوم : أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر السكاكي (ت 626هـ) ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط1، 1356هـ -1937م .

- المفصّل في علم العربية : جار الله محمود بن عمر الزمخشري (ت538هـ) ، تحقيق : علي بو ملحم ، مكتبة الهلال ، بيروت ، ط1 ، 1993م .

- مفردات ألفاظ القرآن : العلّامة الراغب الأصفهاني (ت 425هـ) ، تحقيق : صفوان عدنان داوودي ، دار القلم ، دمشق ، الدار الشامية ، بيروت ، ط1 1416هـ -1996م.
- مقاصد السور في القرآن الكريم : آية الله العظمى السيد محمد تقي المدرسي ، محبّان الحسين (عليه السلام) ، قم ، ط1 ، 1427هـ - 2006م .
- المقتضب : أبو العباس محمد بن يزيد المبرد (ت 285هـ) ، تحقيق محمد عبد الخالق عضيمة ، عالم الكتب ، بيروت ، (د.ت) .
- مقتنيات الدرر وملتقطات الثمر : مير سيد علي الحائري الطهراني ، دار الكتب الإسلاميـة ، طهران ، 1337هـ .
- الممتع في التصريف : ابن عصفور الأشبيلي (ت 669هـ) ، تحقيق : فخر الدين قباوة ، المطبعة العربية ، حلب ، ط1 ،1970م .
- من أساليب التعبير القرآني ، دراسة لغوية وأسلوبية في ضوء النص القرآني : الدكتور طالب محمد اسماعيل الزوبعي ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 1996م .
- من بلاغة القرآن : الدكتور أحمد أحمد بدوي ، مكتبة نهضة مصر ، ط3 ، (د.ت) .
- من بلاغة النظم العربي : الدكتور عبد العزيز عبد المعطي عرفة ، عالم الكتب ، بيروت ، ط1 ، 1984م .
- منازل الرؤيا ، منهج تكاملي في قراءة النص : سمير استيتية ، ط1، عمان ، الأردن ، دار وائل ، 2000م .
- المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع : محمد القاسم الأنصاري السجلماسي ، تقديم وتحقيق علّال الغازي ، مكتبة المعارف ، الرباط ، المغرب ، ط1 ، 1401هـ -1980م.

- المنصف في شرح تصريف المازني : أبو الفتح عثمان بن جني ، تحقيق : إبراهيم مصطفى وعبد الله أمين ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، ط 1 ، 1373هـ - 1954م .

- المنهج الصوتي للبنية العربية : الدكتور عبد الصبور شاهين ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، 1400هـ -1980م .

- موسيقى الشعر : الدكتور إبراهيم أنيس ، مطبعة لجنة البيان العربي ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ط3 - 1965م .

- الموسيقى الكبير : الفيلسوف أبو نصر محمد بن محمد بن طرخان الفارابي (ت339هـ) ، تحقيق وشرح : غطّاس عبد الملك خشبة ، مراجعة : الدكتور محمود أحمد الحفني ، دار الكاتب العربي ، القاهرة ، (د.ت) .

- الميزان في تفسير القرآن : السيد محمد حسين الطباطبائي ، مؤسسة السيدة المعصومة للطباعة والنشر ، قم ، ط1 ، 1425هـ .

- نحو القرآن : الدكتور أحمد عبد الستار الجواري ، مطبعة المجمع العلمي العراقي ، بغداد ، 1394هـ -1974م .

- نحو المعاني : الدكتور أحمد عبد الستار الجواري ، مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد ، 1407هـ –1987م .

- النص القرآني من الجملة إلى العالم : وليد منير ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، القاهرة ، ط1 ، 1418هـ - 1997م .

- نظام الارتباط والربط في تركيب الجملة العربية : الدكتور مصطفى حميدة ، الشركة العالمية للنشر، دار فوبار للطباعة ، القاهرة ، ط1 ، 1997م .

- نظرات حديثة في التفسير : محمد عبد الرحمن الجديلي ، المكتب التجاري للطباعة ، ط1 ، 1963م .

- نظرية البنائية في النقد العربي : الدكتور صلاح فضل ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القـاهرة ، ط2 ، 1980م .

- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور : برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي ، دار الكتاب الإسلامي ، القاهرة ، (د.ت) .

- النوادر : أبو زيد الأنصاري ، تحقيق الدكتور محمد عبد القادر ، دار الشروق ، ط1 ، 1981م .

- الواضح في النحو والصرف (قسم الصرف) : الدكتور محمد خير الحلواني ، دار المأمون للتراث ، دمشق ، 1978م .

- الوافية في أصول الفقه : المولى عبد الله بن محمد البشروي الخراساني (ت 1071هـ) ، تحقيق : السيد محمّد حسين الرضوي الكشميري ، مجمع الفكر الإسلامي ، قم ، ط1 ، 1412هـ .

- الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (تفسير الواحدي) : أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي ، تحقيق : صفوان عدنان داوودي ، دار القلم ، الدار الشامية ، دمشق ، بيروت ، 1415هـ.

- الوحي والنبوة في القرآن : آية الله جواد آملي ، دار الصفوة للطباعة والنشر والتوزيع ، بئر العبد ، بيروت ، لبنان ، 1429هـ - 2009م .

- الوظائف الدلالية للجملة العربية ، دراســة لعلاقات العمل النحوي بين النظرية والتطبيق : محمد رزق شعير ، مكتبة الآداب للنشر والتوزيع ، 2007م.

الرسائل والأطاريح الجامعية :

- الأبنية الصرفية في ديوان امرئ القيس (أطروحة دكتوراه) : صباح عباس السالم ، كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، 1987م .
- أساليب المجاز في القرآن الكريم (أطروحة دكتوراه) : أحمد حمد محسن الجبوري ، جامعة بغداد ، 1989م .
- الالتفات في القرآن الكريم (أطروحة دكتوراه) : مازن موفق صدّق الخيرو ، كلية الآداب ، جامعة الموصل ، 1427هـ - 2008م .
- الإيقاع أنماطه ودلالاته في لغة القرآن الكريم ، دراسة أسلوبية دلالية (رسالة ماجستير) : عبد الواحد زيارة اسكندر المنصوري ، جامعة البصرة ، 1416هـ - 1995م .
- البحث الدلالي في تفسير من وحي القرآن للسيد محمد حسين فضل الله (أطروحة دكتوراه) : جابر محيسن عليوي ، كلية التربية ، جامعة البصرة ، 1428هـ - 2007م .
- البنى النحويّة وأثرها في المعنى (أطروحة دكتوراه) : أحمد عبد الله حمود العاني ، كلية الآداب ، جامعة بغداد ، 1423هـ - 2003م .
- البنية الأسلوبية في التراكيب النحوية (أطروحة دكتوراه) : مهدي حمد مصطفى عبد الله آل سيد علي العاني ، جامعة بغداد ، 1424هـ - 2003م .
- التغيّر الصوتي في الفواصل القرآنية ودلالاته (أطروحة دكتوراه) : اِبتسام عبد الحسين سلطان القصير ، جامعة بغداد ، 1427هـ –2006 م .
- التفسير البياني للتراكيب القرآنية ذوات الدلالات الاحتمالية (أطروحة دكتوراه) : نوار محمد إسماعيل الحيالي ، جامعة الموصل ، 1425هـ - 2004م .

- التوازي التركيبي في القرآن الكريم (رسالة ماجستير) : عبد الله خليف خضير عبيد الحيّاني ، جامعة الموصل ، 1425هـ - 2004م .
- الدلالة الصوتية في آي مشاهد القيامة (أطروحة دكتوراه) : فيصل مرعي حسن الحريثي، كلية التربية ، جامعة الموصل ، 1426هـ - 2006م .
- السجع القرآني (أطروحة ماجستير) : هدى عطية عبد الغفار ، كلية الآداب ، جامعة عين شمس ، 2001م .
- قوة المعنى في العربية (أطروحة دكتوراه) : مهنّد ذياب فيصل الجبر ، كلية التربية ، جامعة البصرة ، 1431هـ - 2010م .

البحوث والدراسات :

- أبرز خصائص لغات هذيل : الدكتور عبد الرحمن محمد إسماعيل ، مجلة معهد اللغة العربية ، ع2 ، المملكة العربية السعودية ، 1984م .
- أسلوب الالتفات بين التراث والمعاصرة : محمد بركات أبو علي ، المورد ، مج12 ، ع3.
- الإعجاز الصوتي في قصار السور : أحمد فليح ، مجلة جامعة تكريت للعلوم الإنسانية ، مج12 ، ع5 ، 2005م .
- الأفكار الأساسية بعلم الصوت الحديث وتطبيقاته على اللغة العربية : الدكتور خليل إبراهيم الحماش ، مجلة آفاق عربية ، السنة الرابعة ، ع9 ، آيار 1979م .
- تبادل الضمائر وطاقته التعبيريّة : محمد نديم خشفة ، مجلة البيان ، ع292 ،1990م .
- الجملة العربية في ضوء الدراسات اللغوية الحديثة : الدكتور نعمة رحيم العزاوي ، كتاب المورد ، دراسات في اللغة ، بغداد ، 1986 م .

- جهود علماء العرب في الدراسة الصوتية : إبراهيم أنيس ، مجلة مجمع اللغة العربية ، ج15 ، 1962م .

- القياس وصيغ المبالغة : صلاح الدين الزعبلاوي ، مجلة التراث العربي ، اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، العددان (11) و (12) ، السنة الثالثة ، نيسان وتموز 1983م .

- مفهوم الجملة في اللسانيات والنحو العربي : الدكتور محمد خير الحلواني ، مجلة المناهل، ع26 ، السنة 10، 1403هـ –1983م .